من المؤمنين رجال

منهج شيخ الإسلام

ابن تيمية

التجديدي السلفي ودعوته الإصلاحية

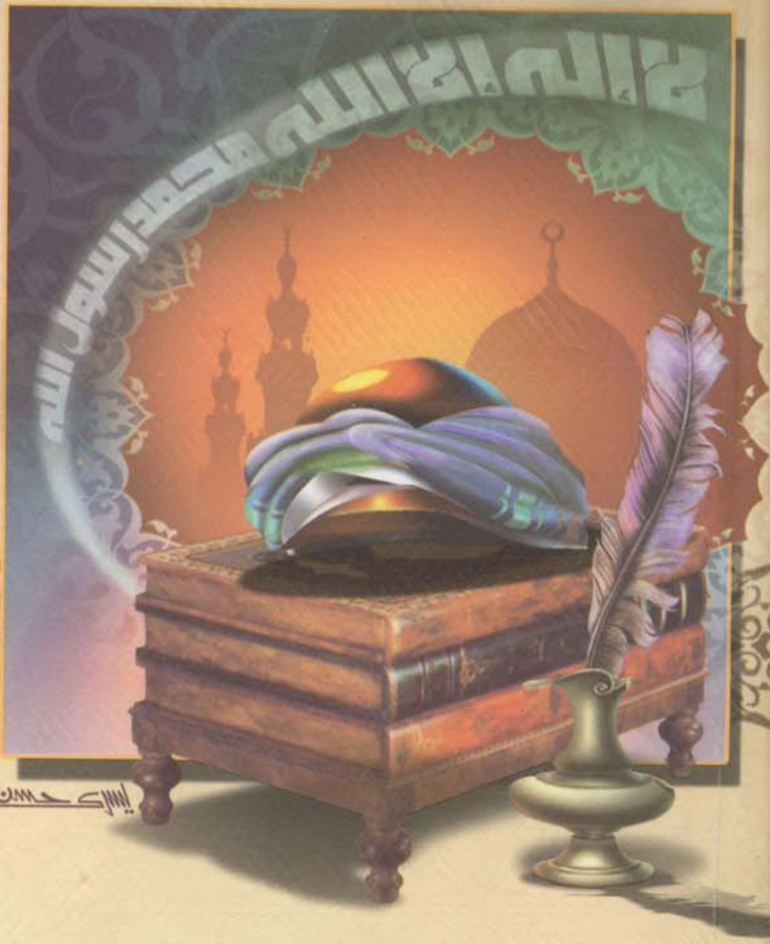

الشيخ الدكتور
سعيد عبد العظيم
عفا الله عنه

دار الإيمان
إسكندرية

منهج شيخ الإسلام

ابن تيمية

التجديدي السلفي ودعوته الإصلاحية

منهج شيخ الإسلام

ابن تيمية

التجديدي السلفي ودعوته الإصلاحية

فضيلة الشيخ الدكتور

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي
فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ .

[آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) ﴾ .

[النساء : ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) ﴾ .

[الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النَّار .

كثر أدعياء التجديد والإصلاح ، وازدادت بهم الدنيا غربة على غربتها ، ولا سبب لذلك إلا لابتعادهم عن منهج ربهم ، وانحرافهم عما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ، وهم في ذلك بين مقل ومُستكثر ، ومن المعلوم أن الإصلاح والتجديد لا يتم بمجرد الدعوى أو النوايا الطيبة ، أو إضفاء الألقاب والنعوت على هذا أو ذاك ، إذ لابد من صحة العمل ، وذلك لأن الله لا يصلح عمل المفسدين ، ولا يضيع أجر المحسنين ، والعاقبة للمتقين ، وقد وصف سبحانه المنافقين بقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ

يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ [البقرة : ١١ ، ١٢] .

وأدعياء التجديد والإصلاح ما برز أمرهم في الآونة الأخير إلا لندرة القادة والمصلحين الحقيقين ، ولذلك وجب السعي والأخذ بالأسباب لسد الثغرات ، وإيجاد الكفاءات التي تحسن المسير إلى الله، وتقيم الحق في الخلق، وترتفع همتها بارتفاع دعوة الإسلام ، وقد ورد في الحديث عن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت النَّبي ﷺ يقول : «لا تزال طائفة من أُمَّتي قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم ، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على النَّاس » (١) .

وفي لفظ : « من يرد الله به خيراً يفقه في الدين ، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة » (٢) .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « لا تزال طائفة من أُمَّتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ـ قال : ـ فينزل عيسى بن مريم فيقول أميرهم : تعال صلِّ بنا ، فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله لهذه الأمة » (٣) .

قال البخاري ـ رحمه الله ـ في وصف هذه الطائفة : « هم أهل العلم » .

وقال القاضي عياض ـ رحمه الله ـ : « إنما أراد أحمد أهل السُّنَّة والجماعة » .

وذكر ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : « أهل السُّنَّة هم الطائفة المنصورة » .

وقال النووي ـ رحمه الله ـ : « يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين ، ـ وعدَّد أنواعهم فقال : إنهم شجعان مقاتلون فقهاء ، محدثون زهاد ، آمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين ، بل قد يكونون متفرقين في أنحاء الأرض » .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه مسلم .

فأين أدعياء التجديد والإصلاح من الملاحدة والزنادقة ، الذين وصفوا أنفسهم بالتنوير ، ورموا دين الله بنعوت التخلف والرجعية والظلامية !! .

أقول : أين هؤلاء مما وردت به نصوص الشريعة ونطقت به أقوال أهل العلم ، وفي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عن النَّبي ﷺ قال : « **إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها** » (١) .

قال الخطيب البغدادي في « التاريخ » : « وقد اعتمد الأئمة هذا الحديث فروينا في « المدخل » للبيهقي بإسناده إلى الإمام أحمد أنه قال بعد ذكره إياه : « وكان في المئة الأولى : عمر بن عبد العزيز ، وفي الثانية : الشافعي » .

وقد يحدث هذا التجديد على يد فرد، وقد يتم على يد جماعة من أهل السُّنَّة ، تتوافر فيهم صفات الطائفة الناجية الظاهرة المنصورة ، ونحسب شيخ الإسلام واحداً من هؤلاء المجددين المصلحين ، ولا نزكيه على الله ، فالمجدد المصلح يجب أن يكون ربانيًّا ، بحيث ينصبغ بصبغة الإسلام في كل ناحية من نواحي حياته ، ومع كل نفس من أنفاسه ، في العقيدة والشريعة والأخلاق والحكم ، وهذه الصبغة تأخذ من الكتاب والسُّنَّة ، ولا يصح خلطها بالفلسفة ، ولا يمكن الحصول عليها من أديان منحرفة أو مباديء ضالة : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾[الأنعام : ٧١] .

وينبغي أن يكون عنده من البصيرة والفرقان ما يميز به بين الحق والباطل ، والإيمان والكفر ، وهذا لا يتحقق إلا بالعلم النافع والعمل الصالح ، ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾[يوسف : ١٠٨] ، وأن يتوافر عنده من العزة الإيمانية ما يجعله لا يذهب صولة الباطل ، أو عنفوان الكفر أو أن تأخذه في الله لومة لائم ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) ﴾[آل عمران : ١٣٩] .

---

(١) أخرجه أبو داود والحاكم والطبراني في الأوسط بإسناد صحيح .

فهذه العزة مصدرها الإيمان لا الجنس، ولا اللون ولا اللغة أو المال ، أو النسب ، فلا يخجل من انتمائه للإسلام ، ولا من إظهاره لشعائره ، يُبلغ شريعة الإسلام وعقيدته إلى الناس كافة ، ثم هو يتمسك بالحق ويتثبت عليه ، ويجاهد في سبيله بكل ما يملك ، ويتخوف على نفسه من المعصية ، ويتعوذ بالله من الفتن ، ما ظهر منها وما بطن ، ويتفرغ إلى ربه ويعلم أنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، ويستصحب في سفره إلى ربه زاد التقوى ، ويصبر على ما أصابه ، فالنصر عقبى الصابرين .

والمجدد المصلح لابد وأن يكون شديد الحب لربه ، قوي التعلق به ، ذا أوبة ، ويتمنى لقاؤه سبحانه في غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، والناظر في سيرة شيخ الإسلام ، وفي علمه وعبادته وجهاده ، لابد وأن يلمس ذلك ، ولا نعني بذلك الغلو فيه ـ رحمه الله ـ فليس من شرط المجدد المصلح أن يكون معصومًا ، بل يكفيه أن يكون متبعًا للمعصوم ﷺ ، ولأنه لا عصمة لأحد من البشر بعد رسول الله ﷺ ، وكل ابن آدم خطَّاء ، وخير الخطَّائين التوابون ، وكل إنسان يُؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول الله ﷺ ، ولا يشينه مراجعة العلماء له في بعض المسائل ، فالعالم المجتهد له أجران إذا أصاب ، وله أجر إذا أخطأ ، ولكل جوادٍ كبوة ، ولكل عالمٍ زلة ، وكفى بالمرء نبلاً أن تعدُ معايبه ، فإذا كثرت الحسنات كان الإنسان إلى العفو أقرب .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [فاطر : ٣٢] ، والسابق بالخيرات هو الذي غلبت حسناته على سيئاته .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ : « وبالجملة كان رحمه الله من كبار العلماء ، وممن يخطيء ويصيب ، ولكن خطأه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجِّي ، وخطأه أيضًا مغفور ، كما في صحيح البخاري « **إذا اجتهد الحاكم فأصاب ، فله أجران ، وإذا اجتهد فخطأ فله أجر** » (١) فهور مأجور .

(١) مجموع الفتاوى (٣/٢٢٦) .

وقال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ : « ومع ذلك فهو بشر يخطيء ويُصيب ، فالذي أصاب فيه ـ وهو الأكثر ـ يستفاد منه ويترحم عليه بسببه ، والذي أخطأ فيه لا يقلد فيه ، بل هو معذور ، لأن أئمة عصره ، شهدوا له بأن أدوات الاجتهاد اجتمعت فيه » . أ . هـ .

ولا يطعن في شيخ الإسلام مخالفة الصوفية له ، قديمًا وحديثًا ، كاتباع الطريقة العزمية ، الذين رموه ـ رحمه الله ـ بأنه من ثالوث التكفير ، هو وابن القيم ، والشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فهذا من البهتان العظيم ، الذي يجب تبرئته منه ، على ضوء ما سنبين من معتقده ـ رحمه الله ـ ، ولا يقدح فيه أيضًا كانت ذم الملاحدة والزنادقة وبعض المخالفين لأهل السُّنَّة والجماعة ، كالمعتزلة والأشاعرة ، طالما كانت دوافع الذم معلومة ، فلغرض أو مرض هوجم ابن تيمية كما يذكر ابن الألوسي ، فالبعض عاداه بسبب المعاصرة والمنافسة ، وما يجري بين الأقران في كل زمان ، والبعض للمخالفة المذهبية في بعض المسائل الفرعية الاجتهادية وبعض الاعتقادية ، ومنهم من طعن من غير تحقيق وروية ، ومنهم لاعتراضه على بعض كلمات الصوفية ، المغاير ظاهرها الشريعة المطهرة ، ولأنه سلفي الاعتقاد ، كالأئمة الأمجاد ، وطاعنوه كما تعلم خلفيون ، ولآيات الصفات مؤولون .

وحسبه ـ رحمه الله ـ ثناء العلماء المعتبرين عليه ، كما سنوضح ـ بإذن الله ـ ومحبة الصالحين من العباد له على مر العصور وكر الدهور ، فهذا عنوان محبة الله له ، وهذا بسبب استقامته على كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ، وموافقته لخير القرون ، علمًا وعملاً واعتقادًا .

وقد كان رحمه الله يقول : « إني في عمري إلى ساعتي هذه لم أدع أحدًا قط في أصول الدين ـ أي : المسائل التي يجب اعتقادها قولاً ، أو قولاً وعملاً ، كمسائل التوحيد والصفات ، والقدرة والنبوة ، والمعاد ، ودلائل هذه المسائل ـ إلى مذهب حنبلي أو غير حنبلي ، ولا انتصرت لذلك ، ولا أذكره في كلامي ، ولا أذكر إلا ما

اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ، وقد قلت لهم غير مرة أنا أُمهل من خالفني ثلاث سنين إن جاء بحرف واحد عن أحد من أئمة القرون الثلاثة ، بألفاظهم وألفاظ من نقل إجماعهم من عامة الطوائف ، هذا مع أني دائمًا ومن جالسني يعلم ذلك منّي أني من أعظم الناس نهيًّا عن أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية ، إلا إذا عُلِمَ أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرًا تارة ، وفاسقًا أخرى ، وعاصيًا أخرى ، وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية ، والمسائل العلمية ، وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل ، ولم يشهد أحدٌ منهم على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا معصية » أ . هـ .

فتأمل رحمك الله هذه العبارة حتى تدرك مدى رسوخ شيوخ الإسلام في دين الله ، وأنه بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب ـ عليهما السلام ـ مما رماه به مخالفوه ـ سامحهم الله ـ .

إن الأمة اليوم تعاني من انحرافات عقائدية متمثلة في موجات الإلحاد واستيراد المباديء الكافرة، والنُّظم الفاجرة ، وانحرافات فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته وأفعاله ، ويكفي نظرة سريعة على الجامعات والكتب والدعاة ، والذين يروجون لأفكار المعتزلة وعقائدها ، حتى انتشرت النزعات العقلانية وسط المسلمين ، والتّهجم على نصوص الشريعة بزعم مخالفتها للعقل ، وحتى الانحرافات الطائفية القديمة ، كالشيعة والصوفية ؛ لازالت قوية ونشطة رغم انحرافها وفساد معتقداتها ، هذا بالإضافة إلى الإنحرافات الطائفية الحديثة ، كالبهائية والقاديانية ونحوها من الطوائف التي خرجت على عقيدة الإسلام بدعوى النبوة لزعمائها ، ونزول الوحي عليهم ، وهي تتستر في كثير من البلدان باسم الإسلام ، وهي خارجة عنه .

فإذا انتقلنا إلى العبادات وجدنا الغلو المفرط في أدائها ، والذي كان يتمثل فيما سبق في طائفة الخوارج والصوفية ، حيث كان لكل منهم غلو مفرط في جانب أو جوانب منها ، وفي مقابل ذلك وُجِدَ الإهمال المطلق للعبادات والإكتفاء بالتلفظ

بالشهادتين ، وهذا الانحراف كان من ثمرات الإرجاء الذي لا يُعطي للعمل اهتمامًا ، هذا بالإضافة إلى عدم إلتزام كثير من المسلمين بالأداء الصحيح للعبادات .

وحالتنا فيما يتعلق بالشريعة لا يقل سوءًا ، فمحاربة الشريعة واستبدال القوانين الوضعية بها ، أو محاولة التوفيق بين الشريعة والأنظمة الوضعية ، كل هذا كان من آثار الإستعمار العسكري والفكري ، الأمر الذي أفسد عقلية الأُمَّة ، حتى وجد في المسلمين من يتحمس لقوانين الغرب وفكره ، ويدعوا لتطبيقها ومتابعتها .

فما أحواجنا الأن إلى الرجوع إلى الكتاب والسُّنَّة علاجًا لهذا العوج التي ترامى بالأُمَّة إلى العطب والمهانة والمذلة ، ما أحرانا أن نرجع لمثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام

فكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف

وما لم يكن يومئذٍ دين فليس اليوم بدين ، ولن يصلح آخر هذه الأُمَّة إلا بما صلح به أولها ، وكلنا يقين ـ بإذن الله ـ أن الخلافة ستعود على منهاج النبوة ، كما أخبر الصادق المصدوق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أي أنها ليست شيعية ولا خارجية ولا معتزلية ولا صوفية .

وكلنا أيضًا ثقة في أن المستقبل للإسلام بغالبيته وظهوره على الأديان كلها ، وهذا يتطلب جهدًا كبيرًا ، وأن نعود أقوياء ، معنويًا وماديًا ، وأن نعلم أن أعظم معاني القوة ، قوة الإيمان وعمق اليقين .

إن الأُمَّة اليوم وهي تواجه أعدائها من اليهود وغيرهم ، تحتاج رجالاً ممن علت همَّتهم وأحاطوا بالإسلام من جميع جوانبه، ويحسنون التأسي بسلفنا الصالح، الذين غيَّر بهم ربنا وجه الأرض ، حتى دانت لهم الدنيا شرقًا وغربًا ، وامتلكوا قصور كسرى وقيصر ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) ﴾ [الأحزاب : ٢٣] ، بهم قام الإسلام ، وبه قاموا .

ومن هؤلاء : شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ رجل والرجال بحق قليل ، فهو من الصنف الذين آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين ، فكانت حياته ومماته سيرة عطرة ، وكانت ترجمته عظةٌ وعبرة ، ولم يخطيء الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ حين قال : « التراجم والسير أحبُ إلينا من كثيرٌ من الفقه » .

وإليك يا أخي ملامح دعوته التجديدية والإصلاحية ، حتى تدرك أن مثل الأُمَّة كالمطر ، لا يدري أوله خير أو آخره ، وأن الخير والجهاد ماضٍ في هذه الأُمَّة ، وأنها أُمَّة أشبه بمعين لا ينضب ، فلا يأس ولا قنوط من رحمة الله .

لقد تمنَّى عمر مليء داره أمثال أبي عبيدة ابن الجراح ـ أمين هذه الأُمَّة ـ حتى يُقيم بهم أركان حكمه ويؤتمنون على تطبيق شرع الله ، ونحن بدورنا ندعوا ربنا أن يصلح شأننا كله ، ولا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا إلى أحدٍ من خلقه ، وأن يُبرم لهذه الأمة أمر رشد ، يُعز فيه أهل طاعته ، ويُذل فيه أهل معصيته ، ويُؤْمر فيه بالمعروف ، ويُنهى فيه عن المنكر، وأن يُكثر فينا من يُحسن التأسي بسلفنا الصالح، علماً وعملاً واعتقاداً ، عساه سبحانه أن يُغير بنا وجه الأرض ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

فإليك أخي الفاضل الكريم رسالة : [شيخ الإسلام ابن تيمية وملامح دعوته التجديدية الإصلاحية] ، لك غنمها ، وعليَّ غُرمها ، فما فيها من صواب فمن الله ، وما فيها من خطأ وقصور ، فمن نفسي ومن الشيطان ، والله منه براء .

وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أُنيب ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كتبه

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

نشأة شيخ الإسلام ابن تيمية

-رحمه الله-

أولاً : عصر ابن تيمية - رحمه الله - :

ظهر عِلم الكلام لمقاومة الفلسفة ونصرة الدين ، غير أنه تأثر بالفلسفة وتسربت إليه روحها حتى تكونت « فلسفة دينية » تنتهج نفس المنهج وتتبع نفس الأسلوب للبحث والاستبدال ، وتعيد نفس الخطأ ، فكانت هذه الفلسفة الإلهية الجديدة ، قد انحرفت عن منهج أهل السُّنَّة والجماعة ، وتأثرت بالفكر اليوناني رغم أنها ظهرت ضد الفلسفة اليونانية ، وزاد من خطورة هذه الفلسفة الدينية إنتسابها زوراً للإسلام ، وتكلُّم بعض المرموقين بها .

وقد كانت بلاد الإسلام هدفًا لهجوم صليبي متتابع ، وكان المسيحيون قد تحمسوا لإثبات أن المسيحية هي الدين الحق ، وشجعهم ضعفُ المسلمين على تأليف كتب ترفض نبوة محمد ﷺ ، وأخرى أرادوا بها إثبات فضل دينهم ، ووجدت فرقة الباطنية وفروعها المختلفة من الإسماعيلية ، والحشاشية ، والدروزية ، والنصيرية مرتعاً خصبًا لتبييت المؤامرات وتدبير الثورات ، والتعاون مع أعداء الإسلام والمسلمين كالصليبيين والتتر .

والناظر في هذا العصر سيجد أن المسلمين قد وقعوا فريسة العقائد الباطلة واشتداد نزعات الغلو والإفراط في الاعتقاد في الأولياء والصالحين شأن اليهود والنصارى ، واتخاذ قبور الأنبياء ، والصالحين مساجد، ولم يكن المسلمون يشعرون بأي غضاضة في التخلق بأخلاق الذمِّيين والكافرين ، واتخاذ شعائرهم وخصائصهم والحضور في أعيادهم والتشبه بهم في تقاليدهم وعاداتهم ، وقد تسرب إلى الصوفية تأثير الفلسفة الإشراقية ، التي جاءت من اليونان والهند فظهرت عقيدة الحلول

والإتحاد ، ومذهب وحدة الوجود ، وتقسيم الدين إلى ظاهر وباطن ، والدعوة إلى سقوط التكاليف الشرعية عن الواصليين .

وقد شاع القول بغلق باب الاجتهاد ، رغم كثرة المشكلات والحاجة الماسة لإيجاد حلول لها ، هذا بالإضافة إلى الجمود المذهبي والتعصب المقيت للأراء في مواجهة نصوص الشريعة ، وبالجملة فالسوء الذي تردت إليه الأوضاع كان يتطلب علاجًا وإلا فهو نذير شر وخيم .

ثانيًا : ظروف ولادة ابن تيمية - رحمه الله - :

ولد ابن تيمية بعد تدمير بغداد بخمس سنوات ، ودخول التتر في حلب ودمشق بثلاث سنوات فقط ، وكان المماليك يحكمون مصر والشام من قبل مولد ابن تيمية بثلاث عشرة سنة ، وكانوا أتراكًا ، وكان من جملتهم سيف الدين قطز ، وهو الذي هزم التتر هزيمة نكراء ، ثم تولى الحكم من بعده الظاهر بيبرس ، فانتصر على التتر والصليبيين ، واستمر في الحكم ثمانية عشر عامًا ، وقد تحدث ابن كثير عنه فقال : « كان - رحمه الله - متيقظًا شهمًا شجاعًا لا يفتر عن الأعداء ليلاً ولا نهارًا ، بل هو مناجز لأعداء الإسلام وأهله ، ولَمَّ شعثه ، واجتماع شمله ، وبالجملة أقامه الله في هذا الوقت المتأخر عونًا ونصرًا للإسلام وأهله ، وشجًا في حلوق المارقين من الفرنج والتتار والمشركين ، وأبطل الخمور ونفى الفسَّاق من البلاد ، وكان لايرى شيئًا من الفساد ، والمفاسد إلا سعى في إزالته بجهده وطاقته »(١) .

ويعتبر الملك الناصر : محمد بن قلاوون هو المعاصر الأصيل لابن تيمية ، فقد استقر حكمه إلى ٣٢ سنة ، وقد شابه الظاهر بيبرس في العديد من صفاتهِ وخصائصهِ وكان مثلاً لوالده منصور قلاوون ، وفي عصره تم الإنتصار على التتر .

ثالثًا : أسرته - رحمه الله - :

ولد أحمد بن عبد الحليم بن تيمية - رحمه الله - في عاشر ربيع الأول سنة ٦٦١هـ

---

(١) البداية والنهاية ، (جـ١٣ ص ٢٧٦) .

بحران ، وأنبته الله نباتًا حسنًا ، فعاش بها بضع سنين ، ثم انتقل أبوه به وبأخويه إلى دمشق سنة ٦٧٧هـ ، عند قدوم التتر إلى الشام ، وفي دمشق نشأ ابن تيمية وترعرع ، ثم درس ونضج ، حتى بلغ أشدَّه ، وأتاه الله العِلم والحِكمة ، وصار أحد الأئمة الأعلام ، ومن كبار شيوخ الإسلام .

أبوه ـ رحمه الله ـ : هو شهاب الدين أبو المحاسن عبد الحليم ابن تيمية ، نزيل دمشق ، ولد بحران سنة ٦٢٧ هـ ، وسمع من أبيه وكثيرين غيره .

وقال الذهبي عنه في تاريخه : « إنه قرأ المذهب الحنبلي على أبيه حتى أتقنه ، ودرَّس وأفتى وصنَّف ، وكان إمامًا محققًا ، كثير الفنون ، دينًا متواضعًا ، حسن الأخلاق ، كما كان جوَّادًا من حسنات العصر ، وكان من أنجُم الهدى ، وإنما اختفى من نور القمر وضوء الشمس » أ . هـ . يشير إلى أبيه وابنه .

ويقول البرزالي عنه : « كان من أعيان الحنابلة ، باشر بدمشق مشيخة دار الحديث السكرية ، وكان له كرسي بالجامع يتكلم عليه أيام الجمع من حفظه » .

أُمُّه ـ رحمها الله ـ : عاشت أُمه حتى رأت مجد ابنها يكتمل ، وعاونته في جهاده ، وكان ابن تيمية يراسل أمه من سجنه ، وقد بعث إليها بكتب تفيضُ عطفًا ، وبرًا ووفاءً ، وقد تعرضت أمه للملك الناصر وكان ابن تيمية قد سُجن بأمره أعوامًا ، فشكت إليه فأمر بإطلاقه ، ثم عادوا فسجنوه ثانية .

جدُّه ـ رحمه الله ـ : شيخ الإسلام مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن عبد الله ابن تيمية الحرَّاني، الفقيه الحنبلي ، الإمام المقريء المحدِّث المفسر الأصولي النحوي ، وأحد الحفَّاظ الأعلام ، وُلِدَ بحران سنة ٥٩٠هـ ، وحفظ القرآن الكريم بها ورحل في سبيل طلب العلم إلى بغداد سنة ٦٠٣هـ .

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عن جدِّه : « كان جداً عجبًا في حفظ الأحاديث وسردها ، وحفظ مذاهب الناس بلا كلفة » .

وقال الشيخ جمال الدين بن مالك عنه : « أُلين للشيخ المجد : الفقه ، كما أُلين : الحديد لداود » ، وذكر الذهبي أن الشيخ مجد الدين كان معدوم النظير في زمانه ، رأسًا في الفقه وأصوله ، بارعًا في الحديث وما فيه ، له اليد الطولى في معرفة القراءات والتفسير ، صنف التصانيف واشتهر اسمه وبعُدَ صيته ، وكان فرد زمانه في معرفة المذهب الحنبلي ، مفرط الذكاء ، متين الديانة ، كبير الشأن ، وقد ذكروا عنه أنه كان لا يمل القراءة حتى إذا دخل الخلاء قال لحفيده عبد الرحمن - أخي ابن تيمية - اقرأ في هذا الكتاب ، وارفع صوتك حتى أسمع .

رابعًا : كنيته واسمه ولقبه - رحمه الله - :

كنيته أبو العباس ، واسمه أحمد ، ولقبه تقي الدين ، فهو أبو العباس أحمد تقي الدين ، وإذا ذُكِرَ « ابن تيمية » فحسب فالمقصود أحمد .

وقد قيل في سبب شهرته بابن تيمية أن جده محمد بن الخضر حج وله امرأة حامل ومر في طريقه على درب تيماء، فرأى هناك جارية طفلة قد خرجت من خبائها، فلما رجع إلى حران وجد امرأته قد ولدت بنتًا ، فلما رآها قال : يا تيمية ، فلُقِبَ بذلك ، وقيل : إن جده محمداً هذا كانت أمه تسمى تيمية ، وكانت امرأة واعظة ، فنسب إليها وعرف هو والأسرة بها .

خامسًا : موطنه :

ينسب ابن تيمية إلى حران ، قال عنه ابن جبير : « كفى بهذا البلد شرفًا وفخرًا أنها البلاد العتيقة المنسوبة لأبينا إبراهيم عليه السلام » ، ولجو حران أثرها في ابن تيمية رحمه الله من حيث صفاء الطبع ونقاؤه ، وصلاح السلوك واستقامته ، بالإضافة إلى حرارة الدفاع عن الدين ، ولما انتقلت الأسرة من حران إلى دمشق سنة ٦٦٨هـ ، ساعد ذلك ابن تيمية على أن ينهل من العلوم والمعارف ، فدمشق يومئذٍ هي بلد العلم ، وفي ذلك يقول ابن جبير : « فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ، ويتغرب في طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة ، فأولها فراغ البال

من أمر المعيشة » ، ثم يقول : « ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها إلا مبادرة أهلها لإكرام الغرباء ، وإيثار الفقراء . . . كفى بذلك شرفًا » .

سادسًا : الوضع العلمي وأثره في ابن تيمية :

وجدت في مصر والشام مدارس كبيرة ودور للحديث يؤمُّها الطلاب من أنحاء العالم ، وكانت المكتبة التابعة للمدرسة الكاملية التي أسسها الكامل محمد الأيوبي سنة ٦٢٤ هـ ، تحتوي وحدها على مئة ألف كتاب ، وقد نهض في هذه الفترة أئمة كبار كأبي عمرو بن الصلاح ، والعز بن عبد السلام ، والإمام النووي ، وابن دقيق العيد ، وعلاء الدين الباجي ، وكان العلامة جمال الدين أبي الحجاج المزي ، وعلم الدين البرزالي ، وشمس الدين الذهبي ، من معاصري شيخ الإسلام ابن تيمية .

كما وجدت كفاءات علمية خالفت شيخ الإسلام رغم ثنائها عليه ، وكان بعضها سببًا في محنته ، ومن جملة هذه الكفاءات التي طار صيتها العلمي الآفاق ، جمال الدين بن الزملكاني ، وتقي الدين السبكي ، وأبو حيان النحوي .

ولا يبعد أن يكون ابن تيمية قد استفاء من كبار الشيوخ الذين عاصروه أو سبقوه بقليل من الزمان ، أمثال الحافظ بن عساكر وابن الأثير في التاريخ ، كما أفاد من ابن قدامة وابن الصلاح والعز والنووي وابن دقيق العيد ، وساعده على تحصيل هذه المكانة ما حباه الله به من نفس طلعة ، وقلب مشغوف بحب المعرفة والعلم ، وعقل نافذ لما فات غيره ، وحافظة لا تضيع ، وذاكرة قوية لا تنسى .

سابعًا : تلامذته :

عُرِفَ شيخ الإسلام ابن تيمية بكثرة تلاميذه والمستفيدين منه ، وقد تميز من بين هؤلاء التلاميذ :

[١] تلميذه النجيب : الحافظ ابن القيِّم ـ رحمه الله ـ :

قال عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني : « لو لم يكن لابن تيمية من المناقب إلا تلميذه ابن القيم صاحب التصانيف النافعة السائرة التي انتفع بها الموافق والمخالف ،

لكان غاية في الدلالة على عظمة منزلته » أ . هـ .

وقد يكفي ابن القيم أن يقول : « هذا اختيار شيخنا أبي العباس ابن تيمية » لتعرف أنه اختيار ابن القيم أيضًا ، فإذا قال : شيخنا أو شيخ الإسلام قدَّس الله سره » فالمقصود ابن تيمية ، مما يدل على أثره المكين في تكوينه العلمي ، وفي كتاباته بعد وفاة ابن تيمية سنة ٧٢٨هـ مثل : الطرق الحكمية ، وبدائع الفوائد ، يتبع ذكره بالدعاء له والترحم عليه .

وينقل ابن القيم أن خصوم ابن تيمية كانوا يقولون عنه أنه إذا سُئِلَ عن طريق مصر مثلاً ذكر للسائل معها طريق مكة وخُراسان والهند ، وذلك أنه إذا سُئلَ عن المسألة أجاب بآراء الفقهاء أصحاب المذاهب الأربعة مرجحًا لما يراه منها ، ويذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون للسائل أنفع من مسألته .

وكما ظل ابن تيمية يدافع عن عقيدة السلف ، وأنها لم تكن إيمانًا بلا فقه فكذلك فعل ابن القيم ـ رحمهم الله ـ .

[٢] الحافظ ابن عبد الهادي ـ رحمه الله ـ :

عاش أقل من أربعين سنة ، وقال عنه الصفدي : « لو عاش لكان آية » .

وقال عنه الذهبي : « هو الفقيه ، البارع ، المقريء ، المجوِّد ، المحدِّث ، الحافظ ، النَّحوي ، الحاذق ، ذو الفنون ، كتب عني واستفدت منه » .

وقال أبو الحجاج المزي : « ما التقيت به إلا واستفدت منه » .

وقال الصفدي : « حصَّل من العلوم ما لا يبلغه الشيوخ الكبار وتفنن في الحديث والنحو والتصريف والفقه والتفسير والأصولية ، والتاريخ والقراءات ، وله مجاميع وتأليف مفيده كثيرة ، كنت إذا لقيته سألته عن مسائل أدبية وفوائد عربية فينحدر كالسيل » .

[٣] الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

هو عماد الدين إسماعيل ابن عمر، يكنى أبا الفداء ، قال عنه الذهبي : « هو فقيه متقن ، ومحدِّث محقق ، ومُفسر نقاد ، وله تصانيف مفيدة » .

وقال عنه الحافظ ابن حجر : « كان كثير الاستحضار ، وسارت تصانيفه في البلاد في حياته ، وانتفع به الناس بعد وفاته » .

وابن كثير شافعي المذهب ورغم هذا فقد تتلمذ على شيخ الإسلام ابن تيمية واشتد إعجابه به ، ولذلك قال ابن حجر : « أخذ عن ابن تيمية ففُتن بحبه ، وامتحن بسببه » ، ومن أهم كتبه ، كتابه في تفسير القرآن وكتاب « البداية والنهاية » .

[٤] الحافظ ابن رجب ـ رحمه الله ـ :

وقد اشتغل بالحديث وأكثر روايته ، حتى برع في فن الحديث ، كما قال الحافظ ابن حجر العسقلاني ، وقد تحدث عنه الحافظ أبو الفضل تقي الدين بن فهد المكي في « لحظ الألحاظ » : « الإمام الحافظ ، الحجَّة والفقيه ، العمدة ، أحد العلماء ، الزُّهاد ، والأئمة العُبَّاد ، مفيد المحدثين ، واعظ المسلمين » .

وقال عنه أيضًا : « كان إمامًا ، ورعًا ، وضع الله حبه في القلوب ، أجمع الناس كلهم على صلاحه وفضله ، مجالس وعظه عامة ، وذات فائدة وتأثير كبيرين » .

وقال عنه الشهاب بن الحجي : « كان محققًا ذا بصيرة فائقة في فن الحديث ، وكان أكثر معاصريه اطلاعًا على علل الحديث وطرقه ، وأن أكثر علماء الحنابلة في عصرنا من تلاميذه » .

ويُعتبر ابن رجب التلميذ المباشر لابن القيم الجوزية ، فقد وُلِدَ بعد وفاة شيخ الإسلام ابن تيمية بثماني سنوات .

ويبقي أن نقول : لقد تأثر بحياة شيخ الإسلام ومنهجه وفتاواه الكثير من العلماء والدعاة في عصرنا والعصور التي تلت شيخ الإسلام ابن تيمية كالشاطبي ، والشيخ محمد بن عبد الوهاب ، والشيخ ابن باز ـ عليهم رحمة الله ـ .

تبحره العلمي وذكائه ونباهته - رحمه الله - :

ذكر ابن القيم في كتابه « زاد المعاد » ما يدل على سعة علم شيخ الإسلام وسيلان ذهنه ، وبعد نظره ، فقال : « لما كان في بعض الدول التي خفيت فيها السُّنَّة وأعلامها ، أظهر طائفة منهم كتابًا قد عنقوه وزوروه ، وفيه أن النَّبي ﷺ أسقط عن يهود خيبر الجزية ، وفيه شهادة عليّ بن أبي طالب ، وسعد ابن معاذ ، وجماعة من الصحابة ، فراج ذلك على جهلة سُنَّة رسول الله ﷺ ومغازيه ، وسيره ، وتوهموا بل ظنوا صحته ، فأجيزوا على حكم هذا الكتاب المزور حتى أُلقي إلى شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه ، وطلب منه أن يُعين على تنفيذه والعمل عليه ، فبصق عليه **واستدل على كذبه بعشرة أوجه :**

- **منها** : أن فيه شهادة سعد ابن معاذ وسعد توفي قبل خيبر .
- **منها** : أن الكتاب أنه أسقط عنهم الجزية ، والجزية لم تكن نزلت بعد ، ولا يعرفها الصحابة حينئذٍ فإن نزولها كان عام تبوك بعد خيبر بثلاثة أعوام .
- **منها** : أنه سقط عنهم الكلف والسخرية ، وهذا محال فلم يكن في زمانه كلف ولا سخر توجد منهم ولا من غيرهم ، وقد أعاذه الله وأعاذ أصحابه من أخذ الكلف والسخر ، وإنما هي من وضع الملوك الظلمة ، واستمر الأمر عليها .
- **منها** : أن هذا الكتاب لم يذكره أحد من أهل العلم على إختلاف أصنافهم فلم يذكره أحد من أهل المغازي والسير ، ولا أحد من أهل الحديث والسُّنَّة ، ولا أحد من أهل الفقه والإفتاء ، ولا أحد من أهل التفسير ، ولا أظهروه في زمان السلف لعلمهم أنهم إن زوروا مثل ذلك عرفوا كذبه وبطلانه .

ويذكر الشيخ صالح تاج الدين قال : « حضرت مجلس الشيخ - يعني : ابن تيمية - رحمه الله - ، وقد سأله يهودي عن مسألة في القدر ، وقد نظمها شعرًا في ثمانية ، فلما وقف عليها فكر لحظة يسيرة وأنشأ يكتب جوابها ، وجعل يكتب ونحن نظن أنه يكتب نثرًا ، فلما فرغ تأمله من حضر من أصحابه فإذا هو منظم من

بحر أبيات السؤال ، وقافيتها ، تقرب من مئة وأربع وثمانين بيتًا ، وقد أبدى فيها من العلم ما لو شرح لبلغ مجلدين كبيرين » .

وقريب مما ذكره الشيخ صالح تاج الدين إجابته على من سأله في الحج شعرًا ، وختم الإجابة بقوله : « وليس صاحبك معدود من جملة الشعراء » .

لهذا وغيره قال عنه ابن سيد الناس : « لم تر عين من رآه مثله ، ولا رأت عينه مثل نفسه » .

وقال عنه الذهبي : « لو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله ، ولا والله رأى هو مثل نفسه في العلم » .

وقال عنه الحافظ ابن ناصر الدين : « حدث عنه خلق كثير منهم الذهبي والبرزالي ، وأبو الفتح ابن سيد الناس ، وحدثنا عنه جماعة من شيوخنا الأكياس ، وقال الذهبي في عدة مصنفاته المجودة ، وما أبعد تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلدة » .

وقال الحافظ المزي: « ما رأيت مثله ، ولا رأى هو مثل نفسه ، وما رأيت أحدًا أعلم بكتاب الله وسُنَّة رسوله ولا أتبع لهما منه » .

عبادته وزهده وورعه وطرف من أحواله - رحمه الله - :

روي أنه كان - رحمه الله - إذا أُشكلت عليه مسألة أو صعب فهم آية التجأ إلى مسجد مهجور ، ووضع جبهته على التراب ، وردد قوله : « يا معلم إبراهيم الخير علمني ، ويا مفهم سليمان فهمني » .

وقال الذهبي : « لم أر مثله في ابتهاله ، واستغاثاته ، وكثرة توجهه » .

وكان ابن تيمية - رحمه الله - يقول : « إنه ليقف خاطري في المسألة أو الشيء أو الحالة التي تشكل عليّ فأستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل ، حتى ينشرح الصدر ، وينجلي إشكال ما أُشكل » .

ويقول : « وأكون إذ ذاك في السوق أو المسجد أو الدروب أو المدرسة ، لا يمنعني ذلك من الذكر والإستغفار إلى أن أنال مطلوبي » .

ويقول ابن القيم - رحمه الله - : « أنني لم أشاهد هذه الحالة عند أي شخص بمثل ما شاهدته في شيخ الإسلام ابن تيمية ، فقد كان يقول ما لي شيء ، ولا مني شيء ، ولا فيَّ شيء ، وطالما كان ينشد البيت التالي :

أنا المكدي وابن المكدي وهكذا كان أبي وجدي

وجاء في « الكواكب الدرية » : « وكان في ليلة منفرداً عن الناس كلهم ، خالياً بربه عز وجل ضارعًا إليه ، مواظبًا على تلاوة القرآن العظيم ، مكرراً لأنواع التعبدات الليلية والنهارية ، وكان إذا دخل في الصلاة ترتعد فرائصه وأعضاؤه حتى يميل يمنة ويسرة » .

وقال ابن القيم - رحمه الله - : « وكان إذا صلى الفجر يجلس في مكانه ، حتى يتعالى النهار جداً ، يقول : هذه غدوتي لو لم أتغد هذه الغدوة سقطت قواي » .

ويقول الذهبي - رحمه الله - : « له أوراد وأذكار يدمنها بكيفية وجمعية » .

ثامنًا : زهده - رحمه الله - :

يقول الشيخ علم الدين البرزالي : « وجرى على طريقة واحدة من اختيار الفقر والتقلل من الدنيا ورد ما يفتح به عليه » .

وقال له الملك الناصر ذات مرة : « سمعت بأن النَّاس أطاعوك وأنت تفكر في الحصول على الملك ، فرد عليه الشيخ قائلاً بصوت عالٍ سمعه النَّاس الحاضرون كلهم : والله إن مُلكك ومُلك المغول لا يساوي عندي فلسًا » .

تاسعًا : سخاؤه وإيثاره - رحمه الله - :

جاء في « الكوكب الدرية » : وهو أحد الأجواد الأسخياء الذين يُضرب بهم المثل .

ويقول الحافظ بن فضل الله العمري : « كانت تأتيه القناطير المقنطرة من

الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، فيهب ذلك بأجمعه ، ويضعه عند أهل الحاجة في موضعه ، لا يأخذ منه شيئًا إلا ليهبه ، ولا يحفظه إلا ليذهبه » .

ويقول أيضًا عنه : « وكان يتصدق حتى إذا لم يجد شيئًا نزع بعض ثيابه فيصلِّ به الفقراء » ، وقال البعض عنه : « وكان يتفضل من قوته الرغيف والرغيفين ، فيؤثر بذلك على نفسه » .

عاشراً : عفوه وصفحه عمن آذاه - رحمه الله - :

قال ابن القيم - رحمه الله - : « كان يدعوا لأعدائه ، ما رأيته يدعوا عليّ واحد منهم ، وقد نعيت إليه يومًا أحد معارضيه الذي كان يفوق النَّاس في إيذائه وعدائه ، فزجرني وأعرض عني ، وقرأ : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ وذهب لساعته إلى منزله ، فعزى أهله ، وقال : « اعتبروني خليفة له ، ونائبًا عنه ، وأساعدكم في كل ما تحتاجون إليه » ، وتحدث معهم بلطف وإكرام بعث فيهم السرور ، فبالغ في الدعاء لهم حتى تعجبوا منه » .

ومدحه القاضي ابن مخلوف المالكي الذي كان من أشد معارضي شيخ الإسلام بقوله : « ما رأيت كريمًا وسع الصدر مثل ابن تيمية ، فقد أثرنا الدولة ضده ، ولكنه عفا عنا بعد المقدرة حتى دافع عن أنفسنا وقام بحمايتنا » .

وعندما أطلق سراح شيخ الإسلام سنة ٧٠٩هـ ، خلا به السلطان واستفتاه في قتل أولئك القضاة الذين قاموا بحماية « جاشنكير » وأفتوا بعزل السلطان وقال له السلطان : « إنهم أثاروا عليك الضجة والأقاويل ، وأذوك » فما وسع ابن تيمية إلا أن مدحهم وأثنى عليهم أمام السلطان ، وشفع لهم بالعفو والصفح عنهم ومنعه من قتلهم .

ثالث عشر : تواضعه - رحمه الله - :

يقول ابن القيم - رحمه الله - : إنه كثيرًا ما يقول : « ما لي شيء ولا مني شيء، ولا فيَّ شيء » ، وإن مدحه أحد في وجهه قال : « والله إني إلى الآن أجدد إسلامي

كل وقت ، وما أسلمت بعد إسلامًا جيدًا » .

وكان يقول لمن مدحه : « أنا رجل ملة ، لا رجل دولة » .

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : « سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه يقول : « العارف لا يرى له على أحد حقًا ، ولا يشهد على غيره فضلاً ، ولذلك لا يعاتب ولا يطالب ولا يضارب » ، وكان هو الحاكي والمحكي عنه كما ذكر المطلعون على أحواله .

حادي عشر : سكينته وانشراح صدره وهو في سجنه :

كان ـ رحمه الله ـ يقول : المحبوس من حُبس قلبه عن ربه والمأسور من أسره هواه » .

وقال أيضًا : « ما يصنع أعدائي بي ؟ ، إن جنَّتي وبستاني في صدري ، إن رحتُ فهي معي لا تفارقني ، أنا سجني خُلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة » .

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : « إن شيخ الإسلام قال مرة : « إن في الدنيا جنة ، من لم يدخلها لم يدخل جنَّة الآخرة » .

وقال : « زرته ذات ليلة في الرؤيا ، فذكرت له بعض الأعمال القلبية ، فقال : أما أنا فطريقي الفرح والسرور به » ، وقال : « هكذا كانت حاله في الحياة ، ويبدو ذلك على ظاهره وينادي به عليه حاله » .

ثاني عشر : حرصه على متابعة السُّنَّة :

قال الحافظ سراج الدين البزار : « لا والله ، ما رأيت أشد تعظيمًا لرسول الله ﷺ ولا أحرص على اتباعه ونصر ما جاء به منه » .

وقال عماد الدين الواسطي : « ما رأينا في عصرنا هذا من تستجلي النبوة المحمدية وسُننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل ، يشهد القلب الصحيح ، إن هذا هو الإتباع حقيقة » .

ويدل على هذا الحرص قول الشيخ : « وفي السلوك مسائل تنازع فيها الشيوخ ، لكن يوجد في الكتاب والسُّنَّة من النصوص الدالة على الصواب في ذلك ما يفهمه غالب السالكين ، فمسائل السلوك من جنس مسائل العقائد كلها منصوصة في الكتاب والسُّنَّة » .

وقال رحمه الله : « فإن السلوك هو الطريق التي أمر الله بها ورسوله من الاعتقادات والعبادات والأخلاق ، وهذا كله مبين في الكتاب والسُّنَّة ، واشتغالهم بطلب الآخرة والرغبة فيها ، وأبلغهم في الإعراض عن الدنيا ، والإهمال لها ، ولا يرى عامًا مخالفًا له منحرفًا عنه ، إلا وهو من أكبرهم تهمة في جمع الدنيا وأكثرهم رياءً وسمعة ، والله أعلم .

وقال الذهبي : « وأخيف في نصر السُّنَّة المحفوظة حتى أعلى الله تعالى مناره ، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته والدعاء له » .

ثالث عشر : فراسته وكرامته :

قال العلامة بدر الدين العيني في تقريظ : « الرد الوافر » وهذا الإمام مع جلالة قدره في العلوم نقلت عنه على لسان جم غفير من الناس كرامات ظهرت منه بلا التباس » .

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : « ولقد شاهدت من فراسة شيخ الإسلام أمورًا عجيبة ، وما لم نشاهده منها أعظم ، ووقائع فراسته تستدعي سفرًا ضخمًا » .

وقال العلامة عليّ بن سلطان محمد القاري الهروي : « من طالع [شرح منازل السائرين] تبين له أنهما ـ ابن تيمية وابن القيم ـ كانا من أكابر أهل السُّنَّة والجماعة ، ومن أولياء هذه الأمة » .

رابع عشر : جهاده التتار :

قال القاضي شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فضل الله : « جلس الشيخ إلى السلطان غازان حيث تُجم الأُسود في آجامها ، وتسقط القلوب داخل أجسامها ،

خوفًا من ذلك السبع المختال والنمروذ المحتال ، والأجل الذي لا يدفع بحيلة محتال ، جلس إليه وأومأ بيديه إلى صدره ، وواجهه ودرأ في نحره ، وطلب منه الدعاء ، فرفع يديه ودعا له دعاء منصف أكثره عليه ، وغازان يؤمن على دعاؤه » .

وهذه المقابلة كانت سنة ٦٦٩ هـ ،وذكروا أن شجاعته كانت تُضرب بها الأمثال ، وببعضها يتشبه أكابر الأبطال، وقد أقامه الله في نوبة غازان ، وقام بأعباء الأمر بنفسه ، واجتمع بالملك مرتين ، وكان « سيف الدين كيجق المنصوري » يتعجب من إقدامه على المغول « التتار » .

ويقول ابن رجب الحنبلي : « وقد سافر الشيخ على البريد سنة من السنين ، وتلا عليهم آيات الجهاد ، وقال : « إن تخليتم عن الشام ونصرة أهله والذَّب عنهم ، فإن الله تعالى يقيم لهم من ينصرهم غيركم ويستبدل بكم سواكم ، وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٨] ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ﴾ [التوبة : ٣٩] ، وبلغ ذلك الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ، وكان هو القاضي حينئذ ، فاستحسن ذلك وأعجبه هذا الإستنباط ، وتعجب من مواجهة الشيخ للسلطان بمثل هذا الكلام » .

وكان خروج الشيخ إلى نائب الشام في مستهل جمادي الأولى فثبَّتهم وقوى جأشهم ووعدهم بالنصر على الأعداء إن صبروا وأعدو العُدَّة للقائه ، وتلا قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الحج : ٦٠] ، وبات عند العسكر .

وقد خرج ابن تيمية بنفسه في واقعة شقحب سنة ٧٠٢هـ ، بعد أن جمع فيها التتار جموعهم، وكان سبب ذلك أن بلغت القلوب الحناجر وزلزل الناس زلزالاً شديداً، وقاتل ابن تيمية هو وجماعة من أصحابه ، وانتهت بنصر الله للمسلمين نصراً مؤزراً ، وقُتِلَ فيها من التتار خلق كثير لا يعلم عدتهم إلا الله بحيث لم يسلم منهم

إلا القليل ، وكانت هذه الواقعة في رمضان ، ويذكر أن ابن كثير أن المعسكر الشامي ندبه إلى السير إلى السلطان يستحثه على السير إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر ، ففعل ذلك وجاء هو وإياه إلى المدينة ، ثم سأله السلطان ، أن يقف معه في المعركة، فقال : « السُنَّة أن يقف الرجل تحت راية قومه ، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم ، ثم أخذ يحرض السلطان على القتال ، وبشَّره بالنصر ، وجعل يحلف بالله الذي لا إله إلا هو إنكم لمنصورون عليهم ، فيقول له الأمراء : قل إن شاء الله ، فيقول : إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا » .

ومن موافقه التي يذكرها ابن كثير في تاريخه : « أن الشيخ تقي الدين أرسل إلى نائب القلعة يقول له : « وذلك لو لم يبقى فيها إلا حجراً واحد فلا تسلمه ذلك إن استطعت ، وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام ، فإن الله حفظ لهم هذا الحصن والمعقل الذي جعله الله حرزاً لهم ، وكان سيف الدين قيجق قد طلب من نائب القلعة تسليمها لهم فأبى ، ثم تكلم معه أعيان البلد في ذلك فأبى أيضًا ، وصمم على ترك تسليمها إليهم وفيها عين تطرف » .

ويذكر الذهبي ويقول : « وقصارى القول : أن الله أحيا به الشام ، بل والإسلام بعد أن كاد ينسلم بتثبيت أولي الأمر لما أقبل حزب التتار والبغي في خيلاتهم ، فظُنَّت بالله الظنون ، وزُلزِلَ المؤمنون ، واشرأب النفاق وأبدى صفحته » .

خامس عشر : شجاعته في مواجهة المنكرات :

يذكر ابن شاكر الكتبي : « أن رجلاً من الناس شكا إليه من ظلم نزل به من قطلو بك الكبير ، وكان هذا فيه جبروت ويأخذ أموال الناس غصبًا ، فدخل عليه الشيخ غير هياب ، ولا وَجِلَ وتكلم معه فيما جاء به إليه ، فقال له قطلو بك : « أنا كنت أريد أن أجيء إليك لأنك عالم زاهد - يعني الإستهزاء به - فقال له الشيخ : موسى كان خيراً مني ، وفرعون كان شراً منك ، وكان موسى يجيء إلى باب فرعون كل يوم ثلاث مرات ويعرض عليه الإيمان » .

ويذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ في حوادث سنة ٦٩٩ هـ ، أنه في السابع عشر من رجب دار الشيخ تقي الدين ـ رحمه الله ـ وأصحابه على الخمارات والحانات ، فكسروا أواني الخمور وأراقوها وعزروا جماعة من أهل الحانات المتخذة لهذه الفواحش .

وفي شوال سنة ٧٠٠ هـ خرج ومعه خلق كثير لقتال ناحية جبال الجرد وكسروان بسبب فساد نيتهم وعقائدهم وضلالهم ، لممالأتهم التتار حين كانوا ينتصرون ، فلما وصلوا إليها جاء رؤساؤهم إليه معتذرين ، فاستتابهم وبين لهم الحق ، فحصل بذلك خير كثير وانتصار كبير على أولئك المفسدين » .

ويذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ : « أن الشيخ كان شديد الإنكار للتوسل بغير الله الواحد الأحد ، وشديد الإنكار أيضًا لتقديم شيئًا من شعائر العبادة والتقديس لغير الله تعالى ، ولهذا نراه في شهر رجب سنة ٧٠٤هـ يروح إلى مسجد التاريخ ويأمر أصحابه ومعهم حجارون بقطع صخرة كانت هناك بنهر « قلوط » تُزار وينذر الناس لها ، فقطعها وأراح الله المسلمين منها ومن الشرك بها » .

ويذكر أيضًا : « أنه في تلك السنة نفسها ، أحضر إليه شيخ كان يلبس دلقًا كبيرًا متسعًا جدًا يسمى المجاهد إبراهيم القطان ، فأمر بحلق شعره وتقليم أظافره ، وكان ذلك طويلاً جدًا ، وحفَّ شاربه المسبل على فمه المخالف للسُّنَّة ، وقد فعل به ذلك كله ، ثم استتابه من فاحش القول الذي كان يصدر عنه ، ومن أكل ما يغير العقل من الحشيشة ، ومن كل ما لا يجوز من سائر المحرمات » .

وفي أوائل شهر المحرم من سنة ٧٠٥هـ ، خرج الشيخ إلى بلاد الجرد والرفض والتيامنة ، وتبعه نائب السلطان جمال الدين الأفرم بنفسه ، فنصرهم الله عليهم ، وأبادوا كثيرًا منهم ومن فرقتهم الضالة ، ثم عاد نائب السلطنة في صحبة الشيخ إلى دمشق ، وقد كان لحضور الشيخ بنفسه أثرًا فعال في النصر ، وأبان فيه ما هو معروف عنه من العلم والشجاعة ، وكان منها خيرًا كثيرًا ، كما يذكر ابن كثير .

إزالة اللبس في خروج شيخ الإسلام لتغيير المنكرات :

لقد وردت نصوص الشريعة تستحث الناس على الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر ، فإن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه ، ولا ريب أن ذلك يتطلب إعمالاً للضوابط الشرعية حتى تتحقق المصلحة وتدفع المضرة والمفسدة ، وينبغي على الآمر الناهي أن يكون فقهيًا فيما يأمر به وينهى عنه ، حتى لا يتهجم في موضع يحرم فيه الإنكار (١) .

وقد ذكر العلماء حرمة الإنكار إذا كان الإنسان سيثبت هذا المنكر ويأتي بمنكر آخر ، أو سينكر المنكر بمنكر أعظم ، أو سيتلف نفسه في غير مصلحة شرعية ، أو سيتعدى بإنكاره بالمضرة والأذى على أهله والإخوان والأصدقاء كما ذكروا ضمن صور الإنكار ، أن يرى الإنسان المنكر ويكون عنده المقدرة على تغييره ، ولم يقم أحد بذلك فيلزمه وفق الضوابط الشرعية ، ولا شك أن شيخ الإسلام كان عالمًا بالشرع والواقع ، وعلى الرغم من ذلك فإن انكاره لبعض المنكرات التي ذكرناها وتكرر ذلك منه قد أثار ضده جماعة من شانئيه ، فثار بعضهم وشكو منه بأنه يقيم الحدود ويعزر الناس على ما يرى ، ولكن الأمر سكن بعد أن تكلم هو أيضًا في شكاتهم وبين لهم أنه محق وأنهم مخطئون على نحو ما بين ابن كثير في البداية والنهاية .

يقول ابن تيمية (١٠٩/٢٨) مجموع الفتاوى : « فلهذا ذهب مالك وطائفة من أصحاب أحمد إلى جواز قتل الجاسوس ، وذهب مالك ومن وافقه من أصحاب الشافعي إلى قتل الداعية إلى البدع ، وليست هذه القاعدة المختصرة موضع ذلك ، فإن المحتسب ليس له القتل ولا القطع » .

وقال ـ رحمه الله ـ : « فتدبر هذا فإن هذا مقام خطر ، فإن الناس هنا ثلاثة أقسام: قسمٌ يأمرون وينهون ويقاتلون طلبًا لإزالة الفتنة التي زعموا ويكون فعلهم ذلك أعظم فتنة ، كالمقاتلين في الفتنة الواقعة بين الأُمَّة ، وأقوام ينكلون عن الأمر والنهي والقتال الذي يكون به الدين كله ﷺ وتكون كلمة الله هي العُليا ، لئلا يُفتنوا وهم قد سقطوا في الفتنة »... إلى أن قال : « وإنما الواجب عليهم القيام بالواجب وترك المحظور ، وهما

---

(١) راجع كتابي « تحصيل الزاد لتحقيق الجهاد » ، من مطبوعات دار الإيمان ، الإسكندرية .

متلازمان ، وإنما تركوا ذلك لكون نفوسهم لا تطاوعهم إلا على فعلهما جميعًا أو تركهما جميعًا،مثل كثير ممن يحب الرئاسة أو المال وشهوات الغي ، فإنه إذا فعل ما وجب عليه من أمر ونهي وجهاد وإمارة ونحو ذلك فلابد من أن يفعل شيئًا من المحظورات، فالواجب عليه أن ينظر أغلب الأمرين، فإن كان المأمور أعظم أجرًا من ترك ذلك المحظور لم يترك ذلك لما يخاف أن يقترن به ما هو دونه في المفسدة ، وإن كان ترك المحظور أعظم أجرًا ، لم يفت ذلك برجاء ثواب يفعل واجب دون ذلك ، فذلك يكون بما تجمع له من الأمرين من الحسنات والسيئات ، فهذا هذا وتفصيل ذلك يطول . . . » .

وذكر رحمه الله أن عقوبة الظالم وتعزيره مشروطًا بالقدرة ، وقال : « وإذا كان في العقوبة مفسدة راجحة على الجريمة لم تكن حسنة بل تكون سيئة وإن كانت مكافئة لم تكن حسنة ولا سيئة » (١) أ . هـ .

ولا يخفى أن شيخ الإسلام كان يخرج للإنكار ومعه الأمراء ، وبعلمهم وإذنهم ، وكلمته يومئذٍ مسموعة وسط العامة والخاصة ، ناهيك عن حالة الهرج التي كانت تحدث بسبب دخول التتار ، وتخلف ولاة الأمور عن كثير من صور الإنكار ، وفي مقدوره القيام بذلك مع غلبة الظن بتحقيق المصلحة واندفاع المضرة والمفسدة ، وقد تكلم الجويني في « غياث الأُمم » في مسألة شغور الزمان عن الإمام فقال : « وإذا لم يصادف الناس قوامًا بأمورهم يلوذون ، فيستحيل أن يؤمروا بالقعود عما يقتدرون عليه من دفع الفساد ، فإنهم لو تقاعدوا عن الممكن عمَّ الفساد البلاد والعباد » ، وقد قال بعض العلماء : « لو خلا الزمان عن السلطان فحق على قُطَّان كل بلدة وسكان كل قرية أن يقدموا من ذوي الأحلام والنهي وذوي العقول والحجا من يلتزمون إمتثال إشارته وأوامره وينتهون عن مناهيه ومزاجره ، فإنهم لو لم يفعلوا ذلك ترددوا عند إلمام المهمات وتبلدوا عند إطلال الواقعات » ، وقال أيضًا : « فإذا شغر الزمان عن الإمام وخلا عن سلطان ذي خبرة وكفاية ودراية فالأمور موكولة إلى العلماء وحق على

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢١١ – ٢١٢) .

الخلائق على اختلاف طبقاتهم أن يرجعوا إلى علمائهم ويصدروا في جميع قضايا الولايات عن رأيهم فإن فعلوا ذلك فقد هُدوُ إلى سواء السبيل ، وصار علماء البلاد ولاة العباد ، فإن عسر جمعهم على واحد استبد أهل كل صقع وناحية باتباع عالم وإن كثر العلماء في الناحية فالمتبع أعلمهم ، وإن فرض استوائهم ففرضهم نادر لا يكاد يقع ، فإن اتفق ، فإصدار الرأي عن جميعهم مع تناقض المطالب والمذاهب محال ، فالوجه أن يتفقوا على تقديم واحد منهم ، فإن تنازعوا وتمانعوا وأفضى الأمر إلى شجار وخصام فالوجه عندي في قطع النزاع الإقراع ، فمن خرجت له القرعة قُدِّم » أ . هـ .

وهذا الذي ذكرناه من فعل شيخ الإسلام وقوله ، وما نقلناه عن الجويني يفترق افتراقًا عظيمًا عن قيام بعض الأغرار الجهال بتحريق الخمارات وإزهاق الأرواح البريئة ، وبحيث يخلف المنكر من الشر والفساد والمنكرات وتعطيل الدعوات ما هو أعظم بكثير من المنكر المزال .

ويبقى أن يُقال : إن الفتوى تُقدر زمانًا وشخصًا ، وأن الحكم على شيء فرع عن تصوره ولابد من تطبيق الحكم على الواقع المساوي ، حتى لا تكون مجافاة بين الحكم والفتوى ويُساء استخدام النصوص وتطبيق أقوال وأفعال العلماء على غير واقعها .

سادس عشر : خصومه :

قال ابن رجب وهو يتحدث عن الشيخ عماد الدين الواسطي وإجلاله وتعظيمه لابن تيمية : « ولكن كان هو وجماعة من خواص أصحابه ، ربما أنكروا من الشيخ كلامه في بعض الأئمة الكبار الأعيان ، وفي أهل التخلي والإنقطاع - يريد الزهاد والمتصوفة - ونحو ذلك ، وكان الشيخ رحمه الله لا يقصد بذلك إلا الخير والإنتصار للحق ، وطوائف من أئمة أهل الحديث وحفاظهم وفقهائهم كانوا يحبون الشيخ ويعظمونه ، ولم يكونوا يحبون له التوغل مع أهل الكلام ولا الفلاسفة ، كما هو طريق أئمة أهل الحديث المتقدمين كالشافعي وأحمد ، وكذلك كثير من العلماء ومن الفقهاء والمحدثين والصالحين ، كرهوا له التفرد ببعض شذوذ المسائل التي أنكرها

السلف على من شذ بها ، حتى أن بعض قضاة العدل من أصحابنا ـ يريد الفقهاء الحنابلة ـ منعه من الإفتاء ببعض ذلك » .

ثم يذكر ابن رجب بعد هذا وهو ينقل عن الذهبي بعض ما قاله فيه :

« ولقد نصر السُنَّة المحضة والطريقة السلفية ، واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يُسبق إليها ، وأطلق عبارات احجم عنها الأولون والآخرون وهابوا ، وجسر هو عليها ، حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قيامًا لا مزيد عليه ، وبدَّعوه وناظروه وكابروه ، وهو ثابت لا يداهن ولا يماري ، بل يقول الحق المر الذي أداه إليه اجتهاده ، فجرى بينه وبينهم حملات حربية ، ووقعات شامية مصرية ، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة ، فينجيه الله ، فإنه دائم الإبتهال ، كثير الاستغاثة والاستعانة به ، قوي التوكل ، ثابت الجأش ... » أ . هـ .

إن من الغلو أن نصوب شيخ الإسلام في كل ما خُولِف فيه ، لكن العدل والإنصاف يقتضينا إحقاق الحق وإبطال الباطل ورد ما تنازعنا فيه لكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ، وأن نذُب عن أعراض المسلمين بصفة عامة ، والعلماء بصفة خاصة ، فبعض هذا التشنيع كان بسبب المعاصرة أو المخالفة في العقيدة أو بسبب التقليد أو حبًا في ابن عربي وغيره من غلاة الصوفية ، أو لمسائل اجتهادية كان لشيخ الإسلام فيها سلف ، لقد حسدوه وعادوه ، ومع هذا لا تأخذه في الله لومة لائم ، بل كان يصدع بالحق الذي أداه إليه اجتهاده وإن كان مرًا ، متوقع الأذى ويقبله راضيًا محتسبًا ولسان حاله يقول :

ولست أبالي حين أُقتل مسلمًا ... على أي جنبًا كان في الله مصرعي

لقد وقفوا دونه في بعض المسائل التي رآها ونالوه بالأذى من أجلها ، وظاهرهم في بعض مواقفهم رجال من ذوي الجاه والسلطان ، وقد مر بك كيف عفا وصفح ـ رحمه الله ـ عن خصومه ، وإلا فعند الله غداً تجتمع الخصوم ...

ابن تيمية السلفي

السلف هم الصحابة ومن تابعهم بإحسان من سائر قرون الخيرية وأئمة الدين العدول كأبي حنيفة ومالك ، والشافعي ، وأحمد ، وابن المبارك وسفيان الثوري وابن عُيينة ، والسلفيون من تابعوهم على هذا الفهم إلى يومنا هذا من أهل السُّنَّة والجماعة ، فبعد أن ظهر الإنحراف في فهم العقيدة وذلك بترجمة الفلسفة اليونانية ، حيث ظهر بسبب ذلك تأويل كلام الله ، وصرفه عن ظاهره ومعناه صرفًا بعيدًا ، ويومها انقسم المسلمون في مسائل العقيدة إلى فرق ومذاهب : سلف وخلف ، وقد حاول الجميع الإنتساب للسلف فأصبح مدلول السلفية إصطلاحًا خاصًا جامعًا مانعًا يطلق على طريقة السلف في فهم الإسلام وتطبيقه دون المبتدعين كالشيعة والخوارج والقدرية والمعتزلة والمرجئة .

فكل من أراد أن يكون من الطائفة الظاهرة الناجية المنصورة فعليه بالرجوع للكتاب والسُّنَّة بفهم سلف الأُمَّة ، وحينئذٍ سيكون على مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ [البقرة : ١٣٧] ، وقال : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، وقال : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] ، وصح الحديث : «خير النَّاس قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم» (١) ، ولما وصف ابن مسعود رضي الله عنه الصحابة قال : « كانوا أبر هذه الأُمة قلوبًا ، وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا » .

ولست أبالي حين أُقتل مسلمًا ... على أي جنبًا كان في الله مصرعي

وما لم يكن يومئذٍ دينًا فليس اليوم دينًا ، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلُح به أولها ، فالسلفية إذن ليست بديلاً عن الإسلام ، بل هي منهج فهم الإسلام والعمل

---

(١) حديث صحيح ، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم(٦٩٩) .

به بالرجوع إلى سيرة السلف الصالح ، فطريقتهم هي الأعلم والأحكم والأهدى والأسلم ، وهي طريقة لا تقبل المساومة ولا المفاصلة ولا عمل قنطرة مع الخلف الذين درسوا الفلسفة والمنطق اليوناني وتأثروا به .

وبالتالي فالإسلام الذي نعنيه ليس هو إسلام الشيعة أو المعتزلة أو الصوفية ، وإنما هو الإسلام الذي كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ، وهو الكتاب والسُّنَّة بفهم أعلم الناس بالكتاب والسُّنَّة بعيداً عن مناهج المستشرقين والمستغربين الدخيلة ، وبعيداً عن التفسيرات المادية والإلحادية .

والناظر في دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية ومنهجه سيجد سمات الدعوة السلفية التجديدية التصحيحية ، وأن لسان حال صاحبها كان يقول : إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، يدلك على ذلك قوله الفذ : « إني في عمري إلى ساعتي هذه لم أدع أحداً قط في أصول الدين إلى مذهب حنبلي أو غير حنبلي ، ولا انتصرت لذلك ، ولا أذكره في كلامي ، ولا أذكر إلا ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ، وقد قلت لهم غير مرة : أنا أُمهل من خالفني ثلاث سنين إن جاء بحرف واحد عن أحد من أئمة القرون الثلاثة بألفاظهم وبألفاظ من نقل إجماعهم من عامة الطوائف . . . أ . هـ .

وقد بين ابن تيمية مناهج العلماء في العقيدة وأخطاءها ، وقسم طرائق العلماء في فهم العقيدة في أصوله إلى أربعة أقسام ونقدها ، وهذه المناهج الأربعة هي مناهج الفلاسفة والمتكلمين من المعتزلة والأشاعرة والماتريدية .

فالمعتزلة نهجوا في دراسة العقيدة الإسلامية منهجًا فلسفيًا قبسوه من منطق اليونان ، ومن طرائق الفلاسفة في الجدل والمناظرة وجاراهم في ذلك المنهج الفلسفي الأشاعرة والماتريدية .

لقد جاءت السلفية وابن تيمية فخالفت ذلك المنهاج بمحاولة إعادة الإسلام إلى عهده الأول ، وإزالة ما علق به من غُبار ، لقد وُجد الصراع بين المناهج وهو ما يعبر عنه

البعض بالصراع الأيديولوچي ، وسبيلنا اليوم في مواجهة الديانات المنحرفة والنُظم الوضعية والفلسفات المادية والنزعات العقلانية وفرق الضلالة ، أن نعود لمثل ما كان عليه سلفنا الصالح علمًا وعملاً واعتقاداً ، فالانحراف والضلال الذي وُجد يومًا ما زال يتكرر ، حتى وإن اختلفت الكلمات والعبارات واختلفت الصور والأشخاص ، وما كان يرد به شيخ الإسلام على هؤلاء يصلح رداً على أولئك .

بعض سمات وملامح
المنهجية الإصلاحية عند ابن تيمية - رحمه الله -

هناك ملامح عامة ومنطقات لابد من معرفتها لفهم ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية في كل ما كُتب في التفسير والعقائد ، والفقه ، والسياسية ، والتصوف ، وما دوَّنهُ من أراء استحق بها أن يكون في عداد المجددين المصلحين ، والمنهج السلفي الذي سلكه ابن تيمية يعتمد على عناصر أربعة :

[١] عدم الثقة المطلقة بالعقل :

يعتمد ابن تيمية في نهجه في الدين كله عقائده، وفروعه على الكتاب والسُّنَّة ، ويرى أن طلب العقائد من العقل كحاطب بليل ، وأن الفلسفة عندما خاضت في الإلهيات ضلت ولذلك كانت له مآخذه على الفلاسفة ومن نهج نهجهم وسلك طريقهم في التفكير كالمتكلمين ، ويعزو خلافه معهم في النتائج إلى اختلاف الطريقة واختلاف المنهج .

فهو يرى أن القرآن والسُنَّة أشار إلى المقدمات العقلية التي تهدي إلى سواء السبيل ، وأن متاهات العقل هي فيما يخترعه أولئك المتفلسفة ومن نهج نهجهم من علماء الكلام في استخراج العقائد والحكم عليها ، ويقول في ذلك في أصول (ص١٠) : « وبينا أن دلالة الكتاب والسُّنَّة على أصول الدين ليست بمجرد الخبر، كما تظنه طائفة من الغالطين من أهل الكلام والحديث والفقهاء والصوفية وغيرهم ، بل الكتاب والسُنَّة دلا الخلق وهداهم إلى الآيات والبراهين والأدلة المبينة لأصول الدين وهؤلاء الغالطون أعرضوا عما في القرآن من الدلائل العقلية ، والبراهين اليقينية » .

ويبيِّن ابن تيمية خطأ منهج الفلاسفة والمتكلمين فيقول :

« **والمتفلسفة يقولون:** القرآن جاء بالطرق الخطابية ، والمقدمات الإقناعية التي تقنع الجمهور ، ويقولون : إن المتكلمين جاءوا بالطرق الجدلية المنطقية ، ويدعون أنهم

هم أهل البرهان اليقيني ، وهم أبعد عن البرهان في الإلهيات من المتكلمين ، والمتكلمون أعلم ، ولكن المتفلسفة من أجهل الناس بها ، وأبعدهم عن معرفة الحق فيها ، وكلام أرسطوا معلمهم فيها قليل ، كثير الخطأ » .

وقال ـ رحمه الله ـ في سبب ضلال الفلاسفة وخطأ نهجهم : « أنهم يقدمون في كتبهم الكلام في النظر والدليل والعلم ، ويذكرون أن النظر يوجب العلم ، وأن النظر واجب ، ويتكلمون في النظر ، وجنس الدليل ، وجنس العلم بكلام قد اختلط فيه الحق بالباطل ، ثم إذا صاروا إلى ما هو الأصل والدليل للدين ، استدلوا بحديث الأعراض على حدوث الأجسام ، وهو دليل مبتدع في الشرع ، وباطل في العقل » .

فالعقل عند ابن تيمية لا يستقل ولا ينفرد في الوصول إلى حقائق الدين ، وذكر أنه لا تعارض بين نقل صحيح وعقل صريح ، وأنه يجب أن يكون العقل تبعًا للنقل لا متبوعًا كالمتكلمين ، ومحكومًا بالقرآن ومقدماته في الإستدلال ، لا حاكمًا على القرآن ومنهجه المعتزلة ، وبالتالي فلا يجوز تأويل القرآن لمخالفته لأقوال المتفلسفة والمتكلمين وأمثالهم .

ولهذا تجد ابن تيمية قد خطأ منهج الغزالي وألحقه في بعض جوانبه بالفلاسفة ، كما خطأ فلاسفة الإسلام كابن سينا والفارابي ، ومن دخل مع هؤلاء من متصوفة الفلاسفة ، والمتكلمين كأصحاب وحدة الوجود الصوفية والاتحادية كابن عربي وابن سبعين والحلاج وابن الفارض .

لقد كان الرازي ممن خاض في الفلسفة ، وانتهى به الأمر إلى أن يقول : « لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما وجدتها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن في الإثبات » .

إن ابن تيمية لا يُهمل العقل في مجاله وحدوده التي إن تجاوزها ضل ، ولم يصل إلى غاية ولم ينته إلى نهاية ، ولذلك تحير الفلاسفة الأقدمون ، ومن نهجوا نهجهم ، ولم يصلوا بالعقل المجرد إلى ما وراء المادة ، لأنها غيب لا يشاهد ولا يدرك بالعقل

حتى قال قائلهم :

نهاية إقدام العقول عقال ... ومعظم سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وما جنينا طول العمر إلا قيل وقال

وقال الآخر : « ها أنا ذا أموت على عقيدة أمي ، أو عقيدة العجائز » .

فعلم الدين والهداية لا تأخذ إلا من الوحي المُنزل ، لأن منزله هو عالم الغيب ، وأما الصناعة والزراعة والهندسة والطب فلا بأس بأخذها من كل من أفلح فيها .

[٢] عدم اتباع الرجال على أسمائهم وشهرتهم ومقامهم :

نعي ابن تيمية على الذين يتبعون الأقوال من غير معرفة أدلتها ووجه الحق فيها ، وحكى عن الأئمة الأربعة أنهم نهوا تلاميذه عن اتباع آرائهم ، إن كانت مخالفة لنصوص الكتاب والسُنَّة ، فالإمام مالك يقول : اعرضوا قولي على كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ .

والإمام الشافعي يقول : « إذا صح الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط » .

والإمام أحمد يقول : « لا تقلد دينك الرجال » ، ولهذا كان حريصاً رحمه الله على رد الأقوال إلى أصولها ومتابعة الدليل من الكتاب والسُّنَّة وآثار السلف ، وذلك لمعرفة الرجال بالحق،وبيَّن أنه لم يأت ببدع جديدة بل كان متبعًا وليس مبتدعًا .

[٣] أن الشريعة أصلها القرآن وقد فسره محمد ﷺ بالسُّنَّة :

قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) ﴾ [الأحزاب : ٣٤] .

كان ابن تيمية يرجع إلى إلى الكتاب والسُّنَّة ويدعوا إلى التحاكم إلى أهل القرون الثلاثة الأولى ، كما ناظر في العقيدة الواسطية ردًا على مخالفيه : « وقد أمهلت من خالفني ثلاث سنين ، فإن جاء بحرف واحد عن القرون الثلاثة يخالف ما ذكرته فأنا

أرجع عن ذلك ، وعلي أن أتي بقول جميع الطوائف من القرون الثلاثة يوافق ما ذكرته » والقرون الثلاثة أي الصحابة والتابعون وتابع التابعين لهم بإحسان ، فالصحابة أعلم الناس بمرامي الشريعة وقد عاصروا نزول الوحي وحفظوه وفهموه ونقلوه كما سمعوه إلى التابعين لهم إلى يوم الدين .

[٤] عدم التعصب في تفكيره والبعد عن الغلو والجمود :

لقد خلع ابن تيمية نفسه من كل ما يقيده إلا الكتاب والسُّنَّة وآثار السلف الصالح ، وكان عنده أهلية النظر المباشر في الكتاب والسُّنَّة ، فقد حصّل الأدوات والأسباب التي تؤهله لأن يكون مجتهداً اجتهاداً مطلقًا ، ودرس المذاهب والفِرق والآراء ، وتعرف على مصدر كل رأي ، وخالف المذاهب في بعض المسائل الفقهية لاجتهاده ، وغلبة ظنه أن هذا هو حكم الله فيها ، واعتذر عن كل من خالف الكتاب والسُّنَّة الصحيحة بأعذار قوية ترفع الملام عنهم، وتدعوا إلى تقديرهم وتوقيرهم فقال : « يجب على المسلمين بعد موالاة الله ورسوله ، موالاة المؤمنين كما نطق القرآن ، وخصوصًا العلماء ورثة الأنبياء ، وكل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويُرد إلا رسول الله ﷺ .

وإذا كان هذا هو مسلكه مع علماء الأُمة ، نراه ـ رحمه الله ـ قد ضاق ذرعًا بالهدَّامين الذين يكيدون للإسلام والمسلمين كاليهود والمجوس والباطنية .

قواعد المنهج السلفي

الأصل هو الذي تدور حوله نصوص الشريعة ، ولا يحل للإنسان أن يؤصل أصلاً يطوع نصوص الشريعة لموافقته ، ولا حرج في اعتبارنا أصول الدعوة السلفية ثلاثة أو أكثر أو أقل ، فالمهم أن تكون صحيحة موافقة لنصوص الكتاب والسُّنَّة ، وقد تكلم الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق في كتابه « **الأصول العلمية للدعوة السلفية** » (١) ، عن التوحيد والاتباع والتزكية ، ولا ريب أن التزكية لا تتم إلا بالتوحيد والاتباع ، والاتباع الحق يتضمن توحيد الله عز وجل وتزكية النفوس ، فهذه الأصول التي يجملها البعض ويفصلها آخرون ، هي مندرجة تحت كلمة الشهادة : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وهي الكلمة التي ندخل بها في دين الله .

وقد ذكر الدكتور مصطفى حلمي ثلاث قواعد واضحة عند ابن تيمية في المنهج السلفي المتميز وهي :

[١] تقديم الشرع « النقل » على العقل :

ففي الصفات الإلهية إثباتها بلا كيفية ، وفي المسائل الكلامية الأخرى ، اتخاذ الأوائل قدوة في النظر والعمل ، فالقرآن والحديث ثم الإقتداء بالصحابة لأن الوحي كان ينزل بين أظهرهم ، فكانوا أعلم بتأويله من أهل العصور التالية ، وكانوا مؤتلفين في أصول الدين ولم يفترقوا فيه ولم يظهر فيهم البدع والأهواء فيتميزون عن المتكلمين بأنهم يبدؤون بالشرع ثم يخضعون العقل له ، بما يتفق مع الشرع ، وأن الأوائل كانوا أكثر فهماً للشرع من غيرهم .

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في « نقض المنطق ص٣٠٩ » : « المعقول عندنا ما وافق هديهم ، والمجهول ما خالفهم ، ولا سبيل إلى معرفة هديهم وطريقهم إلا هذه الآثار » .

فطريقتهم في إخضاع العقل للنص ، لا العكس مخالفين بذلك قواعد المتكلمين

---

(١) **كتاب** : الأصول العلمية للدعوة السلفية » من مطبوعات دار الإيمان ، الأسكندرية .

من المعتزلة والأشعرية الذين قدموا العقل وأوّلوا النصوص تبعًا له ، مستدلين بما استدل به ابن تيمية من قوله تعالى : ﴿ ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾ [الأحقاف : ٤] ، وقوله : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ﴿٦١﴾ ﴾ [النساء : ٦١] ، فالأثارة هي : الرواية ، وفي الآية الثانية دليل على نفاق من يحاكم إلى غير الكتاب والسُّنَّة ، وإن زعم أنه يريد التوفيق بين الأدلة الشرعية وبين ما يسمية هو عقليات من الأمور المأخوذة من بعض طواغيت المشركين والكتابين .

وهذا الإعوجاج في التفكير الذي قوَّمه ابن تيمية هو الذي يتخذه أصحاب المنهج العقلي المعتزلي المعاصرون ، الذين يحاولون إخضاع الدين والشريعة لمتطلبات العصر المتجددة ، ومن جملة هؤلاء محمد عبده وتلاميذ مدرسته العقلانية [١] ، ومن تأثر بمنهجه من اتباعه كعليّ عبد الرزاق ، وطه حسين ، وقاسم أمين ، والكواكبي .

ولقد حاول أصحاب الاتجاه التغريبي اخضاع النصوص لأهوائهم وعقولهم ، وفسروا الدين في ضوء ما يذهب إليه مفكروا الشرق والغرب وفلاسفته ، ولذا وجب الحذر والتحذير ، وخصوصاً مع اشتداد هذا التيار في أيامنا هذه بزعم الحداثة والتطوير والتنوير !! ، إن الإسلام جاء ليقوم عوج الحياة إلا ليذر بها عوجا .

[٢] رفض التأويل الكلامي :

لا يجوز اتخاذ العقل أصلاً في التفسير مقدماً على الشرع ، وتأويل النصوص إلى ما يوافق مقتضى العقل ، فالسلف كانوا على العكس ، احتكموا إلى الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية ، فطوعوا المفاهيم العقلية لها ، لأن العقل في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ هو أمر يقوم بالعاقل ليس هو عيناً قائمة بنفسها كما يعتبره بعض الفلاسفة، والعقل يعجز عن الإحاطة بحقائق الدين ، لأنه قاصر ، أما الدين فهو دين

---

(١) بعض الكُتَّاب المعاصرين كالغزالي ومصطفى محمود ، رغم دفاعهم عن الإسلام العام المجمل ، إلا أن نزعتهم العقلانية ورد نصوص الشريعة ، والهزيمة النفسية عندهم تجاه بعض الأحكام توجب الحذر من كلامهم .

الله خالق ومالك الملك ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك : ١٤]، وهذا الدين شامل لكل ناحية من نواحي الحياة ، وصالح لكل زمان ومكان ، ويتناسب مع جميع الخلق في الماضي والحاضر والمستقبل .

أما العلم الإنساني الذي يحيط بكل شيء فلن يوجد أبداً ، قال تعالى : ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠] ، وقال: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥] ، وما زالت الإكتشافات العلمية تمضي في طريقها لتبرهن على أنه كلما ازداد الإنسان علماً ازداد إحساساً بجهله وشعوراً بقصوره وعجزه .

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : « وكان من أعظم ما أنعم الله به على السلف اعتصامهم بالكتاب والسُّنَّة ، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم، أنه لا يُقبل من أحد قط معارضة القرآن برأيه ولا ذوقه كالمتصوفة ، ولا معقوله ولا قياسه كالفلاسفة ، والمتكلمين ، والمناطقة ، ولا وجده كالباطنية ، فإن السلف ثبت عنهم بالبراهين القاطعة ، والآيات البينات أن الرسول ﷺ جاء بالهدى والقرآن يهدي للتي هي أقوم .

وقد رد الإمام أحمد على الجهمية والمعتزلة ، فبين أن السلف كانوا ينفون عن كتاب الله تحريف الغالبين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، وأن منهج السلف فيمن أراد معرفة شيء من الدين أن ينظر فيما قال الله والرسول ، فمنه يتعلم وبه يتكلم وفيه ينظر ويتفكر ، وبه يُستدل ، وعلى العكس من ذلك أصحاب المنهج الكلامي الذين اعتمدوا على ما رأوه ثم نظروا في الكتاب والسُّنَّة ، فإن وجدوا النصوص توافقه أخذوا بها ، وإذا وجدوها تخالفه أعرضوا عنها .

[٣] الاستدلال بالآيات القرآنية :

يرى ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في الفرقان « ص ٤٧ » : « أن ما من مسألة من المسائل الكلامية والفلسفية التي خاض فيها الخائضون في العصور التالية إلا وكانت قد أوضحت في القرآن،فقد أمد المسلمين بتقريرات وبينات عن الذات الإلهية وصفاتها

ومسائل التوحيد والنبوات واليوم الآخر، والإنسان وبداية خلقه ونهاية مصيره وموقفه من الكون ، والأُمم السابقة وتاريخهم الماضي ، وحقائق عالم الغيب كالملائكة والجن .

والآيات القرآنية كثيرة :

■ **منهـا :** ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾.

[الذاريات : ٢٠ ، ٢١] .

■ **ومنهـا :** ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦) ﴾[الطور : ٣٥ ، ٣٦] .

وجاء الرسول ﷺ مؤيداً بالحجج العقلية كما قال تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[إبراهيم : ١٠] ، فأخبر أن الكفار لا يأتونه بقياس عقلي لباطلهم إلا جاءه الله بالحق والبيان ، والدليل والمثل بما هو أحسن تفسيراً للحق من قياسهم ، وقد تضمنت الآيات القرآنية الأدلة والبراهين المبينة للحق بأسلوب مقنع، قال الله تعالى : ﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣) ﴾ .

[الفرقان : ٣٣] .

فهي علامات ودلالات من أدلة الله على الله وعلى ما أراد ، وتدل على أن الرسول ﷺ صادق لأنه لا يستطيع الإنس والجن والإتيان بمثلها وعجزهم أمام التحدي ، فالبينات هي الأدلة والبراهين والهدى هو بيان ما ينتفع به الناس ومن الأدلة القرآنية الإستدلال على الخالق بخلق الإنسان ، لأن كون الإنسان حادثًا ومخلوقًا من علقة ، دليل عقلي ملموس يعلمه البشر بعقولهم ، ودليل شرعي لأن الشارع استدل به وأمره بالإستدلال به على البعث وإعادة الخلق بقدرة الله على الخلق ابتداء .

وبهذه القاعدة المنهجية التي يدعمها ابن تيمية شرعًا وعقلاً ، والتي تتلخص في الاعتقاد بأن السلف الصالح من الصحابة رضي الله عنهم كانوا هم الأعلم بلُغَة القرآن ومراميه والأحكم في فهم محكمه ومتشابه ، فلم تظهر في عصرهم خلافات في أصول العقيدة .

تركيز شيخ الإسلام - رحمه الله - على دعوة التوحيد والابتلاء بسبب ذلك

المتتبع لسيرة شيخ الإسلام وترجمته ولمؤلفته وكتبه ، يرى تركيزاً على دعوة التوحيد حرصًا على تفنيد شبهات المخالفين ، ومن ذلك ردوده على النصارى واليهود والباطنية ، والشيعة ، والصوفية ، والمعتزلة ... واهتمامه بمعاني التوحيد يدل على متابعة صادقة إذ ما من نبي إلا وقال لقومه ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ، وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

وكان التوحيد أول ما دعا إليه رسول الله ﷺ في مكة ، واستمر هذا الاهتمام في المدينة ، والقارئ لكتاب الله من أوله إلى آخر لابد وأن ينتبه لهذا المعنى ، والتوحيد هو أول ركن من أركان الإسلام ، كما ورد في حديث « بُني الإسلام على خمس » [رواه مسلم] ، ولما بُعث النَّبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه لأهل اليمن قال له : « إنك تُقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يعبدوا الله ، فإذا هم عرفوا الله ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ... » [رواه البخاري] .

فتقدم الأهم على المهم أمر واجب في العلم والعمل والدعوة إلى الله تعالى ، ولا أهم من التركيز على دعوة التوحيد خصوصًا إذا عمت الجهالة واشتدت الغربة ، وانحرف الناس عن مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ، وكما ترتب الأذى قديمًا على الأنبياء والصالحين بسبب ذلك ، نجد أن ابن تيمية قد ناله حظ ونصيب وحُبس مرات بسبب عقيدته السلفية ، ومن ذلك ما ذكره صاحب « فوات الوفيات » : أن شيخ الإسلام أملى سنة ٦٩٨هـ المسألة المعروفة بالحموية في قعدة بين

الظهر والعصر ، وهي رسالة أجاب بها عن سؤال ورد من « حماه » في الصفات ، وجرى له بسببها محنة ولكن الله نصره وأذل أعداءه ، وقد أُتهم بلا حق بأنه يرى رأي المجسمة والمشبهة ، وأثار خصومه الناس وبعض السلاطين والأمراء عليه بسبب آرائه على الرغم من أنه كان سلفيًا فيما ذهب إليه ، وقد ذكر ابن كثير القصة بشيء من التفصيل في « البداية والنهاية » ولم يتركه خصومه كما يذكر ابن رجب ، قال : « ثم امتحن سنة ٧٠٥هـ بالسؤال عن معتقده بأمر السلطان فجمع نائبه والقضاة والعلماء بالقصر ، وأحضر الشيخ وسأله عن ذلك ، فبعث الشيخ من أحضر من داره « العقيدة الواسطية » فقرؤها في ثلاثة مجالس ، وحققوها وبحثوا معه ووقع الاتفاق بعد ذلك على أن هذه العقيدة سُنِّية سلفية ، فمنهم من قال ذلك طوعًا ومنهم من قال كرهًا ، وورد بعد ذلك كتاب من السلطان فيه : « إنما قصدنا براءة ساحة الشيخ ، وتبين لنا أنه على عقيدة السلف » .

ويذكر ابن كثير في « البداية والنهاية » : أنه في جمادى الأولى من هذا العام ، حضر جماعة من رجال الطائفة الأحمدية من أهل الطرق الذين يموهون على الناس بما يزعمون كرامات لهم ، ومن هذه الكرامات أنهم يدخلون النار ولا تمسهم بأذى ، وكانوا قد طلبوا من نائب السلطنة بحضرة الأمراء ، أن يكف الشيخ عنهم وأن يتركهم وحالهم فقال الشيخ : « هذا ما لا يمكن ، ولابد لكل أحد أن يدخل تحت الكتاب والسُّنَّة قولاً وفعلاً ، ومن خرج عنهما وجب الإنكار عليه ، ومن أراد منهم أن يدخل النار فليدخل أولاً الحمام ويغسل جسده جيداً ، ثم يدخل إلى النار بعد ذلك إن كان صادقًا ، ولو فرض أن أحداً من أهل البدع دخل النار بعد أن يغتسل ، فإن ذلك لا يدل على صلاحه ولا على كرامته ، بل حاله من أحوال الدجاجلة المخالفة للشريعة إذا كان صاحبها على السُّنَّة فما الظن بخلاف ذلك .

فقال رجل منهم : نحن أحوالنا إنما تنفق عند التتار وليست تنفق عند الشرع ، فضبط الحاضرون عليه تلك الكلمة ، وكثر الإنكار عليهم من كل أحد ، ثم انتهى

الحال على أن يخلعوا أطواق الحديد من رقابهم ، وأن من خرج عن الكتاب والسُّنَّة ضربت عنقه ، وكان من أجل ذلك أن كتب الشيخ جزءًا في هذه الطريقة وبيَّن فيه أحوالهم ومسالكهم وتخيلاتهم ، وما فيها من مقبول ومردود بالكتاب ، وأظهر الله السُّنَّة على يديه ، وأخمد بدعتهم وبطل ما كانوا يعملون .

وتوالت عليه المحن كما يذكر ابن كثير ، ففي نفس السنة ورد إلى دمشق كتاب من السلطان بحمل ابن تيمية إلى القاهرة ، وكان نائب السلطنة قد أشار عليه بعدم الذهاب إلى مصر ، ولكن ابن تيمية رأى أن المصلحة في الذهاب ، وازدحم الناس لوداعه وهم بين باكٍ وحزين من أجله ومتفرج ومتنزه ، ومزاحم متغالٍ فيه ، ويذكر ابن رجب أن المصريين هم الذين دبروا الحيلة في أمر الشيخ ورأوا أنه لا يمكن البحث والجدل معه ، وأجمعوا أمرهم على أن يعقد له مجلس ويُدعي عليه فيه وتقام عليه الشهادات ، وكان القائمون في ذلك بيبرس الجاشنكير ، ونصر المنبجي ، وكان خصمًا للشيخ وابن مخلوف قاضي المالكية ، ثم تم حبس شيخ الإسلام ونقل إلى السجن المعروف بالجُبّ ، ولبث في السجن عامًا وبضعة أشهر ، ورُفِضَ الإفراج عنه على أن يرجع عن بعض عقيدته ، ولم يكن يخرج من السجن حتى عاد إليه في العام نفسه بسبب شكاية تقدم بها الصوفية وذكروا في شكايتهم أنه يحمل على ابن عربي صاحب مذهب وحدة الوجود ، وغيره من أعلام التصوف .

ثم في سنة ٧١٨هـ ورد كتاب من السلطان بمنعه من الفتوى في مسألة الحلف بالطلاق بالتكفير ، أي لزوم كفارة اليمين عند الحنث لا وقوع الطلاق ، إذا قال الرجل الطلاق يلزمني أو علقه على شرط وقصد به اليمين ، وفي سنة ٧٢٦هـ صدر مرسوم باعتقاله لفتواه بمنع شد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة الحرام والأقصى ومسجد النَّبي ﷺ بالمدينة ، وحين أُخبر ابن تيمية بالمرسوم قال : « أنا كنت منتظرًا لذلك ، وهذا فيه خير كثير ومصلحة كبيرة » ، ولم ينته هذا الإعتقال إلا بوفاته .

موقف شيخ الإسلام من الملل
ورده على من بدل دين المسيح

ما دخل ابن تيمية في علم إلا وفاق أهله فيه ، وكان رحمه الله على معرفة كبيرة بالملل والنحل والمذاهب والفرق والعقائد والطرق ، مما يسر له الرد وتفنيد الشبهات والزيف ومن الأمثلة التي توضح لك ذلك كتابه القيم « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » ، وهو يقع في مجلدين كبيرين ، وقد أسسه على ست قواعد جامعة صالحة للرد عليهم وعلى شبهاتهم هنا وهناك ، ومن جملة ما قاله في بيان تبديلهم وتغييرهم وتحريفهم : « وكان الروم واليونان وغيرهم مشركين يعبدون الهياكل العلوية والأصنام الأرضية ، فبعث المسيح عليه السلام رسله يدعونهم إلى دين الله تعالى ، فذهب بعضهم في حياته في الأرض وبعضهم بعد رفعه إلى السماء ، فدعوهم إلى دين الله تعالى ، فدخل من دخل في دين الله وأقاموا على ذلك مدة ثم زين الشيطان لمن زين له أن يغير دين المسيح فابتدعوا دينًا مركبًا من دين الله ورسله ، دين المسيح عليه السلام ودين المشركين » .

وقال : « كما أحدثوا ألفاظ الأقانيم وهي ألفاظ لا توجد في شيء من كلام الأنبياء ، وكما أحدثوا الأصنام المرموقة بدل الأصنام المجسدة ... » .

وقال : « لم يقولوا ما قاله المسيح والأنبياء بل ابتدعوا اعتقاداً لا يوجد في كلام الأنبياء ، فليس في كلام الأنبياء ولا المسيح ولا غيره ذكر أقانيم لله ثلاثة ولا أكثر ولا إثبات ثلاث صفات ولا تسمية شيء من صفات الله ابنًا لله ولا ربًا ، ولا تسمية حياته روحًا ،ولا أن لله ابنًا هو إله حق من إله حق من جوهر أبيه،وأنه خالق كما أنه الله خالق، إلى غير ذلك من الأقوال المتضمنة لأنواع من الكفر، لم تنقل عن نبي من الأنبياء » .

وبيَّن كيف وضع لهم الأحبار والرهبان الشرائع والعقائد ، فقال : « النصارى تضع لهم عقائدهم وشرائعهم أكابرهم بعد المسيح ، كما وضع لهم الثلاثمائة وثمانية

عشر الذين كانوا في زمن قسطنطين الملك الأمانة التي اتفقوا عليها ولعنوا من خالفها من الأريوسية وغيرهم ، وفيها أمور لم ينزل الله بها كتابًا ، بل تخالف ما أنزل الله من الكتب مع مخالفتها للعقل الصريح » .

وقال عن الأناجيل : « إن هذه المقالات الأربعة التي يسمونها الأناجيل ، وقد يسمون كل واحد إنجيلاً ، إنما كتبها هؤلاء بعد أن رُفِعَ المسيح ، فلم يذكروا فيها أنها كلام الله ، وأن المسيح بلغها عن الله ، بل نقلوا فيها أشياء من كلام المسيح ، وأشياء من أفعاله ومعجزاته ، وذكروا أنهم لم ينقلوا كل ما سمعوه منه ورأوه ، فكانت من جنس ما يرويه أهل الحديث والسير والمغازي عن النَّبي ﷺ من أقواله وأفعاله التي ليست قرآنًا ، فالأناجيل التي بأيديهم شبه كتب السيرة وكتب الحديث » ، وقال أيضًا : « وأما الأنجيل الذي بأيديهم فإنهم معترفون بأنه لم يكتبه المسيح عليه السلام ولا أملاه على من كتبه وإنما أملوه بعدما رُفِعَ المسيح عليه السلام من ومتَّى ويُوحنا ، وكانا قد صاحبا المسيح عليه السلام ولم يحفظه خلق كثير يبلغون عدد التواتر ، ومرقص ، ولوقا ، وهما لم يريا المسيح عليه السلام ، وقد ذكر هؤلاء أنهم ذكروا بعض ما قاله المسيح وبعض أخباره ، وأنهم لم يستوعبوا ذكر أقواله وأفعاله ، ونقل اثنين وثلاثة وأربعة يجوز عليهم الغلط ، لا سيما وقد غلطوا في المسيح نفسه حتى اشتبه عليهم الصواب » .

وقد شهد بوقع التحريف في الأناجيل فقال : « وإذا عرف أن جميع الطوائف من المسلمين والنصارى يشهد أنه قد وقع في هذا الكتب تحريف وتبديل في معانيها وتفاسيرها وشرائعها ، فهذا القدر كاف » ، وقال أيضًا : « ولكن علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب متفقون على وقوع التحريف في المعاني والتفاسير » .

وتكلم عن التوراة وهي الكتاب المعتمد عند اليهود والعهد القديم عند النصارى فقال : « أما التوراة فإن نقلها انقطع لما خربت بيت المقدس أولاً وأُجلى منه بنو إسرائيل ثم ذكروا أن الذي أملاها عليهم بعد ذلك شخص واحد يقال له عازر وزعموا أنه نبي ، ومن الناس من يقول أنه لم يكن نبيًا وأنها قوبلت بنسخة وجدوها عتيقة ،

وقيل أنه أُحضرت نسخة كانت في المغرب ، وهذا كله لا يوجب تواتر جميع ألفاظها ولا يمنع وقوع الغلط في بعضها كما يجري مثل ذلك في الكتب التي يلي نسخها ومقابلتها وحفظ القليل الإثنان والثلاثة » .

وقد بيَّن رحمه الله : « أن أهل الكتاب لم يفهموا كثيراً من ألفاظ الأنبياء ، كما قد حرفوا مفاهيم ألفاظًا كثيرة مثل ابن ، وروح القدس ، ولذلك ظهرت فيهم عقيدة التثليث » ، وأورد في كتابه من قال من علمائهم بالتوحيد وأن المسيح عبد الله ورسوله ، وذكر البشائر عن النَّبي محمد ﷺ في التوراة والكتب السابقة ونقل الكثير من معجزات رسول الله ﷺ ودلائل نبوته ، وأنه لا يسع أي مؤمن بنبي من الأنبياء إنكار النبوة المحمدية [١] ، إذ الأنبياء السابقين لا تعرف نبوتهم إلا من خلال الإيمان بنبوته ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وكما قال ابن تيمية : « فإن معجزات النَّبي ﷺ أعظم وتواترها أبلغ ، والكتاب الذي جاء به أكمل وأُمَّته أفضل ، وشرائع دينه أحسن ، فيبطل بتكذيب نبوته جميع ما مع الناس من النبوات » .

وبيَّن بعثته العامة ﷺ فقال : « فهذه الدلائل وأضعافها مما تبين أنه نفسه ﷺ أخبر أنه رسول الله إلى النصارى وغيرهم من أهل الكتاب ، وأنه دعاهم وجاهدهم وأمر بدعوتهم وجهادهم ، وليس هذا مما فعلته أُمته بعده بدعة ابتدعوها كما فعلت النصارى بعد المسيح عليه السلام ، فإن المسلمين لا يجوز لأحد بعد محمد ﷺ أن يغير شيئًا من شريعته ، فلا يحلل ما حُرِمَ ، ويحرم ما حلل ، ولا يوجب ما أسقط ولا يسقط ما أُوجب ، بل الحلال عندهم ما حلله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ما شرعها لله ورسوله » .

---

(١) راجع كتابي « دعوة أهل الكتاب إلى دين رب العباد » لتعلم كفر أهل الكتاب الذين سمعوا بنبوته ﷺ ولم يسلموا وجوههم لله ، وأنهم وإن أقروا بوجود الله فليسوا بمؤمنين ، وأنه لا يجوز التلبيس ولا التدليس أو اطلاق اسم « أهل الإيمان » علىٍ اليهود والنصارى ، كما أن الدين الذي يجب أن تعود إليه البشرية هو دين الإسلام ، وليس دينا سواه ، فلا داعي للتعمية إذ التوضيح مطلوب وخصوصًا وقت الغُربة ، واختلاط المفاهيم وكثرة المزيفين .

نقض شيخ الإسلام للمنطق والفلسفة

معنى الفلسفة وأقسام الفلاسفة :

قال أبو الفتح الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » : الفلسفة باليونانية : محب الحكمة ، والفيلسوف هو فيلا سوفا ، وفيلا هو المحب ، وسوفا هي الحكمة ، أي هو مُحب الحكمة ، والحكمة قولية وفعلية » .

وقال الغزالي في كتابه « المنقذ من الضلال » : اعلم أنهم على كثره فرقهم واختلاف مذاهبهم ثلاثة أقسام :

الدهريون ، والطبيعيون ، والإلهيون :

فأما الدهريون : فهم طائفة من الأقدمين حجدوا الصانع المدبر للعالم ، وزعموا أن العالم لم يزال موجوداً كذلك بنفسه ، وكذلك يكون أبداً ، وهؤلاء الزنادقة .

وأما الطبيعيون : فهم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة ، وعجائب الحيوان والنبات ، وأكثروا الخوض في علم تشريح الأعضاء ، فرأوا فيها العجائب ، فاضطروا إلى الاعتراف بقدرة حكيم ، لكنهم حجدوا الآخرة وهؤلاء أيضًا الزنادقة .

وأما الإلهيون : وهم المتأخرون منهم سقراط وهو أستاذ أفلاطون ، وأفلاطون أستاذ أرسطاطاليس، وأرسطاطاليس هو الذي رب لهم المنطق وهذب العلوم ، وهؤلاء ردوا على الصنفين الأولين ، ثم رد أرسطاطاليس على أفلاطون وسقراط ، ومن قبله من الإلهيين ، إلا أنه استبقى أيضًا من رذائل كفرهم » .

قال الغزالي : « فوجب تكفيرهم وتكفير متبيعهم من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا والفارابي وغيرهما » .

المتفلسفة المسلمين وانبهارهم بأرسطوا وأفلاطون :

يقول أبو نصر الفارابي عن أرسطو وأفلاطون « وكان هذان الحكيمان هما

المبدعان للفلسفة والمنشئان لأوائلها وأصولها ، والمتممان لأواخرها وفروعها ، وعليها المعول في قليلها وكثيرها » .

وقال أبو علي ابن سينا في كتابه الشفاء : إن أرسطو مضى عليه أمد طويل إلا أن القضايا والتحقيقات التي أدلى بها لم تحتج إلى زيادة » .

وذكروا عن ابن رشد[١] وانبهاره وتعظيمه لأرسطو فقالوا : « أما تمجيد ابن الكمال الإنساني عقلاً وفضلاً ، ولو كان ابن رشد يقول بتعدد الألهة لجعله ابن رشد رب الأرباب » .

ويعتبر نصير الدين الطوسي حامل لواء العلم والفلسفة اليونانية ، وكان مقربًا لهولاكو زعيم التتار ، وسببًا من أسباب انتشار الدمار في البلاد والعباد ، وكان يعتبر أرسطوا العقل الكامل ، ويرى في نظراته وتحقيقاته المرجع الأخير ، وهو الذي أحل المنطق والفلسفة محلاً رئيسيًا في التعليم السائد في إيران .

وقد ولد شيخ الإسلام ابن تيمية قبل وفاة نصير الدين الطوسي بعشر سنين وكان الفلسفة والمنطق اليونانيين في غلبة وازدهار بتأثير الطوسي وتلامذته .

إنصاف شيخ الإسلام في نقد خصومه :

الميزان له كفتان ، والعدل أساس الملك وبه قامت السموات والأرض ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[المائدة : ٨] ، والظلم ظلمات ، ولا يحل ذلك حتى مع الكافر ولذلك كان لابد من اعتدال في التقييم ، فالحق مقبول من كل من جاء به والباطل مردود على صاحبه كائنًا من كان ، وهذا هو الذي صنعه شيخ الإسلام مع الفلاسفة وغيرهم ، فهو يعترف بما أجادوا فيه ويرد عليهم فيما جانبوا فيه الحق والصواب ، وضابطه في ذلك كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ، يدلك على ذلك كتابه القيم في « نقض المنطق » وغيره .

---

(١) حاز فيلم « المصير » عن حياة ابن رشد الجائزة في فرنسا ، وتقلد سلمان رشدي أعلى جائزة في انجلترا عن كتابه « آيات شيطانية » وتوّجوا نجيب محفوظ بجائزة نوبل عن كتابه « أولاد حارتنا » لأمور لا تخفى عليك !! .

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :

« نعم لهم في الطبيعيات كلام غالبه جيد ، وهو كلام كثير واسع ، ولهم عقول عرفوا بها ذلك ، وهم قد يقصدون الحق ولا يظهر عليهم العناد » ، وقال أيضًا : « لكن لهم معرفة جيدة بالأمور الطبيعية ،وهذا بحر علمهم وله تفرغوا وفيه ضيعوا زمانهم » ، وقال عن علوم الرياضة : « فهذه الأمور وأمثالها مما يتكلم فيه الحساب أمر معقول مما يشترك فيه ذوو العقول ، وما من أحد من الناس إلا يعرف منه شيئًا فإنه ضروري في العلم ، ضروري في العمل ، ولهذا يمثلون به في قولهم ، الواحد نصف الاثنين ولا ريب أن قضاياه كلية واجبة القبول لا تنتقض البتة » .

ثم نراه ـ رحمه الله ـ وهو يرد عليهم ويفند كلامهم في الفلسفة الإلهية فيقول :

« للمتفلسفة في الطبيعيات خوض وتفصيل تميزوا به بخلاف الإلهيات ، فإنهم أجهل الناس بها وأبعدهم عن معرفة الحق ، منها كلام أرسطوا معلمهم فيها قليل كثير الخطأ » .

وقال ـ رحمه الله ـ : وأما معرفة الله تعالى « فحظهم منها مبخوس جداً ، وأما ملائكته وكُتبه ورسله فلا يعرفون ذلك البتة ، ولم يتكلموا فيه لا بنفي ولا بإثبات ، وإنما تكلم في ذلك متأخروهم الداخلون في الملل » ، وقال : « بل قد صرح أساطين الفلسفة أن العلوم الإلهية لا سبيل فيها إلى اليقين، إنما يتكلم فيها بالأحرى والأخلق ، فليس لهم فيها إلا الظن ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [النجم: ٢٨] ، وقال : « إذا نظر في كلام معلمهم الأول ـ أرسطو ـ وتدبره الفاضل العاقل لم يفده إلا العلم بأنهم كانوا من أجهل الخلق برب العالمين ، وصار يتعجب تعجبًا لا ينقضي ممن يقرن علم هؤلاء بالإلهيات بما جاءت به الأنبياء ، ويرى أن هذا من جنس من يقرن الحدادين بالملائكة ... » .

وقال ـ رحمه الله ـ : « وأما ما جاءت به الأنبياء فلا يعرفه هؤلاء البتة ، وليسوا قريبين منه ، بل كفار اليهود والنصارى أعلم منهم بالأمور الإلهية ... »، وقال أيضًا :

« أما الغيب الذي تخبر به الأنبياء والكليات العقلية التي تعم الموجودات كلها وتقسيم الموجودات قسمة صحيحة فلا يعرفونها البتة ... » .

وقال ـ رحمه الله ـ : « أما قدماء اليونان فكانوا مشركين من أعظم الناس شركًا وسحرًا ، يعبدون الكواكب والأصنام، ولهذا عظمت عنايتهم بعلم الناس شركًا وسحرًا، يعبدون الكواكب والأصنام ، ولهذا فرق شيخ الإسلام بين المتقدمين والمتأخرين من فلاسفة اليونان فقال : « وسبب ذلك ما ذكره طائفة من جمع أخبارهم أن أساطين الأوائل كفيثاغورث وسقراط وأفلاطون كانوا يهاجرون إلى الأرض الأنبياء بالشام ، ويتلقون عن لقمان الحكيم ومن بعده من أصحاب داود وسليمان وأن أرسطو لم يسافر إلى أرض الأنبياء ، ولم يكن عنده من العلم بآثار الأنبياء ما عند سلفه ، وكان عنده قدر يسير من الصابئية الصحيحة ، فابتدع لهم هذه التعاليم القياسية فصارت قانونًا مشى عليه أتباعه .

وقال ـ رحمه الله ـ : « ولكن الفلسفة التي يسلكها الفارابي وابن سينا وابن رشد والسهروردي المقتول ونحوه فلسفة المشائين ، وهي المنقولة عن أرسطوا الذي يسمونه بالمعلم الأول »، وقد أوضح شيخ الإسلام أنه لا يمكن إهانة الله بأكثر من هذا ، وأن فلاسفة الإسلام مقلدون لفلاسفة اليونان ، وأن ابن سينا جاهل بحقيقة النبوة ومنصبها .

لم يكن ابن تيمية وحده هو الذي حارب الفلاسفة :

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : « ولأرسطو أقوال يسخر منها العقلاء ، منها أن الله تعالى لا يعلم شيئًا من الموجودات لأنه لو علم شيئًا لكمل بمعلوماته كما حكاه عنه أبو البركات البغدادي فيلسوف الإسلام ، وحقيقة ما كان عليه من الكفر بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، وقد درج على إثره غير واحد من الملاحدة المتسترين بالإسلام ، ويعظمونه فوق تعظيم الأنبياء عليهم السلام ، ويسمونه المعلم الأول لأنه أول من وضع لهم التعاليم المنطقية » .

وقد ذكر الغزالي : « الفارابي وابن سينا » في كتابه « المنقذ من الضلال » فقال : « إن مجموع ما غلطا فيه من الإلهيات يرجع إلى عشرين أصلاً يجب تكفيرهما في ثلاثة منها وتبديعهما في سبعة عشر .

أما المسائل الثلاث فقد خالفا فيها كافة الإسلاميين :

الأولى : قالوا بأن الأجساد لا تحشر ، وأن المثاب والمعاقب هي الأرواح .

الثانية : قولهم أن الله سبحانه وتعالى يعلم الكليات لا الجزئيات .

الثالثة : قولهم بقدم العالم ، واعتقاد هذا كفر صريح ، نعوذ بالله تعالى منه .

قال ابن خلكان : ثم إن ابن سينا لما أيس من العافية على ما قيل ترك المداواة واغتسل وتاب ، وتصدق بما معه على الفقراء ، ورد المظالم على من عرفه ، واعتق مماليكه وجعل يختم في كل ثلاثة أيام ختمة ، ثم مات بهمذان يوم الجمعة من شهر رمضان ، وقيل مات في السجن .

ما أشبه كثير من المناطق بالملاحدة والتنويرين :

يعبر شيخ الإسلام عن رأيه في المنطق فيقول : « إني كنت دائمًا أعلم أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد » ، وقال : « فحقه النافع فطري لا يحتاج إليه ، وما يحتاج إليه ليس فيه منفعة إلا معرفة اصطلاحهم وطريقهم أو خطئهم » ، وقد بين تأثير المنطق على العقل واللسان وقال : « وما زال نظار المسلمين يعيبون طرق أهل المنطق ويبينون أنها إلى الإفساد العقلي واللساني أقرب منها إلى تقوم ذلك » .

وقال : « إذا اتسعت العقول وتصوراتها اتسعت عباراتها ، وإذا ضاقت العقول والتصورات بقى صاحبها كأنه محبوس العقل واللسان كما يصيب أهل المنطق اليوناني ، تجده من أضيق الناس علمًا وبيانًا ، وأعجزهم تصورًا وتعبيرًا ، ولهذا من كان منهم ذكيًا إذا تصرف في العلوم وسلك مسلك أهل المنطق طول وضيق ، وتكلف

وتعسف وغايته بيان البين وإيضاح الواضح من العي ، وقد يوقعه ذلك في أنزاع من السفسطة التي عاف الله منها من لم يسلك طريقهم » ، فمن سَلِمَ من هؤلاء فلا إستفادته من المسلمين كما يقول ابن تيمية عن ابن سينا : « ومن وجد في بعض كلامه فصاحة وبلاغة ، كما يوجد في بعض كلام ابن سينا وغيره ، فمما استفاده من المسلمين من عقولهم وألسنتهم ، وإلا فلو مشى على طريقة سلفه وأعرض عما تعلمه من المسلمين لكان عقله ولسانه يشبه عقولهم وألسنتهم » .

وأوضح ـ رحمه الله ـ أن النظر في العلوم الدقيقة يفتق الذهن ويدربه ويقويه على العلم ، ولكن المنطق لا يصلح أن يكون ميزانًا للحقائق الدينية والعلوم الإلهية ، إذ المنطق لابد أن يدور عمله في نطاق محدود وإذا انتقلنا إلى واقعنا اليوم ونظرنا في كلام الملاحدة الشيوعيين ، الذين يزعمون العمل من أجل طبقات الشعب الكادح ، وكلام المثقفين الذين طُلب منهم توجيه شعب وصفوه بالأُمية ، لوجدنا كلامًا ومصطلحات ، لا يمكن لهذا الشعب فهمها ، ولا أدري من الذين أراد تنويره ؟!! .

لقد اعوجت ألسنتهم كما انحرفت عقولهم وقلوبهم كنتيجة حتمية لبعدهم عن كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ، والسلوك كما قالوا مرآة الفكر ، وكما ورد في الحديث الصحيح : « **ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب** » (١) ، ثم ما من نبي إلا وبعثه الله بلسان قومه ليبيِّن لهم ، فإذا كان الملاحدة والزنادقة من المثقفين التنويريين بهذه الكيفية من العي وعدم البيان ، فهذا من رحمة الله بعباده ، وإلا لعظمت البلية بهؤلاء المنحرفين .

(١) حديث صحيح ، رواه مسلم .

نقد شيخ الإسلام للصوفية

معنى التصوف :

قال الغزالي : « التصوف هو تجريد القلب لله تعالى واحتقار ما سواه ، قال : وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح ، ونقل السخاوي عن السرقطي أنه سُئِل عن التصوف فقال : « هو اسم لثلاثة معان ، وهو الذي لا يطفيء نور معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم بباطن ينقضه عليه ظاهر الكتاب ، ولا تحمله الكرامات من الله تعالى على هتك أستار محارم الله تعالى » أ . هـ .

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : « إن هذا التعبير عن الزاهد بالصوفي حدث في أثناء المئة الثانية ، لأن لباس الصوف كان يكثر في الزهاد ، ومن قال : إنه نسبة إلى الصفة التي ينسب إليها كثير من الصحابة ويقال فيهم أهل الصفة ، أو نسبة إلى الصفاء أو الصف الأول ، أو صوفة بن مروان بن أدين طانجة ، أو صوفة القفا ، فهي أقوال ضعيفة » أ . هـ .

ثناؤه على بعض الصوفية :

أثنى شيخ الإسلام على بعض الصوفية ممن أعتبر طبقته مقيدة بالكتاب والسُّنَّة كالجيلاني والجنيد ، وهذا عدل وانصاف كما حكى سبحانه عن ذي القرنين عندما بلغ مغرب الشمس فقال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ﴾ [الكهف : ٨٦ – ٨٨] ، وليس من أحسن كمن أساء .

قال عبد القادر الجيلاني في كتابه الفتح الرباني : « الصوفي من صفا باطنه

وظاهره بمتابعة كتاب الله عز وجل وسُنَّة رسوله ﷺ » .

وقال الجنيد : « الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ ، وقال : ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا العلم ، لأن علمنا ومذهبنا مقيد بالكتاب والسُّنَّة » .

وقال أبو يزيد البسطامي لبعض أصحابه : « قم حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية ـ وكان رجلاً مشهوراً بالزهد ـ فمضيا ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد ، رمى ببزاقة تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، فقال : « هذا الرجل غير مأمون على آداب رسول الله ﷺ ، فكيف يكون مأمونًا على ما يدعيه ؟» ، وقال : « لو نظرتم إلى رجل أعطي الكرامات حتى تربع في الهواء فلا تغتروا به ؛ حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود وأداء فعل الشريعة ، وإلا فهي استدراج » .

وقال أبو سليمان الداراني : « ربما تقع في قلبي النكتة من نكت القوم أيامًا ، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسُنَّة » .

وقال ذو النون المصري : « ومن علامات المحب لله سبحانه متابعة حبيب الله محمد ﷺ في أفعاله أخلاقه وأوامره وسُننه » .

وقال عبد القادر الجيلاني : « جميع الأولياء لا يستمدون إلا من كلام الله عز وجل ، ورسوله ﷺ ولا يعملون إلا بظاهرهما » .

تفنيده لشبهات البعض الآخر من الصوفية :

وصف شيخ الإسلام بعض الصوفية بأنهم موسوية المحمدية وعيسوية المحمدية وذلك لكثرة أوجه الشبه بين اليهود والنصارى [1] ، وقد وصف البعض بأنهم من

---

(١) كالغلو في الصالحين ، واتخاذ الموالد ، وصرف العبادة للمقبورين ، واتخاذ القبور مساجد ، وكعقيدة الحلول والاتحاد الموجودة عند النصارى ، وزعمهم أن اللاهوت حل في الناسوت ، وكذلك قال بعض الصوفية بحلول الله في مخلوقاته ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

ملاحدة الصوفية كابن عربي [١] ، ولم يمتدح من كتاب الإحياء للغزالي إلا كتاب المهلكات والمنجيات ، وهذا من عدله وانصافه وتمحيصه وتمييزه فيما يتعلق بالأشخاص والدعوات والمقالات والكتب .

ليس ابن تيمية - رحمه الله - أول من انتقد الغزالي :

دخل الغزالي في بحار الفلسفة ، وكاد يهلك مع من هلك لولا أن تداركته رحمة الله ، وقال عن نفسه : « بضاعتي في الحديث مزجاة » وقد انتقد عليه غير واحد من العلماء وشنعوا عليه ما حرره في بعض كتبه ، حتى أن القاضي عياض صاحب كتاب « الشفا بمعرفة حقوق المصطفى » أمر بإحراق كتب الغزالي ، وصنف البعض « الإملاء في الرد على الإحياء » يقصد كتابه « إحياء علوم الدين » ، وهو من أكثر كتب الغزالي شهرة، وقد سماه البعض إماتة علوم الدين ، وطالب فريق من العلماء بإحراقه .

قال أبو الفرج ابن الجوزي : « قد جمعت أغلاط الكتاب وسميته « إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء» ، أشرت إلى بعض ذلك في كتاب « تلبيس إبليس » .

وقال سبطه أبو المظفر : « وضعه على مذهب الصوفية وترك فيه قانون الفقه ، فانكروه عليه ما فيه من الأحاديث التي لم تصح » أ . هـ .

فلم يكن ابن تيمية أول من انتقد على الغزالي وقد روى رحمه الله بعض ما قيل مما كثرت فيه الأقاويل ثم برأه مما نسب إليه ، وحكى قول من قال إنها مكذوبة عليه، وأنه توفي وهو لصحيح البخاري ملازم ، ونابذ لما صدر منه من تصنيفاته في زمنه المتقادم ، قال ابن الألوسي : « على أنه قد جرت عادة العلماء المتقدمين والمتأخرين باعتراض بعضهم على بعض ، حتى يتضح الثواب للمنصفين ، فاقنع بهذا ولا تكن من المعترضين ، وخذه وكن من الشاكرين » أ . هـ .

ولم يكن أول من حمل على منحرفي الصوفية :

لقد تتبع شيخ الإسلام ابن عربي « النكرة » وابن الفارض وابن سبعين والحلاج

---

(١) ابن عربي «النكرة» صاحب «الفتوحات المكية »، غير ابن العربي العلاَّمة، أحد أئمة المالكية .

وقد أحسن في ذلك ، **ولم يكن أول من حمل على انحرافتهم واليك بيان ذلك :**

[١] ابن عربي « النكرة » :

لقد أحسن الأزهر في منعه طبع كتبه ككتاب « الفتوحات المكية » بناءً على كلامه المخالف للشريعة المطهرة ، وقد نص كثير من العلماء على تكفيره ، وألفوا في ذلك الرسائل العديدة المطولة والمختصرة ، فمنها للعلامة السخاوي ، ومنها للتفتازاني، ومنها للملا علي القاري ، ومنهم من ذكره في تصنيفاته ، ولم يؤلف فيه كتابًا مستقلاً كالحافظ بن حجر العسقلاني ، فإنه ذكره في « لسان الميزان » وحط عليه ، ونسب إليه سوء الاعتقاد وأبي حيان المفسر في تفسيريه « البحر والنهر » ، وقال في الشذرات : « ولقد بالغ ابن المقري في « روضه » فحكم بكفر من شك في كفر طائفة « ابن عربي »، ونقل الشيخ علي القاري عن ابن دقيق العيد القائل في آخر عمره : «لي أربعون سنة ما تكلمت كلمة إلا وأعددت لها جوابًا بين يدي الله تعالى ، وقد سألت شيخنا سلطان العلماء العز بن عبد السلام عن ابن عربي فقال : « شيخ سوء كذاب يقول بقدم العالم ولا يحرم فرجًا » .

وقال : « وسُئِل عنه شخينا العلامة المحقق الحافظ المفتي المصنف أبو زرعة أحمد ابن شيخنا الحافظ العراقي الشافعي فقال : « لا شك في اشتمال « الفصوص » المشهورة على الكفر الصريح الذي لا يشك فيه ، وكذلك « فتوحاته المكية » فإن صح صدور ذلك عنه ، واستمر عليه إلى وفاته فهو كافر مخلد في النار بلا شك ، وقال : « وكذلك شيخنا شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني ، صرح بكفر ابن عربي ، وكذا رضي الدين أبو بكر محمد المعروف بابن الخياط ، والقاضي شهاب الدين أحمد الناشري الشافعيان ، وجملة من العلماء قال أبو حيان في تفسير قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [المائدة : ٧٢] ما نصه : « ذكر تعالى أن من النصارى من قال : أن المسيح هو الله ، ومنهم من قال هو ابن الله ، ومنهم من

قال هو ثالث ثلاثة ، وتقدم أنهم ثلاث طوائف : ملكانية ويعقوبية ونسطورية ، وكل منهم يكفِّر بعضهم بعضاً ، ومن بعض اعتقادات النصارى استنبط من تسربل بالإسلام ظاهراً وانتمى إلى الصوفية ، حلول الله تعالى في الصور الجميلة ، ومن ذهب من ملاحدتهم إلى القول بالاتحاد والحلول كالحلاج ، والشوزي وابن أحلّي وابن عربي المقيم بدمشق وابن الفارض وأتباع هؤلاء كابن سبعين والششتري تلميذه وابن مطرف المقيم بمرسية ، والصفار المقتول بغرناطة وابن التاج وابن الحسن المقيم بلودقة ، ومن رأيناه يرمي بهذا المذهب الملعون العفيف التلمساني وله أشعار كثيرة ، وابن عياش المالقي الأسود الأقطع المقيم بدمشق وعبد الواحد المؤخر المقيم بصعيد مصر والأبلى العجمي الذي كان يتولى المشيخة بخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة من ديار مصر ، وأبو يعقوب بن مبشر تلميذ الششتري المقيم كان بحارة زويلة في القاهرة والشريف عبد العزيز المنوفي ، وتلميذه عبد الغفار التومي ، وإنما سردت أسماء هؤلاء نصحًا لدين الله تعالى يعلم الله تعالى ذلك ، وشفقة على ضعفاء المسلمين ، وليحذروا منهم أشد من الفلاسفة ، الذين كذَّبوا الله ورسوله ، ويقولون بقدم العالم ، وينكرون البعث ، وقد أولع جهلة من ينتمي للتصوف بتعظيم هؤلاء وادعائهم أنهم صفوة الله تعالى وأولياؤه ، والرد على النصارى والحلولية والقائلين بالوحدة هو من عِلم أصول الدين » أ . هـ .

فهل يُلام شيخ الإسلام بعد ذلك إذا وصف ابن عربي بأنه من ملاحدة الصوفية ، وأنت ترى كم له سلف في ذلك ، وكم له محذر عن تلك المهالك ، وهل يتهم أيضاً بأنه من ثالوث التكفير كما فعل أصحاب الطريقة العزمية الصوفية ؟! ، لا أظنهم إن فعلوا سيتهمون المذكورين بذلك ؟! .

[٢] أبو الحسن الشاذلي :

لما صدر من الشاذلي بعض التعبيرات المخالفة للشرع ، وكان الدين لا محاباة فيه ، وكل أحد يؤخذ من قوله ويُرد عليه إلا رسول الله ﷺ ، وكان العلماء مأمورين برد ما

يخالف الشريعة المطهرة ، فلعل ابن تيمية تصدى طمعاً بالنصيحة في أثناء تصنيفاته لبيان ما يرد عنده على الشيخ الشاذلي في بعض عبارته ، وهو رحمه الله لم ينفرد بذلك ، ولو انفرد بذلك فلا عتب عليه في إنكاره المنكرات وردها على صاحبها كائناً من كان .

قال الذهبي في العبر : « الشاذلي أبو الحسن عليّ بن عبد الله بن عبد الحميد المغربي الزاهد شيخ الطائفة الشاذلية ، سكن الإسكندرية ، وصحبه بها جماعة ، وله في التصوف مشكلة توهم ويتكلف له في الإعتذار عنها ، وعنه أخذ الشيخ أبو العباس المرسي » أ . هـ .

وقال ابن الوردي في تاريخه : « له عبارات في التصوف مشكلة ، رد عليها الشيخ ابن تيمية » ، وقد نقل عبد الرؤوف المناوي أنه قيل له : من شيخك ؟ ، فقال : « أما فيما مضى فعبد السلام بن مشيش ، وأما الآن فإني أسقي من عشرة أبحر : خمسة سماوية وخمسة أرضية » ، وقد أُخذا على الشاذلي التوسل والأقسام بغير الله وكلمات التصوف في بعض أحزابه .

[٣] الحلاج :

قال الذهبي في العبر : « إن الحلاج سافر إلى الهند وتعلم السحر ، وحصل له به حال شيطاني وهرب منه الحال الإيماني ، ثم بدت منه كفريات أباحت دمه ، وكسرت صنمه ، واشتبه علي الناس السحر بالكرامات ، فضل به خلق كثير كدأب من مضى ومن يكون إلى مقتل الدجال ، والمعصوم من عصمه الله تعالى » ، وقال أيضاً : « قال ناس ساحر ، فأصابوا ، وقال ناس به مس من جنون ، فما أبعدوا ، لأن الذي يصدر عن عاقل إذ ذلك موجب حتفه ، أو هو كالمصروع أو المصاب الذي يخبر بالمغيبات ، وقال ناس من الأنعام : بل هو رجل عارف ولي لله تعالى ، صاحب كرامات فليقل ما شاء ، فجهلوا من وجهين : أحدهما أنه ولي ، والثاني : أن الولي يقول ما شاء فلن يقول إلا الحق » .

وقال السلمي في تاريخ الصوفية : « الحلاج كافر خبيث قُتِلَ في ذي القعدة سنة ٣٠٩هـ ، قد هتك الخطيب حاله في تاريخه ، وأوضح أنه كان ساحراً مموهاً سيء الإعتقاد » .

وسُئِل عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني فقال في أثناء إجابته :

« ... وغالب هؤلاء الصوفية الذين مزجوا التصوف بالفلسفة ومنهم محي الدين بن عربي ، وشرف الدين بن الفارض ، وكلامهم في الإتحاد ظاهر ، ففي كلام ابن عربي في « الفصوص » من ذلك فضائع في « القصيدة التائية » الكبرى لابن الفارض التصريح والحث عليه ، وقد تأول ذلك كثير من أهل العلم وذكروا له وجوهاً من التأويل ، ولكن ظاهر كلامهم منابذ لظاهر كلام أهل الشرع » أ . هـ .

ومن أقوال الحلاج : « أنا الحق » ، وقوله : « ما في الجبة إلا الله » .

ومن أقوال ابن عربي : « العبد رب ، والرب عبد ، فإن قلت عبد فذاك رب ، وإن قلت رب فأنى يكلف !!! » .

فهذا بعض ما عناه الحافظ ، مما يدل على عقيدة الاتحاد عند الصوفية وسقوط التكاليف التي نادى بها بعضهم إلى غير ذلك من تقسيم الدين إلى ظاهر وباطن وحقيقة وشريعة .

رأي شيخ الإسلام ابن تيمية في الولاية والأولياء

لما كان ابن تيمية كثير التشدد في سد ذرائع البدع ، وثقيل القول على من خالف الشرع المتبع ، وغزير الإعتراض على بعض المصنفين المختلط كلامهم بفلسفة المتفلسفين ، ظن البعض أنه ينكر كرامات الأولياء ، وهذا ظن فاسد ، فقد قال في كتابه « الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن » ما نصه :

« فأولياء الله تعالى المتقون هم المهتدون بمحمد ﷺ ، فيفعلون ما أمر به وينتهون عما نُهيَ عنه ، ويقتدون به فيما يبين لهم أن يتبعون فيه ، فيؤيديهم الله تعالى بملائكة وروحٍ منه ، ويقذف الله تعالى في قلوبهم من أنواره ، ولهم الكرامات التي يكرم الله عز وجل بها أولياؤه المتقين ، وخيار أولياء الله تعالى كرامتهم حجة في الدين أو لحاجة في المسلمين مثل ما كانت معجزات نبينا ﷺ كذلك ، وكرامات أولياء الله تعالى إنما حصلت ببركة إتباع رسوله ﷺ فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول ﷺ ، التي جمعت نحو ألف معجزة ، وكرامات أصحابه والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثير جداً :

■ **مثل :** ما كان أُسيد بن حُضير يقرأ سورة الكهف ، فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج وهي الملائكة ، فنزلت تسمع لقراءته وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين ، وكان سلمان وأبو الدرداء يأكلان في صحفة فسبحت الصحفة وسبح ما فيها ، وعباد بن بشر وأُسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة فأضاء لهما طرف السوط ، فلما اقترقا افترق الضوء معهما [1] ، وخرجت أم أيمن مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء فكادت تموت من العطش ، فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة سمعت حساً على رأسها فرفعته فإذا دلو برشاء أبيض معلق فشربت

---

(١) رواه البخاري وغيره .

منه حتى رويت ، وما عطشت بقية عمرها ، وسفينة مولى رسول الله ﷺ أخبر الأسد أنه رسول رسول الله ﷺ ، فمشى معه الأسد حتى أوصله إلى مقصده ، وخالد بن الوليد حاصر حصنًا فقالوا : لا نسلم حتى تشرب السم ، فشربه فلم يضره ، وعمر رضي الله عنه نادى سارية من المنبر والقصة المشهورة .

■ **ومثل ذلك :** ما جرى لأبي مسلم الخولاني الذي أُلقى في النار ، فإنه مشى ومن معه من العسكر على دجلة وهي ترمي بالخشب من مدها ثم التفت إلى أصحابه فقال : « هل تفقدون من متاعكم شيئًا حتى أدعو الله تعالى فيه ؟ » ، فقال بعضهم : فقدت مخلاة ، فقال : اتبعني ، فاتبعه فوجدوها قد تعلقت بشيء فأخذها . . . .

وقد ساق ـ رحمه الله ـ من كرامات الأولياء وأوضح أن الكرامة ضابطها الإستقامة على كتاب الله وعلى سُنَّة رسوله ﷺ ، وأنه لا يغتر بالرجل حتى وإن مشى على الماء أو طار في الهواء ، حتى نعرض عمله على السُّنَّة ، فإن كان موافقًا للشريعة المطهرة فهي كرامة رحمانية وإلا كانت خارقة شيطانية للتلبيس وفتنة الخلق ، قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) ﴾ . [الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢] .

رأي ابن تيمية في التوسل :

قال ـ رحمه الله ـ في كتاب « الإستغاثة » في الرد على ابن السبكي ما نصه :

وأما قول القائل : إن المتوسل إنما هو سائل لله تعالى ، راجٍ له ، عالم أن النفع والضر بيده لا شريك له ، وإنما توسل إليه بمن يحبه الله تعالى لشرف منزلته عنده ، ليكون أقرب إلى الإجابة ، وحصول المراد ، كطلب الدعاء من الرجل الصالح .

فيقال : توسل العبد إلى الله بما يحب ، لفظ مجمل ، فإن أُريد بما يحب الله تعالى أن يتوسل به إليه فهذا حق ، والله تعالى يحب أن يتوسل إليه بالإيمان والعمل الصالح ، والصلاة والسلام على نبيه ﷺ ومحبته وطاعته وموالاته ، فهذه ونحوها هي من الأمور التي يحب الله تعالى أن يتوسل بها إليه ، وإن أُريد أن يتوسل إليه بما يحب

ذاته وإن لم يكن هناك ما يحب الله تعالى أن يتوسل به فهذا باطل عقلاً وشرعًا . . . .

فإن كان منه دعاء لي ، أو كان مني إيمان به وطاعة فلا ريب أن هذه وسيلة ، وأما نفس ذاته المحبوبة لله تعالى فأي وسيلة لي فيها إذا لم يحصل لي السبب الذي أُمرت به فيها ، ولهذا لو توسل به من كربه لم ينفعه ، والمؤمن به ينفعه الإيمان به وهو أعظم الوسائل ، فتبين أن الوسيلة بين العباد وبين ربهم عز وجل الإيمان بالرسل وطاعتهم ، وقول القائل للرجل : ادع لي ، توسل بدعاء الصالحين ، وهو من جملة الأسباب النافعة كشافعة النَّبي ﷺ .

وأما المشروع فيقال : « إن العبادات مبناها على الاتباع لا الابتداع وليس لأحد أن يشرع من الدين ما لم يأذن به الله . . . » وتكلم على الدعاء وما فيه من مشروع وغير مشروع إلى أن قال : « فالسعادة والنجاة في الإعتصام بالكتاب والسُّنَّة واتباع ما شرع والدعاء من أجلِّ العبادات فينبغي للإنسان أن يلتزم الأدعية الشرعية ، كما يتحرى في سائر عبادته الصورة الشرعية ، فإ هذا هو الصراط المستقيم » ، وقال في معرض الرد على ابن السبكي « وأما قوله : إنه يجوز الإستغاثة بالنَّبي ﷺ أو بغيره من الأنبياء والصالحين في كل ما يُستغاث الله عز وجل فيه على معنى أنه وسيلة من وسائل الله تعالى ، فهذا قول لم يقله قبله أحد من علماء المسلمين ولا من الصحابة والتابعين ولا غيرهم ، وقائل هذه العبارة إما مفتر على الدين ، وإما مفترٍ على اللغة ، ملبس على المسلمين ، بل إطلاق القائل القول : بأنه يستغاث بالنَّبي أو الصالح أو غيرهما في كل ما يستغاث الله تعالى فيه ، لا يفهم الناس منه في اللغة التي يعرفونها إلا ما هو كفر صريح ، وقوله : على معنى أنه وسيلة من وسائل الله تعالى ، لا يخرج مدلول هذا اللفظ في اللغة المعروفة عن أن يكون كفرًا، فإن الإستغاثة بالشخص طلب الغوث منه، وبالجملة فإذا كانت الإستغاثة طلب الإغاثة والتخليص من الكربة والشدة ، سواء كان طلب ذلك من المخلوق أو من الخالق، وقد جوز الإستغاثة بمخلوق في كل ما يُستغاث الله تعالى فيه ، فقد لزم أن يطلب من هذا المخلوق كل ما يطلب من الله عز وجل .

وإن قيل : إنه على معنى الوسيلة فهذا لا ينجيه فإنه من جوز أن يطلب من المخلوق كل ما يطلب من الله تعالى فهو كافر بإجماع المسلمين ، بل ما لا يقدر عليه إلا الله لا يجوز طلبه من المخلوق أصلاً بإجماع المسلمين ، ومن طلب من المخلوق غفران الذنوب وهداية القلوب وإنزال المطر وإنبات النبات ، والنصر على الأعداء في الدين ، فهو كافر برب العالمين ، وقد قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) ﴾ [الإسراء : ٥٦ ، ٥٧] .

وقد أوضح - رحمه الله - أنه لا يجوز التوسل بالحرمة والجاه ، كما لا يحل الإستغاثة بالمخلوق بأن يطلب منه ما يطلب من الخالق ، كما لا يحل أن يطلب من الغائب أو الميت ما يطلب من الحي الحاضر ، أما التوسل بأسماء الله وصفاته كقول الرجل يا حي يا قيوم ، والتوسل بدعاء الصالحين بمعنى أن يطلب ممن يتوسم فيهم الصلاح أن يدعوا له ، والتوسل بالعمل الصالح الذي يتوسم فيه الإخلاص كما في قصة الثلاثة الذين دخلوا الغار وأطبقت عليهم الصخرة فإن هذا يجوز ، فراجع كلامه - رحمه الله - في التوسل والوسيلة حتى تفرق بين ما يحل وما يحرم في هذه المسألة .

قوله - رحمه الله - في شد الرحال لزيارة القبور :

لم يحرم شيخ الإسلام زيارة القبور على الوجه المشروع في شيء مما كتبه ، ولم ينه عنها ولم يكرهها بل استحبها وحض عليها ، ومصنفاته ومناسكه طافحة بذكر استحباب زيارة قبر النبي ﷺ كما قال ابن الألوسي ، قال شيخ الإسلام : « وقد ذكر بعض المتأخرين من العلماء أنه لا بأس بالسفر إلا المشاهد واحتجوا بأن النبي ﷺ كان يأتي قباء كل سبت راكبًا وماشيًا ، أخرجاه في الصحيحين ، ولا حجة لهم فيه لأن قباء ليس مشهداً بل مسجداً ، وهي منهي عن السفر إليها باتفاق الأئمة لأن ذلك ليس بسفر مشروع ، بل لو سافر إلى قباء من دويرة أهله لم يجز ، ولكن لو سافر إلى المسجد

النبوي ثم ذهب منه إلى قباء فهذا مستحب كزيارة أهل البقيع وشهداء أُحد » أ .هـ.

وقال ـ رحمه الله ـ : « وأول من وضع الأحاديث في السفر لزيارة المشاهد أهل البدع والرافضة ونحوهم الذين يعطلون المساجد ويعظمون المشاهد ، ويدعون بيوت الله سبحانه التي أمر أن يذكر فيها اسمه ويعبد فيها وحده لا شريك له ، ويعظمون المشاهد التي يشرك فيها ، ويبتدع فيها دين لم ينزل الله به سلطانًا ، فإن الكتاب والسُنَّة إنما فيهما ذكر المساجد لا المشاهد ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : ٢٩] ، وغير ذلك من الآيات والله تعالى أعلم » أ . هـ .

وقال ـ رحمه الله ـ : « ومن اعتقد في السفر لزيارة قبور الأنبياء والصالحين أنه قربة وطاعة فقد خالف الإجماع ، وإذا سافر لاعتقاده أنها طاعة فإن ذلك محرم بإجماع المسلمين ، فصار التحريم من جهة اتخاذه قربة ، ومعلوم أن أحداً لا يسافر إلا لذلك ، وأما إذا قدر أن شد الرحال إليها لغرض مباح ، فهذا جائز من هذا الباب » أ . هـ .

وقال ـ رحمه الله ـ : « وقد يحتج بعض من لا يعرف الحديث بالأحاديث المروية في زيارة قبر النَّبي ﷺ كقوله : « **من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي** » [رواه الدارقطني وابن ماجه] ، وأما ما يذكره بعض الناس من قوله : « من حج فلم يزرني فقد جفاني » ، فهذا لم يروه أحدٌ من العلماء ، وهو مثل قوله : « من زارني ضمنت له الجنة » ، فإن هذا أيضًا باطل باتفاق العلماء ، لم يروه أحد ولم يحتج به أحد ... » إلى أن قال في فتاواه : « وأما الأولون فإنهم يحتجون بما في الصحيحين عن النَّبي ﷺ قال : « **لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدي هذا** » ، وهذا الحديث اتفقت الأُمة على صحته والعمل به ، فلو نذر الرجل أن يصلي في مسجد أو مشهد ويعتكف فيه أو يسافر إلى غير هذه الثلاثة لم يجب عليه ذلك باتفاق الأئمة ، ولو نذر أن يأتي المسجد الحرام لحج أو عمرة وجب عليه ذلك باتفاق العلماء ، ولو نذر أن يأتي مسجد النَّبي ﷺ أو

المسجد الأقصى لصلاة أو اعتكاف ، وجب عليه الوفاء بهذا النذر عند مالك والشافعي وأحمد ، فإنهم يوجبون الوفاء بكل طاعة ، كما ثبت عن النَّبي ﷺ أنه قال : « من نذر أن يُطيع الله فليطعه ... »[رواه البخاري] ، وأما السفر إلى بقعة غير المساجد الثلاثة فلم يوجب أحد من العلماء السفر إليها إذا نذره ، حتى نص بعض العلماء على أنه لا يسافر إلى مسجد قباء ، لأنه ليس من الثلاثة ، مع أن مسجد قباء تستحب زيارته لمن كان بالمدينة لأن ذلك ليس بشد رحل كما في الصحيح : « من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء لا يريد إلا الصلاة فيه كان كعمرة » ، قالوا : ولأن السفر لزيارة قبور الأنبياء والصالحين بدعة لم يفعلها أحد من الصحابة والتابعين ، ولا أمر بها رسول الله ﷺ ، ولا استحبها أحد من الأئمة المسلمين فمن اعتقد ذلك عبادة وفعلها فهذا مخالف للسُّنَّة وإجماع الأمة » أ . هـ .

وهذا النقل يدل على مدى رسوخ قدم شيخ الإسلام ، ومدى معرفته بالنصوص وأقوال أهل العلم ، ما اتفقوا عليه وما اختلفوا فيه ، كما يدلك على مخالفة عُبَّاد القبور ، ومن يشهد الرحال إليها،ولذلك ذهب رحمه الله إلى أن زيارة قبر النَّبي ﷺ ، إنما تأتي تبعًا لزيارة يُسن لمن قدم على مسجده ﷺ أن يصلي فيه أولاً تحية المسجد أو الفريضة إن أدركها ثم يتوجه إلى قبر النَّبي ﷺ للسلام عليه وعلى صاحبيه رضي الله عنهما إذا كان قادمًا من سفره .

هذا من فعل الجاهلية » ، أما الآيات والأحاديث التي استدل بها ابن المطهر الحلي على إمامة عليّ رضي الله عنه وفي مناقب أئمة أهل البيت ، فقد أوضح ابن تيمية أن معظم هذه الروايات إما لا علاقة لها بآل البيت بتاتًا أو أنها تتناقض مع المعنى التي يريد أن يثبتها منها ، كما أن أكثرها ضعيفة وموضوعة ، وقد نسب ابن المطهر كثيراً من هذه الروايات إلى الصحيحين ولا في المسند بل بعضها موضوع ، وقد أثبت تناقضهم في عليّ رضي الله عنه ، حيث جعلوه هو الذي أقام دين الرسول ، ثم قهره الصحابة وبغوا عليه واستلبوا الخلافة منه كما يزعمون .

وفي ذلك يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : « فمن كان مشركًا لله في إقامة دين محمد ﷺ حتى قهر الكفار وأسلم الناس ، وكيف لا يفعل هذا في قهر طائفة بغو عليه هم أقل من الكفار الموجودين عند بعثة الرسول ، وأقل منهم شوكة وأقرب إلى الحق منهم » ، أما الأدلة التي يستدلون بها على إثبات الإمامية عقلاً ونقلاً ، ولا سيما عقيدة الإمام الغائب فقد استهزأ بها وأثبت أن هذه العقيدة لا تثمر سوى الفساد والخلاف والبطالة والتعطيل وتفسير القرآن عند الشيعة هو من جنس تفسير الملاحدة والقرامطة والباطنية، بل هو شر من كثير منه ،كما قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ .

موقف شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - من قضية التأويل

التأويل في كلام السلف له معنيان :

[١] التأويل بمعنى التفسير كما في تفسير الطبري وغيره : « القول في تأويل قوله تعالى كذا » ، أي تفسير الآية .

[٢] الحقيقة التي يصير إليها الشيء كما في قوله تعالى : ﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ ﴾ [يوسف : ١٠٠] ، أي تحقيقها ، وقوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ [الأعراف : ٥٣] ، أي تحقيقه ووقوعه .

أما صرف اللفظ عن ظاهره الراجح إلى احتمال مرجوح لقرينة فهو بهذا المعنى تحريف للكلم عن مواضعه كما قرر شيخ الإسلام ، وقد نفى ابن تيمية سنداً ومتناً دعوى أن الإمام أحمد استثنى ثلاثة أحاديث وقال : لابد من تأويلها ، فهي فرية عليه افتراها الغزالي في كتابه « الإحياء وفيصل التفرقة » ، وقد حمل شيخ الإسلام على الباطنية والرافضة والمعتزلة والأشاعرة وكل من صرف النصوص عن ظواهرها ، واعتقد خلاف ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام فيما يتعلق بمعاني الصفات وغيرها من قضايا الإيمان ، فسبيل التلقي في ذلك هو الكتاب والسُّنَّة على طريقة السلف ، فنؤمن بكل ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من غير تعطيل ولا تحريف ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، وليس العقل وعلم الكلام والفلسفة مصدراً في معرفة ذلك ، ولا يجوز تشبيه الله بخلقه ولا تعطيل صفة من صفاته سبحانه ، قال تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص : ٤] ، وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] ، والكف عن التأويل في هذا الباب [١] ،

---

(١) **التأويل في الصفات كقول البعض** : استوى بمعنى استولى ، واليد بمعنى القدرة ، والنزول بمعنى نزول الأمر !!! .

هو إجماع السلف لا تجوز مخالفته إذ إجماعهم حجة على من بعدهم ، وطريقتهم أسلم وأعلم وأحكم ، والتأويل بدعة وليس من عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة والكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات كما أن إثبات ذات الرب إثبات وجود ، لا إثبات تكييف ، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات تكييف ، والسلف يثبتون الصفة دالة على معناها ، مع تفويض الكيفية إلى الله تعالى ، فتفويض السلف تفويض كيف لا تفويض معنى ، ومن نسب إليهم تفويض المعنى وأن آيات الصفات من المتشابه بمعنى أنه لا يُعلم معناها بالكلية وأن ظاهرها غير مراد فقد جمع بين التعطيل والجهل بعقيدة السلف .

وقد قالت الأشاعرة : إن تأويل آيات الصفات واجب يقتضيه التنزيه ، أما تأويل آيات الحشر والأحكام فهو كُفر يُخرج من الملة ، واعتبروا من أنكر علو الله على خلقه موحد منزه !! ، وأن العقل يقدم على النقل عند التعارض ، بل العقل هو الأصل والنقل إن وافقه قُبِلَ وإن خالفه رُدَّ أو أُوِّلَ ، واعتبروا لله سبع صفات يسمونها « صفات المعاني » ، ولم يكتفوا بهذا التحكم المحض ، بل قالوا : إن له سبع صفات أخرى يسمونها معنوية ، ثم لم يأتوا في التفريق بين المعاني المعنوية بما يستسيغه عقل ، وهذه بعض صور تناقضهم مع أصولهم ومكابرتهم للعقل السليم ، ومن أراد الإستزادة والتفصيل فليرجع إلى التسعينية لشيخ الإسلام ، وقد نقد الحافظ في الفتح الأشاعرة باسمهم الصريح ، وخالفهم فيما هو من خصائص مذهبهم كمسألة الإيمان والمعرفة ، وأوَّل واجب ، ونقد شيخهم في التأويل « ابن فورك » وذم التأويل والمنطق مرجحًا منهج الثلاثة قرون الأولى ... والحافظ أقرب شيء إلى عقيدة مفوضة الحنابلة كأبي يعلى ونحوه ممن ذكرهم شيخ الإسلام في « درء تعارض العقل والنقل » ، ووصفهم بمحبة الآثار والتمسك بها لكنهم وافقوا بعض أصول المتكلمين وتابعوهم ظانين صحتها عن حُسن نية ، وقد كان من الحنابلة من ذهب إلى أبعد من هذا كابن الجوزي وابن عقيل وابن الزاغوني ، ومع ذلك فهؤلاء كانوا أعداء ألداء للأشاعرة ، ولا يجوز

بحال أن يعتبروا أشاعرة .

وقد يكون المتأول مجتهد مخطئًا فيعذر ، وقد يكون متعسفًا فلا يُعذر ، فلابد من الكشف عن حاله وتصحيح فهمه قبل الحكم عليه ، ولهذا كان من مذهب السلف عدم التأول حتى تقام عليه الحجة ، ومثل هذا من أوَّل بعض الصفات عن حُسن نية متأولاً قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، فهو مُأوِّل متأوِّل ولا يُكفَّر ، ولهذا لم يطلق السلف تكفير المخالفين في الصفات أو غيرها ، لأن بعضهم أو كثيرٌ منهم متأولون ، أما الباطنية فلا شك في كفرهم لأن تأويلهم ليس له أي شبهة بل أرادوا هدم الإسلام عمداً ، بدليل أنهم لم يكتفوا بتأويل الأمور الاعتقادية بل أوَّلوا الأحكام العملية كالصلاح والصوم والحج . . .

فمذهب السلف وشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : لا تأويل فيه لنص من النصوص الشرعية إطلاقًا ، ولا يوجد نص واحد لا في الصفات ولا غيرها ، اضطر السلف إلى تأويله ، وكل الآيات والأحاديث التي ذكرها المؤلون تحمل في نفسها ما يدل على المعنى الصحيح الذي فهمه السلف منها ، والذي يدل على تنزيه الله تعالى دون أدني حاجة إلى التأويل .

الموقف من العلماء
الذين قالوا ببعض البدع أو بالأقوال الباطلة

لا يختلف أهل السُّنَّة على عدم ذم من اجتهد فأخطأ كائنًا ما كان خطؤه ، ممن هو معروف بالخير والصلاح كالصحابة ﷺ ، والأئمة الأعلام الأربعة ، وأئمة أهل الحديث ومن سار على نهجهم ولهم في الأُمة الذكر النافع الجميل ، والثناء الحسن ، ولا يستوي عندهم من قضى عمره في العلم النافع والعمل الصالح والدعوة إلى الله الحق ونُصرة السُّنَّة وأهلها وبذل النفوس والأوقات والأموال في سبيل الله ، وتحمل المشاق في سبيل الله ، لا يستوي هؤلاء ومن قضى عمره في الصد عن سبيل الله ومحاربة السُّنَّة ونشر البدعة والانتداب لنصرة الباطل ، والتعصب الممقوت ، كالجهم ابن صفوان ، والجعد بن درهم ، وبشر بن المريسي ، وغيلان القدري ، فهؤلاء عُرِفُوا بالبدعة ، وكونهم من رؤوسها ودعاتها ، ولم يكن لهم في العلم حظ ونصيب ، بل ما حصلوا ما يؤهلهم أن يكونوا من طلابه ، لذا كان وقوعهم في البدعة من جراء تقصيرهم ، ولما ناظرهم العلماء وبينوا لهم الحق كان منهم الإعراض بسبب ترأسهم بغير استحقاق وتصديهم بغير تأهيل ، فكيف يستوون مع من كانت جُل أقوالهم وأعمالهم مطابقة للحق ، فنقول في حق هؤلاء العلماء : « إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث » ، فلابد من إعمال ميزان الحسنات والسيئات، ولابد أيضًا من النظرة المتوازنة، التي ترى الحسنات والسيئات معًا وتزن كل الأقوال بميزان الشريعة وتزن أصحابها بما عندهم من الخير والشر معًا .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « وأهل السُّنَّة متفقون على أن المعروفون بالخير كالصحابة ﷺ ، وغيرهم من أهل الجمل وصفين من الجانبين لا يُفسق أحدًا منهم ؛ فضلاً عن أن يُكفَّر ، وأيضًا فإن السلف أخطأ كثير منهم في كثير من هذه المسائل ، واتفقوا على عدم التكفير بذلك مثل ما أنكر بعض الصحابة أن يكون الميت يسمع

نداء الحي ، وأنكر بعضهم أن يكون المعراج يقظة ، وأنكر بعضهم رؤية محمد ﷺ ربه ، ولبعضهم في الخلافة والتفضيل كلام معروف،وكذلك لبعضهم في قتال بعض ، ولعن بعض ، وإطلاق تكفير بعض أقوال معروفة وكان القاضي شُريح يُنكِرُ قراءة من قرأ : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ [الصافات : ١٢] ، ويقول : إن الله لا يعجب ، فبلغ ذلك إبراهيم النخعي فقال : « إن شُريح شاعر يعجبه علمه ، كان عبد الله أفقه منه فكان يقول : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾ ، فهذا قد أنكر قراءة ثابتة ، وأنكر صفة دل عليها الكتاب والسُّنَّة ، واتفقت الأمة على أنه إمام من الأئمة ، وكذلك بعض السلف أنكر بعضهم حروف من القرآن مثل إنكار بعضهم قوله :﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الرعد : ٣١] ، وقال : إنما هي « أولم يتبين الذين آمنوا » ، وإنكار الآخر قراءة قوله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : ٢٣] ، وقال إنما هي « ووصى ربك » ، وبعضهم كان يحذف المعوذتين ، وآخر يكتب سورة القنوت ، وهذا خطأ معلوم بالإجماع والنقل المتواتر ، ومع هذا فلما لم يكن قد تواتر النقل عندهم بذلك لم يُكفَّروا ، وإن كان يُكفَّر بذلك من قامت عليه الحجة بالنقل المتواتر »[(١)] أ . هـ .

ومن هذا النقل : يتضح لك الموقف من علماء السلف الأفاضل الذين وقعت منهم زلات ، وأنه لابد أن نعرف لهم فضلهم ومنزلتهم وأن نترحم ونترضى عنهم للخير العظيم الذين اشتهروا به وعاشوا وماتوا عليه ، ونعرف خطأ هذه الأقوال - كالتأويل لآيات الصفات والقول بفناء النار - وبدعيتها دون أن يستلزم ذلك تبديع المعين .

ومن خلال هذا النقل وغيره تدرك : مدى غلو صاحب الطريقة العزيمة ومن كان على شاكلته ، ممن نسب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم والشيخ محمد بن عبد الوهاب ، إلى أنهم ثالوث التكفير ، فابن القيم وابن عبد الوهاب على قول شيخ الإسلام ابن تيمية في مسائل الأصول والعقائد وعدم نسبة الشخص المعين إلى تفسيق

---

(١) الفتاوى (١٢ / ٤٩٢-٤٩٣) .

أو تبديع أو تكفير إلا بعد قيام الحجة الرسالية التي يفسق أو يبدع أو يُكفَّر مخالفها، وهذه الحجة يقيمها عالم أو ذو سلطان مُطاع ، بحيث تنفي الشبهات وتدرأ المعاذير ، ويحيىَّ من حيَّ عن بيِّنة ويُهلك من هلك أيضًا عن بيِّنة ، واعتذروا عمن واقع ذلك بأنه احتمال أن يكون قد نشأ ببادية بعيدة ، أو عُرضت له شبهات يعذره الله بها أو كان عنده تأويل يمنع تكفيره ، وأقوالهم كثيرة في هذا المعنى ، فخذها وكن من المنصفين ، واسلك طريق العلماء العالمين الذي علموا الحق وبه كان يعدلون .

الصراع المنهجي العقائدي
« الأيدلوجي »

الصراع مع اليهود في فلسطين صراع عقائدي ، وكذلك ما يحدث بين المسلمين والهندوس في الهند ، وبين المسلمين والملاحدة في الشيشان ، وما يدور في بورما ، وكشمير ، هو من جملة الصراع العقائدي ، وما يحدث بين الأفراد والأحزاب في البلد الواحد : ليبرالية ، وشوعية ، وقومية ، ووطنية ، تشمله دائرة الصراع المنهجي العقائدي ، حتى وإن ظهر صورة دوافع مصلحية وترتب على ذلك استلام المال والبترول ، أو السيطرة على البلاد والعباد ، فنسيان العقائد المحركة وهمٌ وخيال ، وكما قالوا : « السلوك مرآة الفكر » .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ .

[البقرة : ٢٥١] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج : ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ .

[الأنبياء : ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

والآيات في هذا المعنى كثيرة ولا ينبئك مثل خبير ، فإذا انتقلنا إلى دائرة الإسلام وجدنا صورة قريبة مما يحدث من صراع بين طوائف اليهود ، وفرق النصارى - بروتستانت وكاثوليك وأرثوذكس .

يقول رسول الله ﷺ : « إن أهل الكتاب افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملَّة ، وأن هذه الأُمَّة ستفترق على ثلاثة وسبعين مِلَّة - **يعني الأهواء** - كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة »(١) ، ونحن لا نجعل المسلم كالكافر : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦ ﴾ [القلم : ٣٥ ، ٣٦] .

فالكافر يُبغض وإن أعطاك ومنحك ، والمسلم يُحب وإن ظلمك وجار عليك كما يقول ابن تيمية ، والخلاف في النهاية شر كله ، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه ، وقد رأينا كيف انجر الشر والأذى على شيخ الإسلام من مخالفيه من الأشاعرة والصوفية ، حتى حُبِسَ مرات - رحمه الله - بل ومات في سجنه ، فالصراع دائر بين الإيمان والكفر ، والسُّنَّة والبدعة ، والحق والباطل ، في كل عصر ووقت ، والواجب على أهل السُّنَّة أن يكونوا يداً واحدة ، ولكن لقصور من البعض وعجز من البعض الآخر ، كان هذا التفريق ، فالواجب علينا أن نكون على مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ، وأن يسعنا ما وسعهم .

والناظر في واقع الدعوات المعاصرة سيجد أنها متفاوته فيما بينها قربًا ، وبعداً من هذا الضابط والميزان ، فبعضها قريب من أصول الفرق النارية ، وبعضها الآخرة أقرب إلى أصول أهل السُّنَّة والجماعة ، والواجب علينا أن نتعاون مع أقرب الناس إلى الحق وقد بيَّن الشاطبي رحمه الله في الاعتصام ضابط الحكم على تجمع معين أنه من الفرق الضالة فقال : « وذلك أن هذه الفرق إنما تعد فرقًا بخلافها للفرقة الناجية في معنى كلي في الدين وقاعدة من قواعد الشريعة ، لا في جزئية من الجزئيات ، إذا الجزئي والفرعي والشاذ لا ينشأ عنه مخالفة يقع بسببها التفرق شيعًا ، وإنما ينشأ التفرق عند وقوع المخالفة في الأمور الكلية ... إلى قوله : ويجري مجرى القاعدة الكلية كثرة الجزئيات ، فإن المبتدع إذا أكثر من إنشاء الفروع المخترعة عاد ذلك على كثير من

---

(١) رواه أبو داود وصححه الألباني ، وفي رواية الترمذي « قالوا : من هم يا رسول الله ؟ ، قال : « ما أنا عليه وأصحابي » .

الشريعة بالمعارضة »[١] .

إن العمل لدين الله ومحاولة استئناف الحياة الإسلامية ، وفق كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ ، يتطلب إيجاد الشخصية الإسلامية ، التي تُحَسن الاستنان بسُنن الأنبياء والمرسلين ، وعندها من علو الهمة والتربية الإيمانية والبصيرة ما يجعلها تناطح السحاب وتحسن المسير إلى ربها ، وهي صفات توافرت في قلة من البشر ، وشيخ الإسلام ابن تيمية من هؤلاء الأفاضل ، فعلينا بمطالعة سيرته ومنهجه ، وخصوصاً في وقت نعاني فيه معاني الغربة والضياع ، وقد كثرت المستجدات ، وصرنا كاليتيم على موائد اللئام ، والبعض يشكو غياب القيادة الحكيمة الواعية ، فإن لم يكن الأتقياء سادة والفقهاء قادة ، فمن يكون سادة وقادة الخلق بعد الأنبياء والمرسلين ، ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إن التطور الذي ننشده لا ينفصل عن العمل بالكتاب والسُّنَّة ، والتجديد الذي نطلبه ليس معناه الابتداع واستيراد النحل الباطلة والنظم الفاجرة ، وليس معنى التقدم والتحضر أن ننسى ماضي هذه الأمة لو أن ننسلخ عما كان عليه سلفنا الصالح من علم نافع وعمل صالح ، وأن نعلم أن الرجوع للعلماء العالمين في فهم الدين والعمل به ليس تعصبًا على حساب الحق ، وليس بديلاً عن دعوة الإسلام ، ولا أن غيره يصلح بديلاً عنه ، فمن أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر وهم أهل البدع ، كما قال ابن المبارك ـ رحمه الله ـ .

---

(١) الاعتصام (٢/٢٠٠) .

أصول ابن تيمية الفقهية

أولاً : مكانة النص في الاستدلال عند ابن تيمية :

يصح أن يقال عن مدرسة ابن تيمية أنها مدرسة النص ، فهو يدور مع النصوص حيث دارت ، يفتي بموجبها ولا يلتفت إلى ما خالفها ، والنص عنده - رحمه الله - « يراد به تارة : ألفاظ الكتاب والسُّنَّة سواء كان اللفظ دلالته قطعية أو ظاهرة ، وهذا هو المراد من قول من قال : « النصوص تتناول أحكام المكلفين » ، ويراد بالنص ما دلالته قطعية لا تحتمل النقيض كقوله : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة : ١٩٦] ، ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ [الشورى : ١٧] ، فالكتاب هو النص والميزان هو العدل » (١) .

وأكد ابن تيمية أن نصوص الكتاب والسُّنَّة شاملة لعامة أحكام الأفعال ، وأن من طلب ما يفصل في النزاع في عامة مسائل النزاع بين المسلمين من نصوص الكتاب والسُّنَّة وجد ذلك .

ثانياً : علاقة النص بالإجماع :

وانعقاد الإجماع على خلاف النص لا يثبت عنده إلا ومع الإجماع نص ناسخ يعلم منه أنه ناسخ للنص الأول ، والإجماع لا ينص النص ، ويقول ابن تيمية : « ولا يجوز نسخ ما شرعه الرسول ﷺ بإجماع أحد بعده كما يظن طائفة من الغالطين ، بل كل ما أجمع عليه المسلمون فلا يكون إلا موافقًا لما جاء به الرسول لا مخالفًا ، وكل نص منسوخ بإجماع الأمة فمع الأمة النص الناسخ له ، وتحفظ الأمة النص الناسخ كما تحفظ النص المنسوخ ، وحفظ النص الناسخ أهم عندها وأوجب من حفظ النص المنسوخ » .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩ / ٢٨٨) .

وقال ـ رحمه الله ـ : « لكن استقرأنا موارد الإجماع فوجدناها كلها منصوصة ، وكثير من العلماء لم يعلم النص وقد وافق الجماعة » .

وقال ـ رحمه الله ـ : « وأما مسألة مجردة اتفقوا على أنه لا يستدل فيها بنص جلي ولا خفي فهذا ما لا أعرفه » .

وهو يُقدم النص على الإجماع ، فيقول فهذا الإجماع وإن جاز الاحتجاج به فلا يجوز أن تدفع النصوص المعلومة به ، لأن هذا حجة ظنية لا يجزم الإنسان بصحتها ، فإنه لا يجزم بانتفاء المخالف ، وحيث قطع بانتفاء المخالف فالإجماع قطعي ، وأما إذا كان يظن عدمه ولا يقطع به فهو حجة ظنية ، والظن هو أقوى منه ، فمتى كان الظن لدلالة النص أقوى من ظنه بثبوت الإجماع قدم دلالة النص ، ومتى كان ظنه للإجماع أقوى قدم هذا ... » (١) .

وقال ـ رحمه الله ـ : « إن أقوال بعض الأئمة كالفقهاء الأربعة وغيرهم ليست حجة لازمة ، ولا إجماعًا باتفاق المسلمين ، بل قد ثبت أنهم نهوا الناس عن تقليدهم إذا رأوا قولاً في الكتاب والسُّنَّة أقوى مما قالوا به ، بل إنهم أمروا أن يأخذوا بما دل عليه الكتاب والسُّنَّة » (٢) .

ثالثًا : العلاقة بين النص والقياس :

كل قياس خالف دلالة النص فهو قياس فاسد عند ابن تيمية ، والنص عنده مُقدم على القياس .

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : « والقياس الصحيح من باب العدل ، فإنه تسوية بين المتماثلين ، وتفريق بين المختلفين، ودلالة القياس الصحيح توافق دلالة النص، فكل قياس خالف دلالة النص فهو قياس فاسد، ولا يوجد نص يخالف قياسًا صحيحًا، كما لا يوجد معقول صريح يخالف المنقول الصحيح » (٣) .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩ /٢٦٨) .
(٢) مجموع الفتاوى (٢٠ /١٠) .
(٣) مجموع الفتاوى (١٩ /٢٩٨ ، ٢٩٩) .

وهو لا يقبل رد النصوص والأحكام المجمع عليها بالقياس كما يرفض استخدام عبارة : « هذا خلاف القياس » في مواجهة النص والإجماع .

وقال ـ رحمه الله ـ : « وحيث علمنا أن النص جاء بخلاف القياس ، علمنا قطعاً أنه قياس فاسد ، بمعنى أنه صورة النص امتازت عن تلك الصورة التي يظن أنها مثلها بوصف أوجب تخصيص الشارع لها بذلك الحكم ، فليس في الشريعة ما يخالف قياساً صحيحاً ، لكن فيها ما يخالف القياس الفاسد ، وإن كان من الناس من لا يعلم فساده » (١) .

وهكذا فأنت ترى أن ابن تيمية لا يُسلِّم وجود إجماع أو قياس صحيح على خلاف النص ، ولهذا خالف بعض الفقهاء في بعض المسائل كلزوم الطلاق الثلاث ... فالنص « قرآناً وسُنَّة » هو الحق الذي لا باطل فيه ، وذلك بخلاف غيره ، ولذلك قدَّمه على ما سواه في الاستدلال مع إقراره حجية القياس والإجماع الصحيح .

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/٥٠٥) .

رأي شيخ الإسلام في الاستصحاب

الاستصحاب :

يقول شيخ الإسلام في رسالة «المعجزات والكرامات» (ص٢١ عن الاستصحاب) :
« وهو البقاء على الأصل فيما لم يعلم ثبوته وانتفاؤه بالشرع » ، وهو حجة على عدم الاعتقاد بالاتفاق ، وهل هو حجة في اعتقاد العدم ؟ ، فيه قولان » أ . هـ .

فالمجتهد إذا عرضت عليه مسألة ، ولم يجد نصًا من الكتاب أو السُّنَّة أو دليلاً شرعيًا آخر يبين حكمها الشرعي بالإباحة أو التحريم ، كان عليه أن يحكم بالإباحة بناءً على أن الأصل في الأشياء الإباحة إلا ما حرم شرعًا ، وهذه الإباحة هي الحال التي خلق الله عليها ما في الأرض جميعًا ، فما دام لم يقم لديه دليل على تغيير هذه الحال، يجب أن يكون الحكم باقيًا على الإباحة الأصلية ، فالأصل بقاء ما كان على ما كان حتى يثبت ما يغيره ، والإستصحاب في الواقع هو الإستبقاء لدلالة الدليل الذي ثبت به الحكم ، وقد اعترض ابن القيم ـ رحمه الله ـ على من تكلم عن الاستصحاب وحمَّله فوق ما يستحقه ، وجزمهم بموجبه لعدم علمهم بتغير الحال ، مع أنه ليس عدم العلم علمًا بالعدم ، ونقل قول الأكثرين من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم ، إلى أن يصلح لإبقاء الأمر على ما كان عليه لأنه إذا غلب على الظن انتفاء الناقل ـ أي : المغير للحال الأولى ـ غلب على الظن بقاء الأمر على ما كان عليه » أ . هـ[١] .

موقفه ـ رحمه الله ـ من المصالح المرسلة :

المقصود بالمصالح المرسلة أي : التي لا يشهد لها أصل من أصول الشريعة لا بالاعتبار ولا بالإلغاء ، أو بمعنى آخر :

أنها : المصالح التي يرجع معناها إلى اعتبار أمر مناسب لا يشهد له أصل من

---

(١) راجع « أعلام الموقعين عن رب العالمين » ، للإمام ابن قيم الجوزية (١/ ٢٩٤ ، ٢٩٥) .

الشارع معين ، وبالتالي فهي غير مقيدة بنص من الشارع يدعوا إلى اعتبارها أو عدم اعتبارها ، ويكون في اعتبارها مع ذلك جلب ونفع أو دفع ضر ، والمالكية هم أكثر الفقهاء أخذاً بهذا الأصل المختلف فيه من أصول الأحكام الفقهية .

وقد اشترط من أخذ بهذا الأصل ثلاثة شروط لابد من توافرها للعمل به :

[١] أن يكون ذلك في مسائل المعاملات لا العبادات ، لأن العبادات توقيفية تؤخذ دون زيادة أو نقصان ، أما المعاملات فالأصل فيها الإباحة إذا روعيت ضوابطها الكلية مثل : لا ضرر ولا ضرار .

[٢] ألا تعارض هذه المصالح مقصداً من مقاصد الشريعة ، ولا دليل من أدلتها المعروفة .

[٣] أن تكون المصلحة حقيقية ضرورية للمجتمع ، أو أن يكون فيها تحصيل نفع أو دفع ضر حقيقي .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الطريق السابع من طرق الأحكام الشرعية هي المصالح المرسلة ، وهو أن يرى المجتهد أن هذا الفعل يجلب منفعة راجحة وليس في الشرع ما ينفيه ، فهذا الطريق فيه خلاف مشهور، فالفقهاء يسمونها : « المصالح المرسلة » ، ومنهم من يسميه الرأي ، وبعضهم يقرب إليها الإستحسان وقال : « لكن بعض الناس يخص المصالح المرسلة بحفظ النفوس والأموال والأعراض والعقول والأديان ، وليس كذلك ، بل المصالح المرسلة في جلب المنافع ودفع المضار ، وما ذكره من دفع المضار عن هذه الأمور الخمسة فهو أحد القسمين » ، وقال : « وجلب المنفعة يكون في الدنيا وفي الدين ، ففي الدنيا كالمعاملات والأعمال التي يقال فيها مصلحة للخلق من غير حظ شرعي ، وفي الدين ككثير من المعارف والأحوال والعبادات والزهديات التي يقال فيها مصلحة للإنسان من غير منع شرعي ، من قصر المصالح على العقوبات التي فيها دفع الفساد عن تلك الأحوال ليحفظ الجسم ، فقد قصر » ، ودعا إلى التثبت والحيطة في الأخذ بالمصالح فقال : « وهذا فصل عظيم ينبغي

الإهتمام به ، فإنه من جهته حصل في الدين اضطراب عظيم ، وكثير من الأمراء والعلماء العُبَّاد رأوا مصالح فاستعملوها بناءً على هذا الأصل ، وقد يكون منها ما هو محظور في الشرع ولم يعلموه .

وكثير منهم من أهمل مصالح يجب اعتبارها شرعًا ، بناءً على أن الشرع لم يرد بها ، ففوت واجبات ومستحبات ووقع في محظورات ومكروهات ، وقد يكون الشرع ورد بذلك ولم يعلمه .

وحجة الفريق الأول : أن هذه مصلحة والشرع لا يهمل المصالح ، بل قد دل الكتاب والسُّنَّة والإجماع علي اعتبارها .

وحجة الفريق الثاني : أن هذا أمر لم يرد به الشرع نصًا ولا قياسًا .

وقال : والقول الجامع أن الشريعة لا تهمل مصلحة ، بل الله تعالى قد أكمل الدين وأتم النعمة ، فما من شيء يقرب إلى الجنَّة إلا وقد حدثنا به النَّبي ﷺ ، وتركنا على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك ، لكن ما اعتقده العقل مصلحة ، إن كان الشرع لم يرد به فأحد أمرين لازم له : إما أن الشرع دل عليه من حيث لم يعلم هذا الناظر ، وإما أنه ليس بمصلحة واعتقد مصلحة ، لأن المصالح هي المنافع الحاصلة أو الغالبة ، وكثيراً ما يتوهم الناس أن الشيء ينفع في الدين والدنيا ويكون فيه منفعة مرجوحة عن المضرة ،وكما قال تعالى في الخمر والميسر: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) ﴾ [البقرة : ٢١٩] ، وهكذا فأنت ترى من تتبع كلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ أن مرجعه الأول والأخير ، هو كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ .

حثه للتخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل

قال - رحمه الله - في وصف أهل السُّنَّة والجماعة :

« ويأمرون بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء ، والرضا بمر القضاء ، ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ويعتقدون معنى قوله ﷺ : « **أكمل المؤمنين إيمانًا وأحسنهم خُلقًا** » (١) ، ويندبون إلى أن تصل من قطعك، وتُعطي من رحمك ، وتعفوا عن من ظلمك ، ويأمرون ببر الوالدين وصلة الأرحام ، وحُسن الجوار ، والإحسان إلى الأيتام والمساكين وابن السبيل ، والرفق بالمملوك ، وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي ، والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق ، ويأمرون بمعالي الأخلاق ، وينهون عن سفاسفها ، وكل ما يقولونه ويفعلونه من هذا أو غيره ، فإنما هم متبعون الكتاب والسُّنَّة ، وطريقتهم هي دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ ، لكن لما أخبر ﷺ أن أُمَّته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النَّار إلا واحدة وهي الجماعة ، وفي حديث عنه ﷺ : « **هم من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي** » (٢) ، صار المستمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوب هم أهل السُّنَّة والجماعة ، وفيهم الصدِّيقون والشهداء والصالحون ، ومنهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى أولوا المناقب المأثورة ، والفضائل المذكورة ، وفيهم الأبدال ، ومنهم الأئمة الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ، وهم الطائفة المنصورة التي قال فيهم النَّبي ﷺ : « **لا تزال طائفة من أُمَّتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة** » (٣) .

فنسأل الله العظيم ، أن يجعلنا منهم ، وألا يُزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) صحيح ، رواه أبو هريرة رضي الله عنه وأخرجه الترمذي وابن حبان .

(٢) رواه أبو داود وصححه الألباني .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

رأيه شيخ الإسلام - رحمه الله - في تكفير المعين

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - :

« وأهل السُّنَّة متفقون على أن المعروفين بالخير كالصحابة المعروفين وغيرهم من أهل الجمل وصفين من الجانبين لا يفسِّق أحد منهم فضلاً عن أن يُكفَّر ، وأيضًا فإن السلف أخطأ كثيراً منهم في كثير من هذه المسائل ، واتفقوا على عدم التكفير بذلك »، وذكر الأخطاء إلى أن قال : « وهذا خطأ معلوم بالإجماع والنقل المتواتر ومع هذا فلما لم يكن قد تواتر النقل عندهم بذلك لم يكفروا ، وإن كان يُكفَّر بذلك من قامت عليه الحجة بالنقل المتواتر » أ . هـ (١) .

وقال - رحمه الله - : « قد ثبت بالكتاب والسُّنَّة والإجماع أن من الخطأ في الدين ما لا يكفر مخالفه بل لا يُفسَّق ولا يأثم » (٢) .

قال ابن تيمية - رحمه الله - : « ومما ينبغي أن يُعلم في هذا الموضوع أن الشريعة قد تأمرنا بإقامة الحد على شخص في الدنيا إما بقتل أو جلد أو غير ذلك ، ويكون في الآخرة غير معذب مثل قتال البغاة والمتأولين مع بقائهم على العدالة ، ومثل إقامة الحد على من تاب بعد القدرة عليه توبة صحيحة فإنا نقيم الحد عليه مع ذلك ، كما أقامه النَّبي ﷺ على ماعز بن مالك ، وعلى الغامدية مع قوله : « **لقد تابت توبة لو تابها صاحب مُكس لَغُفرَ له** » (٣) ، ومثل إقامة الحد على من شرب النبيذ المتنازع فيه متأولاً مع العلم بأنه باق على العدالة بخلاف من لا تأويل له » (٤) .

---

(١) الفتاوى (١٢/٤٩٢،٤٩٣) .
(٢) الفتاوى (١٢/٢٩٥) .
(٣) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٢٣٨) .
(٤) الفتاوى (١٢/٤٩٨) .

تنبيه هم جداً يتعلق بتكفير المعين :

قد يكون القول كفرًا أو يطلق القول بتكفير قائله ، فيقال من فعل كذا فهو كافر ومن قال كذا فهو كافر ، أما الشخص المعين فلا يكفَّر حتى تقام عليه الحجة الرسالية، بحيث تنتفي الشبهات وتدرأ المعاذير ، وهذه الحجة يقيمها عالم أو ذو سلطان مطاع، فلعل هذا الشخص حديث عهد بالإسلام أو نشأ ببادية بعيدة أو عرضت له شبهات يعذره الله بها أو عنده تأويل يمنع تكفيره كما قال النووي ، وابن تيمية وغيرهم من العلماء ، وإذ كانت الحدود تدرأ بالشبهات كما في قصة النوبيه التي زنت مع مرعوش بدرهمين ولم يقم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الحد عليها لما رآها تستهل بزناها وقال له عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « ليس الحد إلا على من علم » أقول إذا كان الأمر كذلك فأولى ثم أولى أن نحتاط في أمر التكفير وخصوصًا مع غربة الحال وانحراف الأوضاع .

وقد كان الإمام أحمد يقول لقضاة وعلماء الجهمية: « أنا لو قلت قولكم لكفرت ، ولكني لا أكفركم لأنكم عندي جُهال » ، وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ يقول : « أنا لو رأيت الرجل يسجد عند قبر عبد القادر الجيلاني أو السيد البدوي لم أكفِّره حتى تُقام عليه الحجة الرسالية ، التي يكفر مخالفها » ، إن الناس قد ورثوا الإسلام وجهلوا معانيه ولم تقم عليهم الحجة الرسالية قيامًا يتأكد معه أن يحيى من حيي عن بينه وأن يُهلك من هلك أيضًا عن بينة ، ثم المعلوم من الدين ضرورة يتفاوت زمانًا ومكانًا وشخصًا ، ولذلك لابد من حيطة وحذر ، فمن قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كذلك ، وإلا حار عليه كما جاء في الحديث الصحيح ، وقد كان مالك رحمه الله يقول : « لو احتمل المرء الكفر من تسعة وتسعين وجهًا ، واحتمل الإيمان من وجه، لحملته على الإيمان تحسينًا للظن بالمسلم» .

التفسير عند شيخ الإسلام ابن تيمية
- رحمه الله -

ذكر الحافظ ابن عبد الهادي في العقود الدرية : أن شيخ الإسلام كتب نقول السلف مجردة عن الإستدلال على جميع القرآن، وكتب في أوله قطعة كبيرة بالإستدلال ، وكان يفسر سور وآيات ويقول في بعضها : « كتبته للتذكرة » ونحو ذلك ، ثم طلب منه أن يكتب في جميع القرآن تفسيراً مرتباً على السور ، كتب يقول : « إن القرآن فيه ما هو بيِّن بنفيه ، وفيه ما قد بينه المفسرون في غير كتاب ، ولكن بعض الآيات أُشكل تفسيرها على جماعة من العلماء ، فربما يطالع الإنسن عليها عدة كتب ولا يتبين له تفسيرها ، وربما كتب المصنف الواحد في آية تفسيراً ويفسر غيره بنظيره ، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل ، لأنه أهم من غيره ، وإذا تبين معنى آية تبين معنى نظائرها » .

وقال - رحمه الله - : « قد فتح الله عليَّ في هذه المرة - أي : من مرات الحبس - من معاني القرآن وأصول العلم بأشياء كان كثيراً من العلماء يتمنونها ، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن أو نحو هذا » ، وقد كتب شيخ الإسلام مقدمة قيمة في أصول التفسير ومن طالع مجموع الفتاوى وغيره من كتبه ، وجد الكثير من تفسير الآيات الكريمة ومعانيها .

وقد أوضح شيخ الإسلام مبلغ عناية الصحابة والتابعين بمعاني القرآن وأن الرسول ﷺ بيَّن لهم هذه المعاني كما بلغهم ألفاظه ونصه الكريم ، فإن قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤] ، يتناول هذا وهذا ، وكانت طريقتهم في تعلم القرآن هي السبب في بلوغهم درجة معرفة معانيه ، فقد قال أبو عبد الرحمن السُلَّمي : « حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ، كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود وغيرها ، وأنهم كانوا إذا تعلموا من النَّبي ﷺ عشر آيات لم

يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، وقالوا : فتعلمنا القرآن العلم والعمل جميعًا ، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة .

أصوله في التفسير :

[١] تفسير القرآن بالقرآن،وهي أحسن طرق التفسير وأعلاها مرتبة، فإن ما أُجمِلَ في مكان قد فُسِّرَ في موضع آخر،وما أُختصِرَ في مكان قد بُسِطَ في موضع آخر.

[٢] تفسير القرآن بالسُّنَّة ، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له ، قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤] ، ولهذا قال الرسول ﷺ : « ألا إني أُوتيت القرآن ومثله معه » (١) ، يعني السُّنَّة .

[٣] المرتبة الثالثة وهي تفسير القرآن بأقوال الصحابة ، لما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح ، لا سيما علماؤهم وكبرائهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديين ، ومنهم عبد الله بن مسعود والحبر البحر عبد الله بن عباس .

[٤] بعد مرتبة تفسير القرآن بالقرآن أو السُّنَّة أو أقوال الصحابة ، تجيء مرتبة تفسره بأقوال التابعين ، قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ قال شعبة بن الحجاج وغيره : أقوال التابعين ليست بحجة ، فكيف تكون حجة في التفسير ؟ ، يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم وهذا صحيح ، وأما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة ، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا من بعدهم ، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السُّنَّة أو عموم لفظ العرب ، وأقوال الصحابة في ذلك » (٢) .

وقال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :

« أعلم النَّاس بالتفسير أهل مكة أصحاب ابن عباس ، كمجاهد ، وعطاء بن أبي رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وطاووس ، وغيرهم ، وفي الكوفة

---

(١) رواه الترمذي وهو صحيح .

(٢) مقدمة أصول التفسير (٢٨/٢٩) .

أصحاب ابن مسعود ، وفي المدينة زيد بن أسلم الذي أخذ عنه ابن عبد الرحمن بن زيد ، ومالك بن أنس ، ومن أصحاب ابن مسعود ، علقمة ، والأسود بن يزيد ، وإبراهيم النخعي ، والشعبي ، ومن هذه الطبقة : الحسن البصري ، وعطاء بن أبي أسلم الخُراساني ، ومحمد بن كعب القرظي ، وأبو العالية رفيع بن مهران الرياحي ، والضحاك بن مزاحم ، وعطية بن سعد العوفي ، وقتادة بن دعامة السدوسي ، والربيع بن أنس ، والسدي ، فهؤلاء قدماء المفسرين من التابعين ، وغالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة رضي الله عنهم ، وقد ذكر شيخ الإسلام آثاراً صحيحة تدل على تحرج أئمة السلف الكرام عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به ، فأما من يتكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعًا فلا حرج عليه ، ولهذا رُوى عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ، ولا منافاة ، لأنهم تكلموا فيما علموه ، وسكتوا عما جهلوه ، وهذا هو الواجب على كل أحد .

وقد حمل حملة شديدة على تفاسير المعتزلة والشيعة والرافضة والفلاسفة ومن إليهم من أهل الفرق الأخرى المبتدعة ، وعلى الطرق التي اتبعوها في التفسير .

قال ـ رحمه الله ـ : « فإن من هؤلاء قومًا اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها ، ومنهم قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب ، من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن ، والمنزَّل عليه والمخاطب به ، ومن ثمَّ كان خطؤهم وضلالهم جميعًا في كثير مما ذهبوا إليه » .

قال ـ رحمه الله ـ : « وفي الجملة من عدل عن مذهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئًا في ذلك بل مبتدعًا . . . فمن خالف قولهم وفسَّر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعًا » .

وذكر أن من أعظم أسباب الاختلاف في التفسير والبدع الباطلة التي دعت أهلها إلى أن حرفوا الكَلِمَ عن مواضعه ، وفسروا كلام الله ورسوله بغير ما أُريد به ، وتأولوه على غير تأويله .

السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية

تكلم شيخ الإسلام عن آية الأمراء في كتاب الله وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) ﴾ [النساء : ٥٨ ، ٥٩] .

قال العلماء : نزلت الآية الأولى في ولاة الأمور ، عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل ، ونزلت الثانية في الرعية من الجيوش وغيرهم ، إلا أن يأمروا بمعصية الله ، فإن أمروا بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، فإن تنازعوا في شيء ردوه إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ، وإن لم تفعل ولاة الأمر ذلك أطيعوا فيما يأمرون به من طاعة الله ، لأن ذلك من طاعة الله ورسوله ، وأديت حقوقهم إليهم كما أمر الله ورسوله ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة : ٢] .

وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها ، والحكم بالعدل ، فهذا جماع السياسة العادلة والولاية ، وقد ألَّف شيخ الإسلام رسالته القيِّمة : « **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية** » [١] ، وقال عنها : « فهذه رسالة مختصرة فيها جوامع من السياسة الإلهية والإنابة النبوية ، ولا يستغنى عنها الراعي ولا الرعية ، اقتضاها من أوجب الله نصحه من ولاة الأمور ، كما قال النَّبي ﷺ فيما ثبت عنه من غير وجه : « إن الله يرضى لكم ثلاثة : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » [٢] .

---

(١) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ، من مطبوعات دار الإيمان ، الإسكندرية .

(٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وقد ذكر في الرسالة ، الحدود والحقوق ، وواجب الولاة نحوها ، وتكلم على أصناف الأموال وصور الظلم الواقع من الولاة والرعية ، وبيانه لاستعمال الأصلح ، وقال : « فيجب على كل من ولي شيئًا من أمر المسلمين من هؤلاء وغيرهم أن يستعمل فيما تحت يده في كل موضع ، أصلح من يقدر عليه ، ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية أو يسبق في الطلب ، بل ذلك سبب المنع ، فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره ؛ لأجل قرابة بينهما أو ولاء عتاقة أو صداقة ، أو موافقة في بلد أو مذهب أو طريق أو جنس ، كالعربية والفارسية والرومية ، والتزكية ، أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة ، أو غير ذلك من الأسباب أو لضغن في قلبه على الأحق أو عداوة بينهما ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ، ودخل فيما نهي عنه في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) ﴾ [الأنفال : ٢٧] .

كما تكلم عن اختيار الأمثل فالأمثل ، وأظهر قلة اجتماع الأمانة والقوة في الناس فقال ـ رحمه الله ـ : اجتماع القوة والأمانة في الناس قليل ، ولهذا كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول : « اللهم أشكو إليك جلد الفاجر ، وعجز الثقة » ، فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها ، فإذا تعين رجلاً أحدهما أعظم أمانة ، والآخر أعظم قوة ، قُدِّم أنفعهما لتلك الولاية ، وأقلهما ضرراً فيها فتقدم في إمارة الحرب الرجل القوي الشجاع وإن كان فيه فجور فيها ، وعلى الرجل الضعيف العاجز وإن كان أمينًا . . » أ . هـ.

وفي بيان معرفة الأصلح قال : « وذلك إنما يتم بمعرفة مقصود الولاية ، ومعرفة طريق المقصود ، فإذا عرفت المقاصد والوسائل تم الأمر ، فلهذا لما غلب على أكثر الملوك قصد الدنيا ، دون الدين ، قدَّموا في ولايتهم من يعينوهم على تلك المقاصد ، وكان من يطلب رئاسة نفسه يؤثر تقديم من يقدم رئاسته ، وقد كانت السُّنَّة أن الذي يصلي بالمسلمين الجمعة والجماعة ويخطب بهم ، هم أمراء الحرب ، الذين هم نواب ذي السلطان على الجند ، ولهذا لما قدَّم النَّبي ﷺ أبا بكر في الصلاة ، وقدَّمه

المسلمون في إمارة الحرب وغيرها ... » . أ . هـ .

وما نقلناه من الرسالة يدلك على قمة موضوعها وخصوصاً قد جاءت في موضوع كثُر فيه الخوض والشغب حتى وصل الحال إلى فصل الدين عن الدولة ، والأرض عن السماء ، والدنيا عن الآخرة ، مما استحكمت به معاني الغربة ، كما تدل الرسالة الأخرى على سعة علم شيخ الإسلام وفقهه ، ولذلك قال فيه الزملكاني وكان معاصراً له : « واجتمعت فيه شروط الاجتهاد على وجهها » ، وقال الحافظ أبو الحجاج المزي : « ما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسُنَّة رسوله ، ولا أتبع لهما منه » ، وقال عنه الذهبي في معجم شيوخه : « وفاق النَّاس في معرفة الفقه ، واختلاف المذاهب ، وفتاوى الصحابة والتابعين ، بحيث إذا أفتى لم يلتزم بمذهب ، بل بما يقوم دليله عنده » .

رأيه - رحمه الله - في اتخاذ الإمارة :

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : « يجب أن يعرف أن ولاية أمر النَّاس من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالإجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ، ولابد لهم عند الإجتماع من رأس ، حتى قال النَّبي ﷺ : « **إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمِّروا أحدهم** »[رواه أبو داود من حديث أبي سعيد وأبي هريرة] .

وروى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو أن النَّبي ﷺ قال : « **لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمَّروا أحدهم عليهم** » ، فأوجب النَّبي ﷺ تأمير الواحد في الإجتماع العارض القليل في السفر تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الإجتماع، ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة ، وكذلك سائر ما أوجبه الله من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة .

فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله ، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات ، وإنما يفسد فيها حال أكثر النَّاس لابتغاء

الرياسة أو المال بها ، وقد روى كعب بن مالك عن النَّبي ﷺ أنه قال : « **ما ذئبان جائعان أُرسلاَ في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه** » ، قال الترمذي : حديث حسن صحيح ، فأخبر أن حرص المرء على المال والرياسة يفسد دينه مثل أو أكثر من فساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم »[1] .

الاجتماع والإئتلاف من أصول هذه الدعوة المباركة :

تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية في خلاف الأُمَّة في العبادات ومذاهب أهل السُّنَّة والجماعة ، وذكر أنواع الفساد الذي حصل بسبب هذا الخلاف والتنازع كالجهل والظلم واتباع الظن وما تهوى الأنفس ، إلى أن قال :

قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦)** ﴾ [آل عمران : ١٠٢ – ١٠٦] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ أهل السُّنَّة والجماعة ، ﴿ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ أهل البدعة والفُرقة » ، وكثير من هؤلاء يصير من أهل البدعة بخروجه عن السُّنَّة التي شرعها ورسول الله ﷺ لأُمَّته ، ومن أهل الفُرقة بالمخالفة للجماعة التي أمر الله بها ورسوله .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ** ﴾ .

[الأنعام : ١٥٩] .

---

(١) الفتاوى (٢٨ / ٣٩٠ – ٣٩٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

وقال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ [الأنفال : ١] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ الحجرات : ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ .

[النساء : ١١٤] .

وهذا الأصل العظيم وهو الاعتصام بحبل الله جميعًا ، وأن لا نتفرق هو من أعظم أصول الإسلام ، ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه ، ومما عظمت به وصية النَّبي ﷺ في مواطن عامة وخاصة، مثل قوله: «عليكم بالجماعة فإن يد الله مع الجماعة » (١) ، وقوله : « فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد » (٢) ، وباب الفساد الذي وقع في هذه الأُمَّة بل وفي غيرها من التفرق بين أمرائها وعلمائها ، من ملوكها ومشايخها وغيرهم من ذلك ما الله به عليم ، وإن كان بعض ذلك مغفوراً لصاحبه لاجتهاده الذي يغفر فيه خطؤه أو لحسناته الماحية أو توبته أو لغير ذلك ، لكن يعلم أن رعايته من أعظم أصول الإسلام ، ولهذا كان امتياز أهل الجنَّة « أهل السُّنَّة والجماعة » عن أهل العذاب من هذا الأُمَّة ويذكرون في كثير من السُنن والآثار في ذلك ما يطول ذكره ، وكان الأصل الثالث بعد الكتاب والسُّنَّة الذي يجب تقدم العمل به هو الإجماع ، فإن الله لا يجمع هذه الأُمَّة على ضلالة .

وقال ـ رحمه الله ـ في توحيد الملة وتعدد الشرائع وتنوعها :

« إذا كان الله تعالى قد أمرنا بطاعته وطاعة رسوله وأولي الأمر منا ، وأُمرنا عند التنازع في شيء أن نرده إلى الله ورسوله ، وأُمرنا بالاجتماع والإئتلاف ونهانا عن

---

(١) ،(٢) رواهما الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، وهو عند أحمد والنسائي بلفظه .

التفرق والاختلاف ، وأمرنا أن نستغفر لمن سبقنا بالإيمان وسمَّانا المسلمين ، وأمرنا أن ندوم عليه إلى الممات ، فهذه النصوص وما كان في معناها توجب علينا الاجتماع في الدين ، كاجتماع الأنبياء قبلنا في الدين ، وولاة الأمور فينا هم خلفاء الرسول ... » .

إلى أن قال : « فالأصول الثابتة بالكتاب والسُّنَّة والإجماع هي بمنزلة الدين المشترك بين الأنبياء ليس لأحد خروج عنها ، ومن دخل فيها كان من أهل الإسلام المحض وهم أهل السُّنَّة والجماعة ، وما تنوعوا فيه من الأعمال والأقوال المشروعة فهو بمنزلة ما تنوعت فيه الأنبياء » أ . هـ .

الديمقراطية والدولة المدنية وأخذ الآراء لتطبيق الشريعة سفاهات وتفاهات

لقد خرج الملاحدة والزنادقة ، ومن لا عقل عنده ولا بصيرة لديه ، ويطعنون في دين الله ، ويطالبون المسلمين بإبراز شمولية الدين لجوانب الحياة ومنهجه في الاقتصاد والسياسة ، وخصوصاً وقد تطورت الدنيا بزعمهم وتحضرت !!! ؛ وصرنا في القرن العشرين، ورددوا المقولات الفاجرة مثل: « لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين » ، « والدين لله والوطن للجميع » ، « ودع ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، ومقولة : « الدين علاقة بين المرء وربه » أي : إن كان ولابد من تدين فليكن في إطار محدود داخل حيز المسجد ، وسعوا جاهدين في قمع شعائر الدين الظاهرة وكان لابد لهم من بديل لدين الله ، فنادوا بالديمقراطية والتي هي حكم الشعب نفسه بنفسه لنفسه .

وقالوا : « لابد أن تكون صبغة الدولة صبغة مدنية لا دينية ، وانتقلوا من مرحلة أخذ الآراء لتطبيق الشرع - وهذا لا يحل في دين الله - إلى وصف المتدينين المطالبين بالرجوع إلى دين الله بأنهم رجعيون متزمتون متطرفون متخلفون أصحاب الفكر الظلامي ، وبأنهم بحاجة إلى التنوير، ووجدوا فيمن تتلمذ على موائد الشرق والغرب وجحد دينه أو جهله ، من يؤدي هذا الدور ويقوم بهذه المهمة ، وقد استخدموا في هذه المواجهة كل الوسائل ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف : ٨] ، وقد انتقلوا في حملتهم الشعواء من الإجمال إلى التفصيل فصار البعض ينادي بسفر المرأة بلا مُحْرِم وبدون إذن الزوج ، وتولية المرأة منصب القضاء ، ومنع ختان البنات ، وركزوا دعوتهم على المرأة بصفة خاصة لأمر لا يخفى على أحد ، إذ أن هدم المرأة سهل يسير ، وخصوصاً ومظاهر التحلل قد أصابتها في مقتل ، هذا بالإضافة إلى أن هدمها هدم للأمة بأسرها ، والنصوص والواقع يدلك على ذلك ، ومن طالع كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ومنهجه ودعوته سيجد رداً بليغاً

على هذه الإنحرافات التي راجت على ضعاف البصر والبصيرة ، والتي روج لها أعداء الأُمَّة ، فالإسلام صالح لكل زمان ومكان ، ولا يجوز فصل الدين عن السياسة ، وإذ أن السياسة من دين الأنبياء ، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبي ﷺ أنه قال : « كان بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي ، وأنه لا نبي بعدي ، وسيكون خلفاء ويكثرون » ، قالوا : فما تأمرنا ؟ ، قال : « أوفوا ببيعة الأول فالأول ، ثم أعطوهم حقهم ، فإن الله سائلهم عما استرعاهم »(١) .

إن السياسة إن لم تقم على أساس من الحق والعدل وإخلاص الأمر لله ، كانت صورة من الغش والكذب والنفاق ، وفي الحديث : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم » ، **وذكر منهم** « ملكًا كذابًا »(٢) .

يقول مقبل بن هادي الوادعي -رحمه الله- في تقديمه لرسالة « السياسية الشرعية »:

« حقًا أنه لا يصلحنا نحن وحكامنا إلا السياسة الشرعية ، فالسياسة الشرعية تنهى عن الانقلابات على الحاكم المسلم ، يقول رسول الله ﷺ : « من آتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أويفرق جماعتكم فاقتلوه »(٣) .

السياسة الشرعية : توجب أن يكون للمسلمين حاكم واحد قرشي ، لحديث : « الأئمة من قريش »(٤) .

السياسية الشرعية : تحرِّم على الحاكم أن يتصرف في مال الفرد ، سواء كان بضرائب أو جمارك وغيرهما مما أضعفت الشعوب أم بغير ذلك .

السياسية الشرعية : توجب على الحاكم أن يتفقد أحوال رعيته ، فرب دعوة من مظلوم تكون سببًا لزوال ملكه، بل لهلاك شعب، والرسول ﷺ يقول لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب »(٥) .

يتفقد أحوال التجار والمزارعين ، أما العلماء فالواجب أن يكونوا جلساءه ، فإن

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه مسلم عن عرفجة .
(٤) متفق عليه .
(٥) رواه البخاري (١٣٩٥/١٤٥٨) ، ومسلم (١٩) .

المرء على دين خليله كما في الحديث ، وبسبب إعراض الراعي والرعية عن السياسية الشرعية ، أصبحت الرعايا متربصة بالحاكم ، والحاكم متربص ببعض الرعايا الذين يخاف منهم بل أصبح حكامنا في سجن ، وأصبحت الرعايا في سجن ، أما الحاكم فأصبح مذعوراً من الإنقلابات ، وأما الرعية فأصبحوا لا يأمنون مكر الحكومات ، ولو رجعنا إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ لا من حكامنا من الرعايا وآمنت الرعايا من الحكام يقول : « خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشر أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم » (١) .

هذه الإضطرابات سببها عدم التقيد بالسياسة الشرعية كما يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) ﴾ .

[المائدة : ١٤] .

إن الناس إن لم يجمعهم الحق فرَّقهم الباطل، وإن لم توحدهم عبادة الله مزقتهم عبادة الشيطان،وإن لم يستهوهم نعيم الآخرة تناطحوا وتقاطعوا بسبب متاع الدنيا الزائلة .

﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ :

إن الديمقراطية دين عند أهلها، وهي شيء والإسلام شيء آخر، وكذلك الأمر بالنسبة للاشتراكية وغيرها ، وما من نظام إلا وله عقيدة تحرسه وتحميه ، وشأن المسلم سواء كان حاكمًا أو محكومًا أن يصدر في أقواله وأفعاله وسائر نواحي حياته سياسية أو اقتصادية اجتماعية أو أخلاقية في الحرب أو في السلم ، في المنزل أو في السوق ، في تعامله مع الأصدقاء والأعداء . . . أن يصدر في ذلك كله وغيره عن كتاب الله وعن سُنَّة رسوله ﷺ ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾ .

[النساء : ٦٥] .

---

(١) رواه مسلم .

■ وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦) ﴾ .

[الأحزاب : ٣٦] .

■ وقال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

■ وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾ [الأنعام ١٦٢ ، ١٦٣] .

■ وقال تعالى : ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

■ وقال تعالى : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك : ١٤].

■ وقال تعالى : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٤٠] .

■ وقال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] .

■ وقد سمى سبحانه المعرضين عن شرعه كافرين، فقال: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، ووصمهم بالنفاق فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) ﴾

[النساء : ٦٠ ، ٦١] .

ودعاة الديمقراطية وغيرها من النحل المارقة والنظم الوضعية واهمون عندما يظنون أنهم سيحققون جنَّة موعودة على ظهر الأرض ، وأنهم بذلك سيسعدون ، فالحياة بغير الله سراب ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا

جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ .

[النور : ٣٩] .

إن السعادة كل السعادة في الاستقامة على شرع الله ، والاستقامة هي أعظم كرامة كما يقول ابن تيمية ، ولذلك اعتمد ـ رحمه الله ـ على النصوص الشرعية ، فلم يقدم عليها قياسًا ولا ما يتوهمه البعض إجماعًا ، فكيف ساغ للبعض أن يُقدِّم أهواء البشر وزبالات الأذهان على دين الله ؟! ، وهل يجوز أن يعرض شرع الله على آراء البشر ، أيقبلونه أم يرفضونه ، أيطبقونه أم يضعونه في الأدراج ؟! ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٩] ، وهل يحل أن نسأل الراقصة والمغنية والممثل والصحفي ، في مسألة ختان البنات ؛ أو سفر المرأة بدون محرم ؛ أو خروجها بدون إذن الزوج ؟!! ، هل نحن بذلك نريد أن نخرج بنتيجة جماهيرية ، وحتى يكون رأي الأغلبية هو الفيصل في المسائل الشرعية ، وتكون الديمقراطية حكمًا على الدين وسيفًا مسلطًا عليه ؟! .

لقد ذكر العلماء : أن فتوى المفتي وقضاء القاضي وحكم الحاكم لايجعل الحرام حلالاً ، ولا الحلال حرامًا ، فكيف بكلام الراقصة والمغنية والممثل والصحفي ؟!!! . . .

فيا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به ، دعوا الأهواء والآراء وتأدبوا مع دين الله ، واستقيموا يرحمكم الله ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [آل عمران : ١٩] .

- وقال : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] .
- وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) ﴾ [الأنبياء : ١٠٨] .

لأمثال هؤلاء نقول : ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة : ٦١]، لقد فعلوا عندما أحلُّوا النُّظم الوضعية والقوانين المارقة محل شرع الله، وفعلوا ذلك أيضًا عندما تركوا الرجوع لعلماء الأُمَّة المعتبرين كشيخ الإسلام ابن

تيمية ، وذهبوا يستقون أحكامهم من الراقصة والمغنية والممثل ... ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الإسراء : ٧٥] .

■ وقال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الملك : ٢٢] .

■ من المقرر عند المسلمين أن نرد موارد النزاع للكتاب والسُّنَّة ، قال تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩] ، فيجب أن نراجع العلماء الربانيين في فهم شرع الله ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : ٨٣] ، والعلماء هم ورثة الأنبياء ، ومن خيار أولياء الله وهم أيضًا العدول من هذه الأُمَّة ، وينفون عن دين الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، ومن رحمة الله أن آثار العلماء ما زالت باقية تدل على سعة علمهم بالشرع وبالواقع ، ومن جملة هؤلاء العالم الرباني شيخ الإسلام ابن تيمية .

العمل بالحديث وترك المذاهب إذا خالفه :

وقد سُئل تقي الدين بن تيمية عن: رجل تفقه في مذهب من المذاهب وتبصر فيه واشتغل بعده بالحديث ، فوجد أحاديث صحيحة لا يعلم لها ناسخًا ولا مخصصًا ، ولا معارضًا ، وذلك المذهب فيه ما يخالف تلك الأحاديث ، فهل له العمل بالمذهب ؟ أو يجب عليه الرجوع إلى العمل بالحديث ومخالفة مذهبه ؟ .

فأجاب ـ رحمه الله ـ : « الحمد لله رب العالمين ، قد ثبت في الكتاب والسُّنَّة والإجماع أن الله تعالى افترض على العباد طاعته وطاعة رسوله ﷺ ، ولم يوجب على هذه الأُمَّة طاعة أحد بعينه في كل ما أمر به ونهى عنه إلا رسول الله ﷺ ، حتى كان صدِّيق الأُمَّة إن أنا عصيت الله عز وجل فلا طاعة لي عليكم ، واتفق كلهم على أنه ليس أحد معصومًا في كل ما أمر الله تعالى به ونهى عنه إلا رسول الله ﷺ ، ولهذا قال

غير واحد من الأئمة : « كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله ﷺ ، وهؤلاء الأئمة الأربعة - رحمهم الله تعالى أجمعين - قد نهوا النَّاس أجمعين عن تقليدهم في كل ما يقولونه وذلك هو الواجب ، قال الإمام أبو حنيفة : « هذا رأيي ، وهذا أحسن ما رأيت ، فمن جاء برأي خير منه قبلناه ، ولهذا لما اجتمع أفضل أصحابه أبو يوسف بإمام دار الهجرة مالك بن أنس وسأله عن مسألة الصاع وصدقة الخضروات ، ومسألة الأجناس ، فأخبر مالك - رحمه الله تعالى - بما دلت عليه السُنَّة في ذلك ، فقال : رجعت لقولك يا أبا عبد الله ، ولو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت .

ولو فتح هذا الباب لوجب أن يعرض عن أمر الله تعالى ورسوله ﷺ ، ويبقى كل إمام في أتباعه بمنزلة النَّبي في أُمَّته ، وهذا تبديل للدين ، وشبيه بما عاب الله به النَّصارى في قوله :﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) ﴾ [التوبة : ٣١] ، والله سبحانه أعلم » أ . هـ .

وكان الإمام الشافعي - رحمه الله - ينهى عن تقليده وتقليد غيره ، وكان يقول : « إذا صح الحديث فهو مذهبي » .

وقيل للإمام أحمد بن حنبل لما لا تصنع لأصحابك كتاباً في الفقه ؟ :

قال : « أو لأحد كلام مع كلام الله تعالى ورسوله ﷺ ،فلا يجوز ترك آية أو خبر صحيح لقول صاحب أو إمام ، ومن فعل ذلك فهو عاصٍ لله ورسوله ﷺ ، ومخالف لقول إمامه وصاحب مذهبه ، وكان الإمام أحمد يقول : « كثرة التقليد عمي في البصيرة » .

وقال : « من ضيِّق علم الرجل أن يقلد دينه الرجال » ، وقد قال : « لا تقلد دينك الرجال ، فإنهم لم يسلموا من أن يغلطوا ، وقد ثبت في الصحيح عن النَّبي ﷺ أنه قال : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » (١) ، ولازم ذلك أن من لم

---

(١) رواه مسلم .

يفقهه الله عز وجل في الدين لم يرد به خيراً ، فيكون التفقه في الدين فرضًا ، والتفقه في الدين : معرفة الأحكام الشرعية بأدلتها فمن لم يعرف ذلك لم يكن متفقهًا في الدين لكن من الناس من قد يعجز عنها فيلزمه ما يقدر عليه ، ومن كان قادراً على الاستدلال قيل : يحرم عليه التقليد مطلقًا ، وقيل يجوز مطلقًا ، وقيل يجوز عند الحاجة ، كما إذا ضاق عن الإستدلال ، وهذا القول أعدل الأقوال إن شاء الله تعالى والإجتهاد أمر يقبل التجزؤ والإنقسام ، فقد يكون الرجل مجتهداً في فن أو باب أو مسألة ، دون فن وباب ومسألة ، وكل فاجتهاده بحسب وسعه ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، ومن علم مسألة فهو بها عالم ، ولا يجوز القول بغلق باب الاجتهاد على من تمهدت له أسبابه ، إذ لا يجوز تحجير رحمة الله الواسعة ، وخصوصًا مع كثرة متطلبات الأُمَّة وحاجتها المتجددة .

بعض مظاهر تواصل السلفيين المعاصرين مع دعوة شيخ الإسلام - رحمه الله -

لن تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، ويبعث الله على رأس كل مئة عام من يجدد لهذه الأُمَّة شبابها وأمر دينها ، ولما كان العلم رحم بين أهله ، فمن رحمة الله وجود التواصل والتراحم بين السابقين واللاحقين ممن يقتفون أثر رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر : ١٠] ، وقد استفاد السلفيون المعاصرون أيما استفادة من دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتأثروا بها علماً وعملاً واعتقاداً ، ولِمَ لا وهو ينهج منهج خير القرون ، ويتبع ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ، وقد كان يمهل من خالفه ثلاث سنوات أن يأتي بحرف واحد ، خالف فيه شيخ الإسلام ما اتفق عليه أهل القرون المفضلة ، وقد جلى ابن تيمية ووضع اعتقاد الطائفة الناجية، وفند شبهات المخالفين لأهل السُنَّة والجماعة ، مما أنار الطريق لمن جاء بعده ، ولذلك لا عجب أن نرى الكثير من مظاهر التواصل بين السلفيين المعاصرين وبين دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية،وفي حديث معاوية رضي الله عنه قال : سمعت النَّبي ﷺ يقول : « **لا تزال طائفة من أُمَّتي قائمةً بأمر الله ، لا يضرهم من خزلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الحق** » (١) ، وفي لفظ : « **من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة** » (٢) .

قال البخاري في وصف هذه الطائفة : « هم أهل العلم » ، وقال الإمام أحمد : « إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم » ، وقال القاضي عياض : « إنما أراد أحمد أهل السُنَّة والجماعة » ، وذكر ابن تيمية : « أن أهل السُنَّة هم الطائفة

---

(١) ، (٢) رواه مسلم .

المنصورة » ، وقال النووي : « يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين ... »، وذكر أنواعهم فقال : « إنهم شجعان مقاتلون ، فقهاء مُحدِّثون ، زُهاد ، آمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير ، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين ، بل قد يكون متفرقين في أنحاء الأرض » أ . هـ .

بعض مظاهر التواصل الموجودة :

أولاً : الحرص الحقيقي على وحدة الصف وجمع الكلمة :

يقول الشيخ ابن باز ـ رحمه الله ـ : « ومن المعلوم أنه لا يتم أمر العباد فيمَ بينهم، ولا تنظم مصالحهم ولا تجتمع كلمتهم ولا يهابهم عدوهم إلا بالتضامن الإسلامي الذي حقيقته التعاون على البر والتقوى ، والتكافل والتناصر والتعاطف والتناصح والتواصي بالحق والصبر عليه ، ولا شك أن هذا من أهم الواجبات الإسلامية والفرائض اللازمة ، وقد نصت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على أن التضامن الإسلامي بين المسلمين أفراداً وجماعات ، حكومات وشعوباً من أهم المهمات ، ومن الواجبات التي لابد منها لصلاح الجميع وإقامة دينهم وحل مشاكلهم وتوحيد صفوفهم وجمع كلمتهم ضد عدوهم المشترك ، والنصوص الواردة في هذا الباب من الآيات والأحاديث كثيرة جداً ، وهي وإن لم ترد بلفظ التضامن فقد وردت بمعناه وما يدل عليه عند أهل العلم ، والأشياء بحقائقها ومعانيها لا بألفاظها المجردة ، فالتضامن معناه التعاون والتكافل والتكاتف والتناصر والتناصح والتواصي ، وما أدى هذا المعنى من الألفاظ ، يدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى الله سبحانه ، وإرشاد الناس إلى أسباب السعادة والنجاة وما فيه صلاح أمر الدنيا والآخرة » أ . هـ .

وجاء في فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ـ بالسعودية ـ برئاسة الشيخ ابن باز ـ رحمه الله ـ ما يلي :

« ولا يجوز أن يتفرق المسلمون في دينهم شيعاً وأحزاباً ، يلعن بعضهم بعضاً ، ويضرب بعضهم رقاب بعض ، فإن هذا التفريق مما نهى الله عنه ونعي على من أحدثه

أو تابع أهله ، وتوعد فاعليه بالعذاب ، وقد برء الله ورسوله ﷺ منه ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون (١٠٢) واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون (١٠٣) ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون (١٠٤) ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم (١٠٥) ﴾ [آل عمران : ١٠٢ – ١٠٥] .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون (١٥٩) من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون (١٦٠) ﴾ [الأنعام : ١٥٩–١٦٠] .

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » (١) .

والآيات والأحاديث في ذم التفرق في الدين كثيرة ، أما إذا كان ولي أمر المسلمين هو الذي نظمهم ووزع بينهم أعمال الحياة ومرافقها الدينية والدنيوية ليقوم كلٌّ بواجب في جانب من جوانب الدين والدنيا فهذا مشروع ، بل واجب على ولي أمر المسلمين أن يوزع رعيته على واجبات الدين والدنيا على اختلاف أنواعها ، فيجعل جماعة لخدمة علم الحديث من جهة نقله وتدوينه وتمييز صحيحه من سقيمه... إلخ، وجماعة أُخرى لخدمة الفقه من جهة متونه تدويناً وتعلماً وتعليماً...، وثالثة لخدمات اللغة العربية ، ورابعة للجهاد والدفاع على بلاد الإسلام وفتح الفتوح وتذليل العقبات لنشر الإسلام ، وأُخرى للإنتاج: صناعة وتجارة وزراعة ...، إلى آخره... فهذه من ضروريات الحياة التي لا تقوم للأمة قائمة إلا بها ولا يحفظ الإسلام ولا ينشر إلا عن طريقه ... .

هذا مع اعتصام الجميع بكتاب الله وهدي رسوله ﷺ ، وما كان عليه الخلفاء

---

(١) رواه مسلم .

الراشدون ، وسلف الأمة ووحدة الهدف ، وتعاون جميع المسلمون على نصرة الإسلام والذود عن حياضه ، وتحقيق وسائل الحياة السعيدة ، وسير الجميع في ظل الإسلام وتحت لوائه على صراط الله المستقيم ، وتجنبهم السُبل المُضلة والفرق الهالكة ، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[الأنعام : ١٥٣] . أ . هـ (١) .

لقد أيقن السلفيون أن وحدة الصف وجمع الكلمة لا تتم بالبدع والضلالات ، ولا يكتفي فيها بالشعارات والهتافات وأن الفرق الضالة النارية كالمعتزلة والشيعة والخوارج والمرجئة وغلاة الصوفية . . . من أعظم أسباب تشتت المسلمين وفرقتهم بلبلتهم وانحرافهم عن مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ، ولذلك كان الحرص على وحدة المنهج ومراعاة آداب الخلاف وفقهه ، والحذر من البدع والمخالفات والعمل بالطاعات والقربات ، والحيطة تجاه وساوس شياطين الإنس والجن ، واعذار الناس فيما عذرهم فيه ربهم ، وأن نكون على بصيرة من أمرنا وأمر النَّاس ، وحرص كل مسلم على أن يبدأ بنفسه ، وأن نبتهل جميعًا إلى الله بالدعاء أن يجعل بأسنا على عدوه وعدونا ، وأن يجمع شملنا ويعلم شعثنا ويوحد كلمتنا ، والسلفيون في حرصهم هذا لا يفترقون عن حرص شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ ، فالنبع الصافي الذي يلتقي منه الجميع هو كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ، وما كان عليه سلف الأُمة رضوان الله عليهم أجمعين (٢) .

ثانيًا : منهجهم في التعامل مع النصوص واستنباط الأحكام :

يقول الشيخ الشنقيطي في « أضواء البيان » :

« فإننا نبين ما في الآيات من الأحكام وأدلتها من السُّنَّة ، وأقوال العلماء في

---

(١) هذا الكلام فيه رد بليغ على من يتهم السلفيين بقصور النظر ، وأنهم أهملوا جوانب الدين والحياة المختلفة اقتصاراً منهم على العلم فقط ، كما أن فيه إفحام المخالفين الذين يزعمون أن السلفيين مبعث فرقة الأمة !! رمتني بدائها وانسلت .

(٢) راجع كتابنا « الضوابط الشرعية لتحقيق الوحدة الإسلامية والأُخوة الإيمانية » ، ففيه تفصيل ما أجملناه ، من مطبوعات دار الإيمان ، الأسكندرية .

ذلك ، ونرجح ما ظهر لنا أنه الراجح بدليل من غير تعصب لمذهب معين ، ولا لقول قائل معين ، لأننا ننظر إلى ذات القول لا إلى قائله ، لأن كل كلام فيه مقبول ومردود إلا كلامه ﷺ » .

وقال الأستاذ محمد المجذوب عن الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ :

« منهجه الذي يعتمد على ظواهر النصوص مع احترامه لكل اجتهاد يكالفه ، ما دام قائم على دليل أو شبهة دليل » .

وقال الشيخ عبد الرحمن بن عبد الخالق في « الأصول العلمية للدعوة السلفية » (ص٢٤,٢٥) : « والمنهج السلفي لفهم الإسلام والعمل به يضع نصب عينه تذليل هذه العقبات التي حالت بين الناس ومتابعة الرسول ﷺ وذلك بأن ينادي دائمًا بالقول بتحريم التقليد ، ويوجب على كل مسلم السؤال عن القول بدليله من الكتاب والسُّنَّة ، ولا يعني هذا أننا نوجب على كل أحد أن يكون مجتهداً ، لا إنما نأمر كل أحد أن يكون متبعًا للدليل باحثًا عن الحجة من كتاب ربِّه وسُنَّة نبيه ، وبذلك تتوحد صفوف الأُمة وتنموا فيها معرفة الكتاب والسُّنَّة ، وتذكوا فيها الروح العلمية والمسامحة الأخوية ، ولا يستطيع مُضل ـ وما أكثرهم في أيامنا ـ أن يضلها بسهولة ، وذلك بأن يسند لما يريد من فتوى إلى عالم من العلماء ، وبذلك يُعظم عند المسلمين شأن الرسول ﷺ ، ويعظم شأن متابعته » أ . هـ .

إننا نرفض ربط الدعوة بأحد ، بحيث تحيا بحياته وتمرض بمرضه وتموت بموته ، وكما قالوا : « شيخ الإسلام حبيب إلى أنفسنا والحق أحب إلينا منه » .

وكل إنسان يُؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ ، والحق مقبول من كل من جاء به ، والباطل مردود على صاحبه كائنًا من كان ، واعرف الحق تعرف أهله ، واعرف الباطل تعرف من أتاه ، واسلك طريق الهدى ولا يضر قلة السالكين ، وإياك وطريق الضلالة ، ولا تغتر بكثرة الهالكين ، وغرضنا من الربط بين الماضي والحاضر أن نبيِّن أن السلفيين ليسوا لقطاء ، وأن الدعوة السلفية ليست مبتورة ولا مقطوعة الصلة

بالصحابة ومن تابعهم بإحسان ، وإذا كان البعض قد صار يقدم دعوته على دعوات الآخرين بسبب قدمها وطول عمرها على الساحة !! ، فعليه أن يعلم أن السبق سبق الفضل والصفات لا سبق الزمان والمكان ، وأن العبرة بما وافق الحق ، وإن أوثق عري الإيمان الحب في الله والبغض في الله ، ومقتضى الإيمان الولاء والبراء لله ولرسوله وللمؤمنين ، ومن هنا كانت محبتنا وموالاتنا واحترامنا للعلماء والصالحين والأئمة المجتهدين ، ومن جملتهم ابن تيمية إذ هم ورثة النَّبي ﷺ وتوقيرهم دون الغلو فيهم، دين يُدان به لله تعالى واجب على كل مسلم .

ثالثًا : اهتمامهم بالعقيدة وقولهم التوحيد أولاً ، وكلمة التوحيد قبل توحيد الكلمة :

القرآن المكي والمدني به الكثير من الآيات والسور التي تحض على توحيد الله ، وإخلاص العبودية لله جلا وعلا ، ومن أجل ذلك بعث الله سبحانه الرسل وأنزل الكتب وجعل الكلمة التي يدخل بها العباد في دينه هي كلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وهي الكلمة الطيبة التي تحق عليها الحاقة وتقوم عليه الواقعة ، وتنصب لأجلها الموازين ، وتكون الجنَّة والنَّار ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ، وما من نبيٍّ إلا قال لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٥٩] .

وعندما بعث النَّبي ﷺ معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أهل اليمن قال له : « **إنك تقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يعبدوا الله ، فإذا هم عرفوا الله فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ...** » [(١)] ، والتوحيد هو أول ركن من أركان الإسلام كما جاء في حديث : « **بُني الإسلام على خمس** » [(٢)] .

لهذه النصوص وغيرها قال السلفيون المعاصرون : « التوحيد أولاً لو كانوا

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه مسلم .

يعلمون » ، فهو السبيل لنيل رضى الله عز وجل ، والفوز بالجنَّة والنَّجاة من النَّار ، كما أنه الطريق لتحقيق وحدة المسلمين ، ولذلك نجد الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ يستحث الدعاة دائماً لبذل الوسع في تصحيح عقيدة المسلمين بردها إلى أصولها من الكتاب والسُّنَّة ، لأن ذلك السبيل الموصلة إلى تحقيق الدولة الإسلامية ، خصوصًا وقد عمت الغربة ، واستشرت البدع ، وأطلت الشركيات برأسها ، وعاد الدين غريبًا كما بدأ غريبًا ، وهذا الإهتمام بالعقيدة لما لها من أهمية وإلا فلا فرق بين اعتقاد وعمل ، وخُلُق وسلوك ، إذ الكل دين ، ويبقى التقديم والتأخير وفق الضوابط الشرعية لا وفق أهواء البشر ، وكما قالوا : « تقديم الأهم على المهم أمر واجب في العلم والعمل والدعوة إلى الله » .

وقد رأينا النتائج المرة في المجاهدين الأفغان من جراء إهمال دعوة التوحيد ، فقد صاروا فتنة للخلق بتناحرهم واقتتالهم ، نسأل الله أن يهيىء لنا ولهم من أمرنا رشداً، والناظر في الدعوات الرشيدة سيجد تركيزًا على التوحيد ، كدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ وحملته الشديدة على القبوريين ، الذين صرفوا العبادة لغير الله بزعم محبة الصالحين ، ومن قبل كان شيخ الإسلام ابن تيمية يخرج بنفسه لهدم الأوثان التي تُعبد من دون الله ، وإنكار المنكرات والشركيات ، وكم من مرة تعرض للحبس والأذى بسبب غلاة الصوفية ، وقد انبرى مدافعًا عن عقيدة سلف الأُمة ومفنداً للشبهات والعقائد الباطلة التي خرجت بها فرق الضلالة وانحرفت بها عن مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ، وقد رُمي ـ رحمه الله ـ بالتجسيم والتشبيه ، ظلمًا وزورًا مما دعاه للرد على هذه الغربة حيث قال : « وأما النزول الذي لا يكون جنس نزول أجسام العباد فذا لا يمتنع أن يكون في وقت واحد لخلق كثير ، ويكون قدره لبعض أقل وأكثر ، بل لا يمتنع أن يقرب إلى بعض من خلقه دون بعض ، فيقترب إلى الذي دعاه دون الذي لم يدعه ، ونزوله وهو على عرشه أبلغ في العظمة وأدل على القدرة وأوفق للعقل والشرع ... » .

وقال : « ومن ظن من الجُهال أنه إذ نزل إلى السماء الدنيا كما جاء الحديث سيكون العرش فوقه ويكون محصوراً بين طبقتين من العالم فقوله مخالف لإجماع السلف ، مخالف للكتاب والسُّنَّة كما بُسِطَ في موضعه » .

وقال ـ رحمه الله ـ : « وهو سبحانه فوق عرشه رقيب على خلقه مهيمن عليهم مُطلع عليهم ، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته ، وكل هذا الكلام الذي ذكره الله من أنه فوق عرشه وأنه معنا حق على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف ولكن يصان عن الظنون الكاذبة مثل أن يظن أن ظاهر قوله: ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾ [الملك : ١٦]، أن السماء تظله أو تُقله ، وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان ، فإن الله قد : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وهو : وهو :﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ ﴾ [الحج : ٦٥] ،﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا ﴾ [فاطر : ٤١] ،﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ .

[الروم : ٢٥] (١) .

إن معرفة التوحيد وما ينافيه من الشرك حتم لازم ، وواجب على كل مكلف ، وهذا لا يقتصر فيه على المعرفة الإجمالية ، ولا تصير العقيدة قوية بمجرد النوايا الطيبة أو الإكتفاء بالمطالبة بذلك ، ومما لا خلاف عليه أن صحة الاعتقاد يترتب عليها صحة العمل ، والناظر في عقائد النَّاس وأعمالهم سيعلم يقينًا أهمية التركيز على معاني التوحيد ، وأن الدعاة السلفيين قديمًا أو حديثًا أصابوا في ذلك ، فعقائد الصوفية على النوايا الطيبة ، وغيرها كثير بمثابة الآفات التي تنخر في جسد الأُمَّة ، بل إننا في أمس الحاجة لإقامة التوحيد العملي السلوكي في حياتنا وحياة النَّاس بحيث ننصبغ بصبغة الإسلام في حياتنا الخاصة والعامة وتتعلق قلوبنا بالله حبًا وخوفًا ورجاءًا وتوكلاً وإنابة .

رابعًا : التصفية والتربية عند السلفيين المعاصرين :

قال الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ :

« وأعني بالتصفية تنقية الإسلام من كل دخيل وشائب ، والسبيل إلى ذلك أولاً

تصفية السُّنَّة مما داخلها من موضوع وضعيف ، ثم تفسير القرآن على ضوء هذه السُّنَّة الصحيحة ، وما كان عليه السلف الصالح من تصورات ومفهومات ، وهذا الأخير لا يمكن التحقيق عنه إلا بدراسة علوم الحديث والجرح والتعديل ، وأنا لا أعني بذلك أن نقف بالتفسير عند الحدود التي انتهى إليها السلف ، بل إننا علينا أن نلتزم منهج السلف في التفسير وفي التزامه توحيد للاتجاه ومنع للتفرق ، وتتناول التصفية التي أريدها ما وصل إلينا من العلوم الإسلامية والأفكار الإسلامية [١] ، فنستبعد منها كل ما يخالف المنهج السليم ، كذلك تتناول التصفية « تنقية » الفكر الإسلامي من الشوائب الدخيلة التي تتسلل إلى أفكار المسلمين المعاصرين عن طريق الدراسات الغربية ، وبصورة خاصة الفلسفة وعلوم التربية والفنون مما يتسع فيه المجال لدس كثير من السموم المفسدة للفكر الإسلامي ، وأريد بالتربية : تنشئة الجيل على العقيدة الإسلامية الصحيحة المستمدة من الكتاب والسُّنَّة ، وأخص بالذكر تربية الصغار على العبادة ، دون الإكثار من الكلام على فائدة العبادة من الناحية المادية كما يفعل البعض ، وإن كان لابد من ذكر الفوائد المادية فهي آخر ما ينبغي ذكره ، ولا أنسى هنا تدريس التشريع الإسلامي ، فالذي أراه أن يكون تدريس هذه المادة على أساس التسليم التام لأمر الله والثقة بحكمه ، دون الاهتمام الكثير ببيان فوائد المادية ، وفي ذلك تزويد لنفس الطالب بالمناعة عن كل دس وتسميم » . أ . هـ [٢] .

ويتضح بذلك أن التصفية والتربية معناها تصفية الإسلام مما شيب به من شركيات وبدع وانحرافات ، وتربية النفس والناس من حولنا على هذا الإسلام المصفى ، وهذا الذي ذكره الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ هو عين ما فعله شيخ الإسلام ابن تيمية ، إذ أن الأُمَّة افترقت في عهودها الأخيرة عن مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ، فالجيل الأول صار أشبه بظاهرة لم تتكرر ، وأرجع البعض ذلك إلى النبع الصافي ـ الكتاب والسُّنَّة ـ الذي تربى عليه الصحابة رغم حفظه وصيانته ، إلا أن

---

(١) هكذا في الأصل ولعلها الأفكار الإنسانية .
(٢) نقلاً من كتاب علماء ومكفرون عرفتهم .

الأجيال التالية قد انحرفت عنه تأويلاً وانحرافًا وإهمالاً وإعراضًا ،وكان من جراء ذلك ظهور الفرق كالصوفية والشيعة، والمعتزلة والخوارج، وتولى ظهور الشركيات، وكثر الانحراف عن هدي رسول الله ﷺ فظهرت البدع وانطمست السُنن عند الكثيرين، وأدى وضع الحديث إلى ظهور كثير من الانحرافات ، واحتكر البعض طريق السلوك والتربية بزعمه فلم يجدوا إلا دخول الخرائب وترك النظافة والعيش على طعام واحد!!!.

فلله در ابن تيمية والسلفيين في كل عصر ووقت ، عندما يبذلون وسعهم في تنقية النفس من كل شائبة شرك أو انحراف في العقيدة ، وتربية النفس على صدق الاتباع للنَّبي ﷺ إذ التوحيد توحيدان ، توحيد المُرسَل ، وتوحيد متابعة الرسول ، وهذا معنى قولنا : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » فتزكية النفس لا تتم إلا بالتوحيد والاتباع ، وقد ذكر الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق ـ حفظه الله ـ في كتابه : «**الأصول العلمية للدعوة السلفية** » (١) : وهي التوحيد والاتباع والتزكية ، وأوضح أن الله تعالى قد أكمل لنبيِّه ﷺ مناهج التربية والسلوك ، وأنه لا سبيل لتزكية النفوس إلا بالرجوع للقرآن وللسُّنَّة الصحيحة ، ولابد في ذلك من الرجوع للعلماء العاملين المعتبرين ، الذين سلموا من شوائب الشرك ، والتأويلات الباطلة وتراهات السلوك .

خامسًا : الحث على الاتباع وذمّ الابتداع :

العبادات توقيفية، تُؤخذ دون زيادة أو نقصان ، أما المعاملات فالأصل فيها الإباحة إذا روعيت ضوابطها الكلية، وقد عرف الشاطبي البدعة فقال: « طريقة مخترعة في الدين، تُضاهي الطُرق الشرعية، ويقصد بالسلوك عليها مبالغة التعبد لله » .

وقد تواردت نصوص الكتاب والسُّنَّة وآثار سلف الأُمَّة على الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع ، وشيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في علمه وعمله ودعوته كان حريصًا على ذلك ، فلسان حاله يقول : إنما أنا مُتبع ولستُ مبتدع ، وهذا شأن الموفقين المسددين في كل زمان ومكان، وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ « الدعاء عبادة

(١) من مطبوعات دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع ، الإسكندرية .

ومبناها على التوقيف ويُعبد الله بما شُرِعَ ، لا بالأهواء والبدع » ، وقال ابن القيم - رحمه الله - « ألا يُعبد إلا الله ، ولا يُعبد الله إلا بما شُرِعَ » .

ومن تتابع حياة الشيخ ابن باز - رحمه الله - وفتاواه وجد أنه لا يسكت على أي محدثة من البدع التي تسللت أو تحاول التسلل إلى عبادات المسلمين وعقائدهم ، كما أن الشيخ الألباني - رحمه الله - له باعٌ طويل في ذلك ، وقد مر بك كلامه في التصفية والتربية ، هذا هو المنهج الذي يراه الشيخ سبيلاً لعودة الأُمَّة لاستئناف حياة إسلامية على كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ .

وإليك ما قاله الشيخ الألباني - رحمه الله - في الأمر بالاتباع وذم الابتداع :

قال الشيخ الألباني - رحمه الله - :

« فما تركه ﷺ من تلك العبادات ، فمن السُنَّة تركها ، ألا ترى مثلاً أنه لا أذان للعيدين أو لدفن الميت مع كونه ذِكْرًا وتعظيمًا لله - عزَّ وجَلَّ - لم يجز التقرب به إلى الله عز وجل ، وذلك ليس إلا لكونه سُنَّة تركها رسول الله ﷺ ، وقد فهم هذا المعنى الصحابة رضي الله عنهم ، فكثر عنهم التحذير من البدع تحذيرًا عامًا كما هو مذكور في موضعه، حتى قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : « كل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبَّدوها » ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم ، عليكم بالأمر العتيق » ، فهنيئًا لمن وفقه الله للإخلاص في عبادته واتباع سُنَّة نبيه ﷺ ، ولم يخالطها ببدع إذًا فليبشر بتقبل الله عز وجل لطاعته وإدخاله إياه في جنَّته ، جعلنا الله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » ، « ثم ليعلم أن هذه البدع ليست خطورتها في نسبة واحدة ، بل هي على درجات فبعضها شرك وكفر صريح كما سترى ، وبعضها دون ذلك ، ولكن يجب أن يعلم أن أصغر بدعة يأتي الرجل بها في الدين هي محرمة بعد تبيين كونها بدعة ، فليس في البدع كما يتوهم بعضهم ما هو في مرتبة المكروه فقط ، كيف ورسول الله ﷺ يقول : « **كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النَّار** » [1] ،

(١) الحديث في الصحيح ، وهو جزء من خطبة الحاجة التي كان يواظب عليها النَّبي ﷺ ، راجع السلسلة الصحيحة ، المجلد الأول ، « المقدمة » للعلامة الألباني - رحمه الله تعالى - .

أي صاحبها ، وحسبك دليلاً على خطورة البدعة قوله ﷺ : « إن الله احتجز التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته » [رواه الطبراني والضياء المقدسي في « الأحاديث المختارة » وغيرهما بسند صحيح وحسَّنه المنذري] ، ثم نقل قول بعض العلماء في النهي عن البدع الصغيرة فإنها تودي حتمًا إلى الكبار منها وعدم استحباب البدع فإن في هذا تنقص للدين ،وناقليه ونقل قول الإمام مالك - رحمه الله - حيث قال : « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، فما لم يكن يومئذ بدين فليس اليوم دينًا » ، وصلى الله على نبينا القائل : « ما تركت شيئًا يقربكم إلى الله إلا وقد أمرتكم به ، وما تركت شيئًا يبعدكم عن الله ويُقربكم إلى النَّار إلا وقد نهيتكم عنه » (١) ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

سادسًا : حيطة سلفية معاصرة تتعلق بالأسماء والصفات :

الواجب على العباد أن يعبدو الله ولا يُشركوا به شيئًا ، وأن يعبدوه سبحانه بما شرع وليس بشرع أحدٍ سواه ، ولذلك احتاط النَّبي ﷺ لعدم خدش جناب التوحيد ولعدم خدش جناب التشريع ، ودلائل ذلك كثيرة متضافرة ، وقد سار العلماء على هذا النهج قديمًا وحديثًا ، ونقلنا طرفًا من ذلك عن شيخ الإسلام ابن تيمية ، وإليك أقوال بعض علماء العصر تدلك على مبلغ الحيطة والتدقيق في مسألة الأسماء والصفات .

قال الشنقيطي - رحمه الله - :

« وإن كان بعض العلماء كره وصفه جل وعلا بالقدم كما يأتي فالله عز وجل وصف بعض المخلوقين بالقدم ، قال : ﴿ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ [يس : ٣٩] ، ﴿ ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ [يوسف : ٩٥] ، ﴿ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴾ [الشعراء : ٧٦] ، ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الصافات : ٧٧] ، ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : ٩٦] ، ولا شك أن ما وصفوا به الله من هذه الصفات « القدم والبقاء » مخالف لما وصف به الخلق نحو ما تقدم ، أما الله عز وجل فلم يصف في

---

(١) مناسك الحج والعمرة في الكتاب والسُنَّة وآثار السلف وسرد ما أُلحق الناس بها من البدع (ص٤٣).

كتابه نفسه بالقدم ، وبعض السلف كره وصفه بالقدم لأنه قد يطلق مع سبق العدم نحو : ﴿ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ ، ﴿ ضَلالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ ، ﴿ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴾ ، وقد جاء فيه حديث قال فيه بعض العلماء : هو يدل على وصفه بهذا وبعضهم يقول : لم يثبت » أ . هـ (١) .

ومن ذلك قولهم عن الله سبحانه أن له ذاتًا أو أنه بائن من خلقه .

قال الشيخ الألباني - رحمه الله - :

ومن هذا العرض يتبين أن هاتين اللفظيتين : « بذاته وبائن لم تكونا معروفين في عهد الصحابة ﷺ ، ولكن لما ابتدع الجهم وأتباعه القول بأن الله في كل مكان ، اقتضى ضرورة البيان أن يتلفظ هؤلاء الأئمة الأعلام بلفظ بائن دون أن ينكره أحد منهم ، ومثل هذا تمامًا قولهم في القرآن الكريم أنه غير مخلوق ، فإن هذا الكلمة لا تعرفها الصحابة أيضًا ، إنما كانوا يقولون فيه : كلام الله تبارك وتعالى لا يزيدون على ذلك، وكان ينبغي الوقوف فيه عند هذا الحد ، لولا قول الجهم وأتباعه من المعتزلة : إنه مخلوق ، ولكن إذا نطق هؤلاء بالباطل وجب على أهل الحق أن ينطقوا بالحق ولو بتعابير وألفاظ لم تكن معروفة من قبل ، وإلى هذا الحقيقة أشار الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - حين سُئل عن الواقفة الذين لا يقولون في القرآن إنه مخلوق أو غير مخلوق، هل لهم رخصة أن يقول الرجل : « كلام الله » ثم يسكت ، قال : ولم يسكت ؟! ، لولا ما وقع فيه الناس كان يسعه السكوت ، ولكن حيث تكلموا فيما تكلموا ، لأي شيء يسكتون ؟ » .

قُلتُ : وظاهر كلام الإمام أحمد - رحمه الله - أننا نستخدم مثل هذه الألفاظ حين يكون لاستعمالها ضرورة كالرد على بدعة أو تعليم جاهل أو نحو ذلك ، أما إذا لم تكن هناك ضرورة فلا ، والله أعلم وبخاصة قولهم « بائن » لما يروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : « فلا إستعاؤه باعده عن شيء من خلقه ، ولا قربه ساواهم في

---

(١) **انظر** : منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ، (ص ٨ ، ٩) .

المكان به » ، « ولم يحلل في الأشياء فيقال : هو كائن ، ولم ينأ عنها فيقال : هو منها بائن » ، إلا أنه يُقال أن بعض أسانيد هذا الكتاب لا تصح إلى عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فالله أعلم إن كان هذا صحيح بالنسبة إليه أو لا » . أ . هـ .

يقول الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ : « وأما المعية العامة فمعناها : الإحاطة التامة والعلم ، وقد بدأ الله سبحانه آيات المعية وختمها بالعلم ليعلم عباده أن المراد بذلك علمه سبحانه بأحوالهم وسائر شئونهم ومع قرب هذا التأويل ووضوحه إلا أن الذي أحبه أن نقول مثلما قال الشوكاني : « فنقول في مثل هذه الآيات : هكذا جاء القرآن أن الله سبحانه مع هؤلاء ، ولا نتكلف تأويل ذلك كما لم يتكلف غيرنا بأن المراد بهذا الكون وهذه المعية هو كون العلم هو معيته ، فإن هذا شُعبة من شُعب التأويل تخالف مذاهب السلف وتباين ما كان عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم ، وإذا انتهيت إلى السلامة في مداك فلا تجاوز » أ . هـ .

سابعًا : دعوتهم وجهادهم :

يقول الشيخ ابن باز ـ رحمه الله ـ :

الجهاد جهادان : « جهاد طلب ، وجهاد دفاع ، والمقصود منهما جميعًا هو تبليغ دين الله ودعوة الناس إليه ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وإعلاء دين الله في أرضه ، وأن يكون الدين لله وحده » ، ومن هنا تكون الدعوة إلى الله أعلى درجات الجهاد ، ويكون القتال وتكون الحرب مقدمة بهذا النوع من الجهاد ووسيلة له ، وقد ألقى ـ رحمه الله ـ كلمة سنة ١٤٠٦هـ بمناسبة الجهاد الأفغاني للملاحدة الشيوعيين جاء فيها : « أما بعد ، بمناسبة فراغ الحجاج من أداء مناسكهم وتقديم هديهم وضحاياهم لله سبحانه ، يسرني أن أذكر للمسلمين في كل مكان بإخوان لهم يقدمون أنفسهم وأموالهم جهادًا في سبيل الله وإعلاء لكلمته وحماية لأوطان المسلمين ، وإنقاذًا لها من مكائد العدو الظالم الغاشم، وهم إخواننا في الله والمجاهدون في سبيله ، وإن إخوة الإسلام لها حقوق وواجبات ونصرة المسلمين بعضهم بعضًا من الفرائض التي

افترضها رب العزة من فوق سبع سموات ، فمساعدة إخواننا المجاهدين والمهاجرين الأفغان ومناصرتهم فرض عين على المسلمين اليوم بالمال والنفس ، أو بأحدهما حسب الاستطاعة وخاصة أصحاب الكفايات والإمكانات من دعاة وأطباء ومهندسين ومعلمين ، وإن صرف الزكاة للمجاهدين عامة من أوجب الواجبات وأعظم القربات ، كما أن نصرة هذا الجهاد من أعظم الواجبات على المسلمين ترجيحًا لمصلحة الدين ونصرة المسلمين ومراعاة لمقاصد الشريعة ، لأن الجهاد في أفغانستان يمر بمرحلة حساسة إما أن ينتصر المسلمون وإما أن تنتصر الشيوعية ـ والعياذ بالله ـ والتي إن انتصرت فستعمل على مسح القرآن والسُنَّة من أفغانستان ، وستعمل على اجتثاث الدين من أصوله ، وهذه هي الماحقة والعياذ بالله ، ولا يمكن للمسلم أن يتردد لحظة في اختيار نصرة المسلمين الأفغان على الشيوعية الكافرة المدمرة ، فكيف يتردد مسلم بعد هذا من مساندته ومعاونته للمجاهدين الأفغان ؟ ، كما يجب على المجاهدين بذل مزيد من الجهد لتوحيد صفوفهم وجمع كلمتهم وإصلاح ذات بينهم .

وختامًا : أسأل الله العلي العظيم أن يجمع كلمة المجاهدين على الحق وأن يوحد صفوفهم ، وأن يوفق المسلمين حكامًا ومحكومين إلى مساندتهم ونصرتهم ، وأن ينصر دينه ويعلي كلمته ويصلح أحوال المسلمين في كل مكان ويمنحهم الفقه في الدين وينصرهم على عدوهم ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه » أ . هـ .

باختصار : الجهاد له سبيله وصراطه ، ولا يستطيع مخلوق إبطاله ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف : ٨] ، ومنه جهاد الدفع ـ أي : دفع الكفار عن ديار المسلمين ـ وجهاد الطلب ـ أي : طلب الكفار في عقر دارهم ـ والسلفيون إذ ينطقون بما نطق به الكتاب والسُّنَّة ويتابعون النَّبي ﷺ وسلف الأمة لا يسعهم التخلف عن نصرة الدين بالنفس والمال ، وما ينكرونه من تهور واندفاع وازهاق لنفوس الأبرياء وانقلابات وصدام مع السلطات ،

وغير ذلك من مظاهر العنف مما يسميه البعض جهاداً !! ، إنما يرفضونه وينكرونه لمخالفته للضوابط الشرعية ، ولما ينجر يسببه من صد عن سبيل الله (١) ، وبلاء وفتن ومفاسد عظيمة ، وقد ذهب الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ إلى تخطئة الانقلابات وعدَّها بدعة عصرية ، وأن علينا أن ننهج منهج الدستور في ظل الفساد القائم لا تعدو كونها لفظًا للزينة ، إذ ليس من الحكمة معالجة الأمور الشكلية بل الواجب هو العمل للأهم فالأهم ، والأهم هنا هو إصلاح عقائد المسلمين وتزكية التقوى والدعوة على أساس التصفية من البدع والتربية على التوحيد » .

وينتقد الشيخ ـ رحمه الله ـ بعض الدعاة : « الذين لا شغل لهم إلا تثقيف أتباعهم بالسياسة والاقتصاد ونحو ذلك ، مما يدور عليه كلام أكثر الكتَّاب حوله ، ونرى فيهم من لا يقيم الصلاة !! ، ومع ذلك فهم جميعًا يسعون إلى إيجاد المجتمع الإسلامي وإقامة الحكم الإسلامي ، وهيهات هيهات إن مجتمعًا كهذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا بدأ الدعاة إليه بمثل ما بدأ به رسول الله ﷺ من الدعوة إلى الله ، حسبما جاء في كتاب الله وبيَّنه رسول الله ﷺ » أ . هـ .

وقول الشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ في هذه المسألة يتفق مع قول كثير من أصحاب الدعوات المعاصرين .

يقول المودودي في كتاب « واجب الشباب اليوم ـ محنة الجماعة الإسلامية » :

« أيها الأخوة الكرام، وأحب في ختام كلمتي هذه أن أوجه إليكم نصيحة وهي : أن لا تقوموا أبداً بعمل جمعيات سرية لتحقيق الأهداف ، ولا تلجأوا إلى استعمال العنف والقوة والسلاح لتغيير الأوضاع لأن هذه أيضًا من الاستعجال ومحاولة الوصول إلى الهدف بأقصر طريق وهذا الأمر أسوأ عاقبة وأكثر ضرراً من كل صورة أخرى ، إن الانقلاب الصحيح السليم قد حصل في الماضي وسيحصل في المستقبل بجمعيات علنية ، يكون نشاطها واضحًا وضوح الشمس في رابعة النهار لكل إنسان ، فعليكم

---

(١) راجع كتابنا : « تحصيل الزاد لتحقيق الجهاد » ، من مطبوعات دار الإيمان الإسكندرية .

أن تنشروا دعوتكم بطريق علني وتقوموا بإصلاح قلوب الناس وعقولهم في أوسع نطاق وتسخِّروا الناس لغايتكم بأسلحة من الخلق الكريم والفضيلة ، وأن تواجهوا كل ما يقابلكم من المحن والشدائد مواجهة الأبطال ، فهذا هو الطريق الذي سيمكننا من عمل انقلاب عميق الجذور ، راسخ قوي الدعائم ، كبير النفع في حق هذه الأمة المسكينة ، ولا يمكن لأي قوى معادية أن تقف في وجهه ، وأقول : إن هذه الأمة لا يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها ، أما إذا استعجلتم وقمتم بانقلاب بوسائل العنف ونجحتم إلى حد ما فسيكون مثله كمثل الهواء الذي يدخل من الباب ليخرج من الشباك ، هذه هي النصائح التي أوجهها لكل من يقوم بأمر الدعوة » أ . هـ .

ويقول الدكتور يوسف القرضاوي : « إن المؤمنين لابد أن يعملوا جاهدين لنشر دعوتهم وتبليغ رسالتهم ، وتكثير عددهم وتوسيع عدتهم ، وإقامة الحجة على مخالفيهم وكسب الرأي حولهم حتى يكون معهم القوة التي يقدرون بها على مواجهة أعدائهم ، وقال : وهنا يأتي شرط لابد منه لاستحقاق النصر والتمكين ، هو الصبر على الأذى وطول الطريق ، والثبات على مواجهة الاستفزاز والتحدي » .

وجاء في شهادة الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ قوله : « وحدثته أنا عن تفكيرنا الذي انتهينا إليه من ناحية منهج الحركة وضرورة بدئه من شرح حقيقة العقيدة قبل النظام والشريعة ، ومن التكوين الفردي قبل التنظيم الجماعي ، ومن عدم محاولة فرض النظام الإسلامي عن طريق إحداث انقلاب من القمة ، وبالذات عدم إضاعة الجهد بالتدخل في الأحداث السياسية الحالية الجارية » أ . هـ .

فالتشريعات وحدها لا تصنع أُمَّة ما لم يتواكب معها تغيير في النفوس بحيث يجعل أبناء الأمة في مستوى هذه التشريعات الرفيعة ، وهذا يحتاج إلى أساس عريض وعميق ، والزمن في هذا يُقاس بعمر الدعوات والأُمم وليس بعمر الأفراد ، ولا شك أن كل مسلم يهمه قيام الدولة الإسلامية التي يكون الحكم والتشريع فيها لله وحده ، وعلى كل مسلم بذل جهده لتحقيق هذا المطلب الغالي إلا أن بعض الوسائل أصوب

وأنفع على الحكم الراغب في السيطرة على مقاليد الأمور يسيء إلى الدعوة نفسها، فليس الهدف أن نحكم ؛ ولكن الهدف أن نحكم بشرع الله ، ولابد أن نحمي شرعه فلنبدأ بغرس العقيدة في النفس والتربية على معاني الإيمان ، والتحلي بالأخلاق الإسلامية ، ونستعين بالله في إيجاد القاعدة الإيمانية ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ﴾ [الروم : ٤ ، ٥] ، وهذا الطريق الذي يبدو بطيئًا وطويلاً جداً ، وهو أقرب الطرق وأسرعها وأصحها بإذن الله ، وإذا كان البعض قد حجَّر واسعًا ورأى أن الجهاد هو دخول البرلمان أو الانقلابات والاتحادات ، وتوهم فريق آخر أن مسالك العنف والقتل والتنفير وترويع الآمنين ستحقق له قيام الدولة الإسلامية فهذا وغيره لا يلزم السلفيين ، واتهامهم بالجُبن والتخاذل لا يفت في عضدهم ولا يُثنيهم عن التزامهم بالكتاب والسُّنَّة والرجوع لسلف الأُمَّة، والدعوة والجهاد حسب استطاعتهم ، وإن أردت شاهداً على ذلك فانظر في حياة الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله - بقية السلف الكرام ، والذي يصدق عليه قول القائل : « لم ترى العين مثله ولم يرى هو مثل نفسه » فدعوته وجهاده بالليل والنهار ، لا يمل ولا يكل ، - رحمه الله - ناصحًا للحاكم والمحكومين ، ونصرة وتوضيحًا وبيانًا لمعاني الدين وبذلاً في سبيل رب العالمين ، ولا يتبرم بأحد ، وقد جمع الله القلوب على محبته ، فعلمه وعمله وعبادته وأخلاقه وسعة إدراكه للشرع والواقع تؤهله لأن يكون فقيه عصره ، وأحد مجددي هذا القرن ، ورائداً من رواد الإصلاح الحقيقيين ، وتجعله من أقرب الناس شبهًا بشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - .

فطنته وحيطته وهمته - رحمه الله - :

كان شيخ الإسلام - رحمه الله - أثناء علاجه لبعض حالات الصراع لربما سمع الجني يتكلم على لسان المصروع ويقول: « أنا أتركه كرامة لك » فيجيبه ابن تيمية ويقول : « لا ولكن طاعة لله » ، وذلك أن الله تعالى نهى عن الظُلم ، فالإنتهاء عنه يجب أن يكون لوجه الله ، لا كرامة للمخلوقين .

وفي إحدى المعارك مع التتار صاح السلطان : « يا خالد بن الوليد » تفاؤلاً للفتح فصاح به شيخ الإسلام وقال له : قل : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ ، وقل : ما كان يقول رسول الله ﷺ : « اللهم أنت عضدي وأنت ناصري وبك أقاتل » فصدع السلطان لتوجيه شيخ الإسلام ابن تيمية ، كل ذلك وشيخ الإسلام ابن تيمية يقاتل العدو أشد ما يكون القتال حتى يقول تلميذه ابن القيم :« لقد شاهد العسكر يومئذٍ من قوة شيخ الإسلام أمرًا عظيمًا » .

وقال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ : « وجرت خطوبًا عظيمة وقُتِلَ خلقًا كثيرًا من كبار الأمراء ، وقُتِلَ من العدو ما لا يعلم عدده إلا الله ، وما إن اقترب العصر حتى إلتوت صفوف العدو وتنزلت من قدس الله ريح النصر ، وكشف الله بذلك عن المسلمين غمة عظيمة شديدة فأعز جنده وحفظ أُمَّته » أ . هـ .

وقد فهم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ من قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠ ﴾[الحج : ٦٠] ، إن النصر آت لابد فأقسم أنهم منصورن أكثر من سبعين يمينًا ، والأمراء يعجبون من هذه الثقة ، فيقولون له : « قل : إن شاء الله ، فيقول : إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا » مستشهداً بالآية (١) .

ومن تتبع فتواه ـ رحمه الله ـ علم مدى فطنته وحيطته ، ولقد كان صاحب همَّة عالية، فهو العالم المجاهد الذاكر الصوَّام ، القوَّام ، الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ، البار بأُمِّه ، الكاظم لغيظه ، والعافي عن خصومه ... كل ذلك وغيره تجمَّع فيه ، فكان شخصية ذات جوانب متعددة ، والأمر الذي يستحثنا على بذل الواسع في تكميل معالم الشخصية الإسلامية التي تستطيع النهوض من كبوتها وإقامة دين الله تعالى ، وإلا فالبعض منا إذا برع في الفقه نسي معاني التوحيد ، ومن أجاد الحديث في الرقائق لا يستطيع الإجابة عما لا يسع المسلم جهله ، ومن برَّ أُمَّه أساء معاشرة

---

(١) مدار السالكين ، (٢/ ٤٨٩) .

زوجته ، ومن تفوق في دراسته أهمل الدعوة وتركها ، والعكس ، وهذا وغيره يدل على انحطاط الهمم ، ولقد صارت التخصصات بعيدة عن الدين من جهة (١) ، وما انتسب منها إلى دين الله أصبح كالجزائر المستقلة في حياتنا ، ومعظمها بعيد عن العمل والدعوة إلى الله !! .

وتكفي نظرة عابرة على المدارس والمعاهد والكليات الشرعية لتدرك صدق ما ذكرناه ، ولا نقول ذلك انتقاصًا لأحد أو تقليلاً من قدر أحدٍ بعينه ، بقدر ما هي نصيحة ، عساها تشحذ الهمَّة حتى ترتفع بارتفاع دعوة الإسلام علمًا وعملاً وجهاداً .

(١) راجع كتابنا « صور من الطغيان المادي المعاصر » ، من مطبوعات دار الإيمان ، الإسكندرية .

الفارق الكبير بين تعظيم ابن تيمية للصحابة رضي الله عنهم ونظرة الشيعة لهم

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - معتقده بشأن الصحابة رضي الله عنهم في « كتابه العقيدة الوسطية » فقال : « ومن أصول أهل السُنَّة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب محمد ﷺ ، كما وصفهم الله في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر : ١٠] ، وطاعة النَّبي ﷺ في قوله : « لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل جبل أُحد ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه » (١) ، ويقبلون ما جاء به الكتاب والسُّنَّة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم فيفضلون من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، وهو صُلح الحديبية على ما أنفق من بعده وقاتل ، ويُقدمون المهاجرين على الأنصار ويؤمنون بأن الله تعالى قال لأهل بدر وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشراً : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (٢) ، وبأنه لا يدخل النَّار أحد بايع تحت الشجرة (٣) ، كما أخبر به النَّبي ﷺ ، بل رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة ويشهدون بالجنَّة لمن شهد له النَّبي ﷺ كالعشرة ، وكثابت بن قيس بن شماس وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم على تقديم عثمان رضي الله عنه في البيعة ، وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ وأبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم عليّ رضي الله عنهم ، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله ، ويحبون أهل بيت رسول الله ﷺ ، ويتولونهم ويتولون أزواج رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة خصوصًا خديجة رضي الله عنها أُمُّ أكثر أولاده ، والصدِّيقة بنت الصدِّيق رضي الله عنهما .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) متفق عليه ، البخاري (٤٥١١) ، ومسلم (٤٥٥٠) .
(٣) رواه مسلم (٢٤٩٦) عن أم مبشر .

ويتبرؤون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم ، ومن طريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل ، ويمسكون عما شجر بين الصحابة ﷺ ، ويقولون : إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو مكذوب ، ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه الصحيح وهم منه معذورون : إما مجتهدون مصيبون أم مجتهدون مخطئون . . . » ، إلى أن قال ـ رحمه الله ـ : « ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما مَنَّ الله به عليهم من الفضائل عَلِمَ يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء ، لا كان ولا يكون مثلهم ، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة ، التي هي خير الأُمم وأكرمها على الله تعالى » أ . هـ .

فراجعه وتأمله ، وقارن بينه وبين اعتقاد الشيعة وتنقصهم لصحابة رسول الله ﷺ وأُمَّهات المؤمنين ولعنهم وتكفيرهم لبعض من الصحابة، الذين هم خيار أولياء المتقين، وانظر لكلام شيخ الإسلام في « منهاج السُّنَّة » في معرض رده على ابن المطهر الحلي حيث بيَّن أن البُغض للصحابة الكرام دليل على ما في القلب من غل وخبث فقال : « أكبر خبث للقلوب ومرضها أن تنطوي على بُغض أولئك الرجال العظام الذين كانوا خيار المؤمنين ورعيل أولياء الله الأول وتاج مفرقهم » ، وأوضح أن الطاعن في أبي بكر وعمر ﷺ إما منافق زنديق عدو للإسلام يتخذ الطعن عليهما زريعة للطعن في شخصية رسول الله ﷺ وعلى الإسلام وفي هذه الحال عاش المعلم الأول للرافضة وتلك هي معاملة أئمة الباطنية ، وإما جاهل غال في إتباع هواه وجهله ، وهذه هي حالة العامة من الشيعة ، وذكر تناقضهم في تعظيمهم لمحمد بن أبي بكر بينما يقدحون في شأن والده أبي بكر ، وقد وصف مناقب الصحابة ، ومناقبهم بأنها متواترة قطعية ، وإن كانوا ليسوا معصومين من الخطأ ، وأنهم لا نظير لهم في التاريخ قال : « فمن استقرء أخبار العالم في جميع الفرق تبين له أنه لم يكن قط طائفة أعظم اتفاقاً على الهدى والرشد ، وأبعد عن الفتنة والتفرق والاختلاف من أصحاب رسول الله ﷺ ، الذين هم خير الخلق بشهادة الله لهم بذلك ، إذ يقول تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ

أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، وقد أصاب ابن تيمية في قوله : « كل خير فيه المسلمون إلى يوم القيامة من الإيمان والإسلام والقرآن والعلم والمعارف والعبادات ودخول الجنَّة والنَّجاة من النَّار وانتصارهم على الكفار وعلو كلمة الله فإنما هو ببركة ما فعله الصحابة الذين بلغوا الدين وجاهدوا في سبيل نشره، وكل مؤمن آمن بالله ، فالصحابة رضي الله عنهم لهم عليه فضل إلى يوم القيامة ، وكل خير فيه الشيعة وغيرهم فهو ببركة الصحابة ، وخير الصحابة تبع لخير الخلفاء الراشدين،فهم كانوا أقوم بكل خير في الدين والدنيا من سائر الصحابة » ، وأوضح أن خلافة أبي بكر الصدِّيق دليل على النبوة والصدق ومما يظهر أنه رسول حق ليس ملكًا من الملوك فإن عادة الملوك إيثار أقاربهم والموالاة بالولايات أكثر من غيرهم .

ثم انتساب الرافضة إلى ولد الحسين ومدحهم له مصيبة عليهم ، فالشيعة أصدقاء حمقى لأهل البيت ، وفي ذلك يقول ابن تيمية : « من المصائب التي ابتلى بها ولد الحسين انتساب الرافضة إليهم وتعظيمهم ومدحهم لهم ، فإنهم يمدحونهم بما ليس بمدح ويدعون لهم دعاوى لا حجة لها ، ويذكرون من الكلام ما لو لم يعرف فضلهم من كلام غير الرافضة لكان ما تذكره الرافضة بالقدح أشبه منه بالمدح » .

بقي أن نقول : إن كان هذا هو مسلك الشيعة مع صحابة رسول الله ﷺ ، فإن قومًا أرادوا إبعاد الأُمة عن الخلافة الإسلامية وعن دين ربها ، فلم يجدوا إلا الحط من شأن الصحابة ، والافتراء عليهم بحيث زوروا التاريخ ، وصوروا الأفاضل على أنهم طلاب ملك ودنيا !! ، ولأمثال هؤلاء نذكر قول أبي أيوب السختياني : « إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ ، فاعلم أنهم أرادوا أن يجرحوا شهودنا ليعطلوا العمل بالكتاب والجرح بهم أولى وهم زنادقة ، فالصحابة رضي الله عنهم كانوا أبر هذه الأُمَّة قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا ، ويكفيهم ثناء ومدح الله ورسوله ﷺ لهم ، حتى وإن طعن فيهم الشيعة وأشباه الشيعة » .

عقيدة المعتزلة وفرقهم

اعلم أن أول بدعة ظهرت بدعة القدر ، وهي أن الإنسان خالق لأفعاله ، وبدعة الإرجاء وهي أن المعصية لا تضر مع الإيمان ، وبدعة التشيع وفي مقابلهم الخوارج ، هؤلاء يؤلهون عليًّا رضي الله عنه وأولئك يكفرونه ، وهذه البدع ظهرت في القرن ا لثاني والصحابة رضي الله عنهم موجودون ، وقد أنكروا على أهلها ، ثم ظهرت بدعة الاعتزال ، فنفوا الرؤية والصفات وقالوا بخلق القرآن والمنزلة بين المنزلتين ، فوافقوا الخوارج مالاً في تكفير مرتكب الكبيرة ، وخالفوهم مقالاً ، وكان أول من اعتزل مجلس الحسن البصري واصل بن عطاء رئيس المعتزلة ، وقد سموا معتزلة لاعتزالهم حلقة الحسن وأصحابه ، وسمُّوا أنفسهم أصحاب العدل والتوحيد لقولهم بوجوب ثواب المطيع وعقاب العاصي على الله تعالى .

ورفيق واصل في الاعتزال ، وقرينه عمرو بن عبيد ، ثم خلفه الجبائي أبو علي، وكان الإمام الأشعري من أصحابه ثم فارقه ، والمعتزلة عشرون فرقة ، يضلل بعضهم بعضًا ، وكثير من أقوال جهم بن صفوان توافق أقوالهم الهزلية ، وإن كانت المعتزلة كلهم جهمية ، فقد نقل غير واحد من العلماء ، أن أول من حفظ عنه أنه قال مقالة التعطيل للصفات في الإسلام الجعد بن درهم ، الذي ضحى به خالد القسري ، وأخذ عنه الجهم بن صفوان وأظهرها فنُسبت إليه .

قال السفاريني نقلاً عن شيخ الإسلام : « وقد قيل أن الجعد أخذ مقالته عن أبان ابن سمعان وأخذها أبان عن طالوت بن أخت لُبيد بن الأعصم ، وأخذها طالوت عن لُبيد بن الأعصم اليهودي الساحر ، الذي سحر النَّبي ﷺ ، وكان الجعد هذا فيما قيل من أهل حران ، وكان فيهم خلق كثير من الصائبة والفلاسفة ، بقايا أهل دين النمروذ الكنعاني ، والنمروذ هو ملك الصائبة المشركين ، وأخذ عنهم الجهم أيضًا فيمَ ذكر الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ عن السمنية وبعض فلاسفة الهند ، وهم الذين

يجحدون من العلوم ما سوى الحسيات » أ . هـ .

والجهم كان يدعوا الناس إلى مذهبه ، وهو أن الله تعالى عالم لا علم له ، وقادر لا قدرة له ، وكذا في سائر الصفات ، والمعتزلة طائفة ضالة منحرفة في أصولها عن عقيدة أهل السُنَّة والجماعة ، وعقائدها ما زالت موجودة يُروج لها في الجامعات والكتب ، ولها دعاتها لا كثر الله منهم ، وقد فند شيخ الإسلام - رحمه الله - شبهات المعتزلة ورد عليهم بردود وافرة .

رأي شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في المتكلمين :

علم الكلام المنهي عنه هو المشحون بالفلسفة والتأويل ، وصرف الآيات القرآنية عن معانيها الظاهرة ، والأخبار النبوية عن حقائقها الباهرة ، وقد ذم السلف الصالح الخوض في علم الكلام .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - :

« وهذه التأويلات التي ذكرها ابن فورك ويذكرها الرازي في « تأسيس التقديس » ويوجد منها في كلام غالب المتكلمة مثل الجبائي وعبد الجبار وأبو الحسن البصري وغيرهم ، وهي بعينها التأويلات التي ذكرها بشر المريسي القائل بخلق القرآن في أيام الرشيد وأراد قتله فاختفى ، ونقل قول الشافعي : « ما رأيت أحداً ارتدى بالكلام فأفلح ، ولما كلمه حفص الفرد من أهل الكلام قال : « لأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله تعالى عنه خلا الشرك بالله عز وجل خير له من أن يبتلى بالكلام » ، وقال : « حكمي في أصحاب الكلام أن يصفعوا ويُنادى بهم في العشائر والقبائل : ذا جزاء من ترك السُّنَّة وأخذ الكلام » (١) .

وقال الإمام أحمد - رحمه الله - : « عليكم بالسُّنَّة والحديث وما ينفعكم ، وإياكم والخوض والمراء فإنه لا يفلح من أحب الكلام » أ . هـ .

(١) لقد أصبح التوحيد عبارة عن علوم كلامية سفسطية فلسفية تقسي القلب ، كما هو مشاهد في الجوهرة التي تدرس بالأزهر ، فأين هذا من التوحيد المبني على نصوص الكتاب والسُّنَّة ، راجع كتاب : « معارج القبول » ، لتتبين الفارق بين كلايهما .

وقال ابن تيمية في الفتاوى الحموية وغيرها من تصانيفه ما ملخصه :

« وقد تدبرت كتب الاختلاف التي فيها المقالات مثل كتاب الأشعري المؤلف أولاً ، والشهرستاني والوراق ، أو مع انتصار لبعض الأقوال كسائر ما صنف أهل الكلام فرأيت عامة الاختلاف الذي فيها من الاختلاف المذموم ، وأما ما كان عليه السلف فلا يوجد فيها ، والحاذق منهم الذي غرضه الحق يصرح بالحيرة في آخر عمره ، إذ لم يجد في الاختلافات التي نظر فيها وناظر ما هو حق محض ، وكثير منهم ترك الجميع ورجع إلى دين العامة ، كما قال أبو المعالي - أي : الجويني -: « لقد خضت في البحر الخضم ، وخليت الإسلام ودخلت في الذي نهوني عنه ، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني ، وها أنذا أموت على عقيدة أُمي ، وكذلك الشهرستاني مع أنه أخبر من هؤلاء بالمقالات وصنف كتابه المعروف « الملل والنحل » وقال فيه :

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسرجت طرفي بتلك المعالم
فلم أر إلا واضعًا كف حائر على ذقن أو قارعًا سن نادم

فأخبر أنه لم يجد إلا شاكًا مُريبًا ، أو من اعتقد ثم ندم لما تبين منه خطؤه الأول ، وكذلك الأموي الغالب عليه الحيرة ، وأما الرازي فهو في الكتاب الواحد بل في الوضع الواحد منه ينصر قولاً وفي موضع آخر منه أو من كتاب آخر ينصر نقيضه ، ولهذا استقر الأمر على الحيرة وذكر أبياته :

نهاية إِقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وغاية دنيانا أذي ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول دهرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقال

وقوله : « فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً » وهو صادق فيما أخبر به ، إنه لم يستفد من بحوثه في الطرق الكلامية والفلسفية سوى أن جمع قيل وقالوا ، وأنه لم يجد فيها ما يشفي عليلاً ولا يروي غليلاً ، فإن من تدبر كتبه كلها لم يجد فيها مسألة واحدة من مسائل أصول الدين موافقة لمذهب السلف الذي عليه المعقول

والمنقول ، بل يذكر في المسألة عدة أقوال ، وقول السلف الذي هو الحق لا يعرفه ولا يذكره ، وكذا غيره من أهل الكلام مختلفون في آرائهم ، وكثير منهم من يجعل ما يوافق رأيه هو المحكم الذي يجب اتباعه ، وما يخالف رأيه هو المتشابه الذي يجب تأويله وتفويضه ، وإذا ذكرت النصوص التي يحتج بها عليه يتأولها تأويلاً لو فعله غيره لأقام القيامة عليه ، ويتأول الآيات بما يعلم بالاضطرار أن الرسول ﷺ لم يرده ، وبما لا يدل عليه اللفظ أصلاً ... » أ . هـ .

التحسين والتقبيح عند شيخ الإسلام
- رحمه الله -

نقل العلامة السفاريني عند شرح قوله :

وربنا يخلق باختيار   من غير حاجة ولا اضطرار
لكنه لا يخلق الخلق سدى   كما أتى في النص فاتبع الهدى

ما نصه : « قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله تعالى روحه :

« ونشأ من هذا الاختلاف نزاع بين المعتزلة وغيرهم ومن وافقهم في مسألة التحسين والتقبيح العقلي ، فأثبت ذلك المعتزلة والكرامية وغيرهم ، ومن وافقهم من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وأهل الحديث وغيرهم رضي الله تعالى عنهم ، ونفي ذلك الأشعرية ومن وافقهم من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم ، واتفق الفريقان على أن الحسن والقبح إذا فسر بكون الفعل نافعًا للفاعل ملائمًا له ، وكونه ضاراً للفاعل منافراً له أنه تمكن معرفته بالعقل كما يعرف بالشرع ، وظن من ظن من هؤلاء أن الحسن والقبح المعلوم بالشرع خارج عن هذا ، وليس كذلك، بل جميع الأفعال التي أوجبها الله تعالى وندب إليها هي نافعة لفاعليها ومصلحة لهم ، وجميع الأفعال التي نهى الله تعالى عنها هي ضارة لفاعليها ومفسدة في حقهم والحمد والثواب المترتب على طاعة الشارع نافع للفاعل ومصلحة له ، والذم والعقاب المترتب على معصيته ضارٌ للفاعل مفسدة له » أ . هـ .

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ : « لأهل السُّنَّة في تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه قولان والأكثرون على التعليل والحكمة » . أ . هـ .

وقد أقام شيخ الإسلام البراهين على إثبات الحكمة والعلة في أفعال الباري سبحانه ومنه قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) ﴾ [القيامة : ٣٦] ،

وقوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ [المؤمنون : ١١٥] ، ويتضح مما ذكره شيخ الإسلام في مسألة التحسين والتقبيح أن قوله وسط بين الغالي والجافي فبينما أنكر الأشاعرة أن يكون للعقل والفطرة أي دور في الحكم على الأشياء بالحسن والقبح ، ويقولون مرد ذلك إلى الشرع وحده ، وهذا مع منافاته للنصوص مكابرة للعقول ، وهو رد فعال مغال فيه ، وفي الوقت ذاته لقول البراهمة والمعتزلة أن العقل يوجب حُسن الحسن ، وقُبح القبيح ، وقد ترتب على قول الأشاعرة هذا من الأصول الفاسدة قولهم أن الشرع قد يأتي بما هو قبيح في العقل ، فإلغاء دور العقل بالمرة أسلم من نسبة القبح إلى الشرع ، وتوهموا أنهم بهذا يدافعون عن الإسلام !!! .

وقد ذكرنا أنه لا تعارض بين نص صحيح وعقل صريح وبذلك يصطلح كل فريق على حقه ، ويندفع اللبس ويزول الإشكال .

عقيدة الأشعري

نشأ الأشعري في حجر الجبائي - شيخ المعتزلة في عصره - وتلقى علومه على يديه حتى تصدر المعتزلة وتزعمهم ودفاع عنهم ، ثم أعلن البراءة من الاعتزال وخرج إلى المسجد ونادى بأعلى صوته أيها الناس : « من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي ، أنا فلان بن فلان ، كنت أقول بخلق القرآن ، وأن الله لا تراه الأبصار ، وأن أفعال الشر أنا أفعلها وأنا تائب مقلع متصد للرد على المعتزلة ، ومخرج لفضائحهم ومعايبهم » ، ثم انتقل إلى بغداد واتصل فيها بأتباع الإمام أحمد ، وفي هذا الطور ألف الأشعري كتابيه الأخيرين : « مقالات الإسلاميين » و « الإبانة » الذي أقام فيه الحجة على مذهب السلف ، وكل ما يخالف طريقته في هذين الكتابين مما ألفه قبل ذلك في طور مكافحته للاعتزل بمقاييسه قد رجع عنه إلى ما في « الإبانة » ، وقد أعلن الأشعري في « الإبانة » منهجه ، فقال : « قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها ، التمسك بكتاب الله ربنا ، وسُنَّة نبينا وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أحمد بن حنبل قائلون ، ولما خالف قوله مخالفون ، لأنه الإمام الفاضل الرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق ورفع به الضلال ، وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين وشك الشاكين ، قال : وجملة قولنا أن نقر بالله وملائكته وكتبه ورسوله وأن محمداً رسول الله ، وأن الله لا إله إلا هو أحدٌ فردٌ صمد ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنَّة حق والنَّار حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وأن الله مستوٍ على عرشه كما قال : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [طه : ٥] ، وأن له وجهًا كما قال: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن: ٢٧] ، وأن له يدين بلا كيف كما قال : ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : ٧٥] ، وأن له عينين بلا كيف كما قال : ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر : ١٤] ، وأن من زعم أن أسماء الله

غيره كان ضالاً ، وأن لله علمًا كما قال : ﴿ أنزله بعلمه ﴾ [النساء : ١٦٦] ، ونثبت أن لله قوة كما قال : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ . [فصلت : ١٥] .

ونقول : أن كلام الله غير مخلوق ، وأن لا يكون في الأرض شيء من خير أو شر إلا ما شاء الله ، وأن الأشياء تكون بمشيئة الله تعالى كما قال : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النحل : ٤٠] ، وأنه لا خالق إلا الله ، وأن أعمال العباد مخلوقة لله مقدرة ، كما قال : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصافات : ٩٦] ، وأن العباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئًا وهم يُخلقون كما قال : ﴿ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل : ٢٠] ، وهذا في كتاب الله كثير ، وأن الخير والشر بقضاء الله وقدره ، ونقول : أن كلام الله غير مخلوق ، وأن من قال بخلق القرآن فهو كافر ، وندين بأن الله يُرى في الآخرة بالأبصار كما يُرى القمر ليلة البدر ، يراه المؤمنون في الجنَّة كما قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المطففين : ١٥] ، وندين بأن لا نُكفِّر أحداً من أهل القبلة بذنب ، ونقول : إن من عمل كبيرة مثل الزنا أو السرقة مستحلاً لها كان كافراً ، ونقول : إن الإسلام أوسع من الإيمان ، وندين لله بأن يقلب القلوب بين أصبعين من أصابع الله ، كما جاءت الرواية عن رسول الله ﷺ وأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ونسلم الروايات الصحيحة عن رسول الله ﷺ التي رواها الثقات وبالسمعيات وخبر الآحاد .

وندين بحب السلف ونثني عليهم بما أثنى الله به عليهم ، ونتولاهم أجمعين ، ونقول : إن الإمام الفاضل بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ، وقدَّمه المسلمون بالإمامة كما قدمه رسول الله ﷺ ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان ، وأن الذين قاتلوه وقتلوه ظلمًا وعدوانًا ثم عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فهؤلاء الأئمة بعد رسول الله ﷺ وخلافتهم خلافة النبوة ، ونكف عما شجر بينهم ، ونصدّق بجميع الروايات التي يثبتها أهل النقل من النزول إلى السماء الدنيا خلافًا لمن قال من أهل الزيغ والتضليل ،

ونقول : إن الله يجيء يوم القيامة كما قال : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الفجر : ٢٢] ، وأن الله يقرب من عباده كيف شاء كما قال : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] .

ومن ديننا أن نصلي الجمعة والأعياد وسائر الصلوات والجماعات خلف كل بر وفاجر وغيره . . . ونقر أن الجنَّة والنَّار مخلوقتان ، وأن من مات وقُتِلَ فبأجله ، وندين لله بأنه يعلم ما العباد عاملون وإلى ما هم صائرون ، وما كان وما لا يكون ، وبطاعة الأئمة وبصحبة المسلمين ونرى مفارقة كل داعية إلى بدعة ومجانبة أهل الهوى » أ . هـ .

الفرق بين عقيدة الأشاعرة والأشعري :

مذهب الأشاعرة له وجوده الواقعي الضخم في كتب التفسير وشروح الحديث وكتب البلاغة واللغة والأصول والعقائد كما أن له جامعاته ومعاهده في كثر بلاد الإسلام ، ولم يصدر من شيخ الإسلام مدح مطلق للأشاعرة أبداً ، وإنما غاية مدحه لهم أن يصفهم بأنهم قرب من غيرهم ، وأن مذهبهم مركب من الوحي والفلسفة أو يمدح المشتغلين منهم بالحديث لا لكونهم أشاعرة ، ولكن لاشتغالهم بالسُّنَّة مع سؤال المغفرة لهم فيما وافقوا فيه متكلمي مذهبهم ، لكن هذا أقل بكثير من المواضع التي صرح فيها بتبديعهم وتضليلهم وفساد منهجهم ، ومن جملة ما قال : « أما من قال منهم بكتاب الإبانة الذي صنفه الأشعري في آخر عمره ، ولم يظهر مقالة تناقض ذلك فهذا من أهل السُّنَّة لكن مجرد الانتساب إلى الأشعري بدعة لا سيما أنه بذلك يوهم حسنًا لكل من انتسب هذه النسبة وينفتح بذلك أبواب شر » .

ويرى ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في « نقض المنطق ص ١٦ » : « أن الأشعري كان أقرب إلى قول الإمام أحمد ومن قبله من أئمة السُّنَّة والحديث » ، وقد ذكر ابن تيمية أن الأشعري لما رجع عن مذهب المعتزلة سلك طريق أهل السُّنَّة ، والحديث ، وانتسب إلى الإمام أحمد ؛ كما ذكر في كتاب « الإبانة بتحقيق أصول الديانة » و « مقالات الإسلاميين » .

يقدمون الكشف والذوق على النص ، واعتبروا أن السُّنَّة لا يثبت بها عقيدة ، بل المتواتر منها يجب تأويله وآحادها لا يجب الإشتغال بها حتى على سبيل التأويل !! .

والأشاعرة في الإيمان مرجئة جهمية ، فقد اعتبروا أن الإيمان هو التصديق القلبي ويعتبروا التأويل أصل منهجي من أصول الشاعرة ، ولذلك حرفوا الكلام عن مواضعه فيما يتعلق بالصفات والوعد والوعيد والعصمة وزيادة الإيمان ونقصانه ، كما خالفوا أهل السُّنَّة في مسائل تتعلق بالإيمان والقرآن والقدر (١) ، وقد عقدوا لشيخ الإسلام ابن تيمية محاكمة كبرى بسبب تأليفه « العقيدة الواسطية » ، وكان من أهم التهم الموجهة إليه أنه قال في أولها « فهذا اعتقاد الفرقة الناجية ... » ، إذ وجدوا هذا مخالفًا لما تقرر لديهم من أن الفرقة الناجية هي الأشاعرة والماتريدية .

فما كان من شيخ الإسلام إلا أنه حضر أكثر من خمسين كتابًا من كتب المذاهب الأربعة وأهل الحديث والصوفية والمتكلمين كلها توافق ما في الواسطية ، وبعضها ينقل إجماع السلف على مضمون تلك العقيدة وتحداهم قائلاً : قد أمهلت من خالفني في شيء منها ثلاث سنين فإن جاء بحرف واحد عن أحد من القرون الثلاثة ... يخالف ما ذكرت فأنا أرجع عن ذلك » .

---

(١) راجع رسالة « منهج الأشاعرة في العقيدة » د . سفر الحوالي .

هم الوسط في فرق الأمة ، كما أن الأُمَّة هي الوسط في الأمم ، فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة (١) ، وقد دخل فيما ذكرناه من الإيمان بالله بما أخبر الله به في كتابه ، وتواتر على رسول الله ﷺ ، وأجمع عليه سلف الأُمَّة من أنه سبحانه فوق سمواته على عرشه ، عليٌّ على خلقه وهو سبحانه معهم أينما كانوا يعلم ما هم عاملون ، وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مُهيمن عليهم مُطلع إليهم إلى غير ذلك من معاني ربوبيته ، ودخل في ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه ، وما ذُكِرَ في الكتاب والسُّنَّة من قُربه ومعيته لا ينافي ما ذكره من علوه وفوقيته ، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته ، وهو عليٌّ في دنوه ، قريب في علوه ، ومن الإيمان به ، وبكتبه الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، ومنه بدأ وإليه يعود ، وأن الله تعالى تكلم به حقيقة . . . .

وقد ألَّف ابن تيمية في الصفات كتبًا عديدة وأتى بمباحث فريدة أيَّد فيها مذهب السلف ، وصرح بأنه معتقد بجميع ما قالوه نابذًا لكلام الخلف ، فمن ذلك ما في فتاويه : « الحمد لله اعتقاد الشافعي - رحمه الله تعالى - هو اعتقاد سلف أئمة الإسلام ، كمالك والثوري والأوزاعي وابن المبارك ، وأحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه ، وهو اعتقاد المشائخ المقتدي بهم ، كالفضل بن عياض وأبي سليمان الداراني وسهل بن عبد الله التستري وغيرهم ، فإنه ليس بين هؤلاء الأئمة وأمثالهم الثابت عنه في التوحيد والقدر ونحو ذلك موافق لاعتقاد هؤلاء ، واعتقاد هؤلاء ما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، وهو ما نطق به الكتاب والسُّنَّة » .

وختم فتاواه بقوله - رحمه الله - : « قال بعض العلماء : المعطل يعبد عدمًا ، والممثل يعبد صنمًا ، والمعطل أعمى والممثل أعشى ، ودين الله سبحانه بين الغالي فيه والجافي عنه ، وقد قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، والسُّنَّة في الإسلام كالإسلام في الملل ، وأهل السُّنَّة وسط في الصفات بين أهل

(١) المشبهة ، أي : الذين يشبهون الله في صفاته بصفات خلقه .

التمثيل وأهل التعطيل ، وهذا هو صراط الذين أنعم الله عليهم من النَّبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين ، وحسُن أولئك رفيقًا » أ . هـ .

لقد أخطأ أبو زهرة في كتابه « تاريخ المذاهب الإسلامية » وجانب الحق والصواب عندما تعرض لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ولا ندري كيف ساغ لأبي زهرة ولمن كان على شاكلته ، أن يخالف عقيدة هؤلاء الأفاضل المذكورين ، وأن يخالف الكتاب والسُّنَّة قبل ذلك ؟! .

بعض رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية
التي بعث بها من سجنه (١)

رسالة اعتذار إلى والدته :

بسم الله الرحمن الرحيم

من أحمد بن تيمية إلى الوالدة السعيدة ، أقرَّ الله عينها بنعمه وأسبغ عليها جزيل كرمه ، وجعلها من خيار إمائه وخدمه .

سلام عليكم ، ورحمة الله وبركاته ، وبعد :

فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وهو للحمد أهل ، وهو على كل شيء قدير ، ونسأله أن يصلي على خاتم النَّبيين ، وإمام المتقين محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً .

كتابي إليكم عن نعم من الله عظيمة ، ومنن كريمة ، وآلام جسيمة ، نشكر الله عليها ، ونسأله المزيد من فضله ، ونعم الله كلما جاءت في نمو وازدياد ، وأياديه جلَّت عن التعداد .

وتعلمون أن مقامنا الساعة في هذه البلاد ، إنما هو لأمور ضرورية ، متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا ، ولسنا والله مختارين للبعد عنكم ، ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم ، ولكن الغائب عذره معه ، وأنتم لو اطلعتم على باطن الأمور فإنكم - ولله الحمد - ما تختارون الساعة إلا ذلك ، ولم نعزم على الإقامة والإستيطان شهراً واحداً ، بل كل يوم نستخير الله لنا ولكم ، وادعوا لنا بالخيرة ، فنسأل الله العظيم أن يخير لنا ولكم وللمسلمين ما فيه الخيرة من خير وعافية .

(١) كتاب « رسائل من السجن » جمعها وعلق عليها محمد العبدة ، وقد جاء في كتاب « العقود الدرية » ، لابن عبد الهادي الحنبلي الكثير من رسائل شيخ الإسلام لمن أراد أن يطالعها .

ومع هذا فقد فتح الله من أبواب الخير والرحمة والهداية والبركة ما لم يكن يخطر بالبال ولا يدور في الخيال ، ونحن في كل وقت مهمومون بالسفر ، مستخيرون الله سبحانه وتعالى ، فلا يظن الظان أنَّا نؤثر على قربكم شيئًا من الدنيا قط ، بل ولا نؤثر من أمور الدين ما يكون قربكم أرجح منه ، ولكن ثَمَّ أمور كبار نخاف الضرر الخاص والعام من إهمالها [١] ، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، والمطلوب كثرة الدعاء بالخيرة ، فإن الله يعلم ولا نعلم ، ويقدر ولا نقدر ، وهو علام الغيوب ، وقد قال النَّبي ﷺ : « من سعادة ابن آدم استخارته الله ورضاه بما يقسم الله له ، ومن شقاوة ابن آدم استخارته الله ورضاه بما يقسم الله له » [٢] .

والتاجر يكون مسافرًا فيخاف ضياع بعض ماله ، فيحتاج أن يقيم حتى يستوفيه، وما نحن فيه أمرٌ يجل عن الوصف ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته كثيرًا كثيرًا ، وعلى سائر من في البيت من الكبار والصغار ، وسائر الجيران والأهل والأصحاب واحدًا واحد .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا [٣] .

---

(١) قال الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه « ابن تيمية » (ص ٦٤) ، « أما الضرر العام ، فإنه ضلال الناس ، وأما الضرر الخاص فهو تبعة العالم بأمر إذا لم يبينه للناس ، ثم هناك ضرر خاص أن ابن تيمية جاء إلى مصر متهمًا في دينه ، فكان من حق نفسه عليه أن يزيل الإتهام ويخرج بريئًا .

(٢) علق الشيخ حامد الفقي على هذا الحديث : رواه الترمذي ، وقال : حديث غريب ، ورواه أحمد وأبو يعلى ، والحاكم وقال عنه : صحيح الإسناد ، وانظر العقود الدرية (ص ٢٥٨) .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى (٢٨ / ٤٨) ، والعقود الدرية (٢٥٧) .

رسالة الشيخ ابن تيمية - رحمه الله -
إلى إخوانه في دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

قال بعد أن حمد الله وصلى على نبيه ﷺ :

أما بعد :

فإن الله وحده وله الحمد قد أنعم عليّ من نعمه العظيمة ومننه الجسيمة وآلائه الكريمة ،ما هو مستوجب لعظيم الشكر، والثبات على الطاعة ، واعتياد حسن السير ، على فعل المأمور ، والعبد مأمور بالصبر في السراء أعظم من الصبر في الضراء ، قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) ﴾ [هود : ٩-١١] .

وتعلمون أن الله سبحانه مَنَّ في هذه القضية (١) ، من المنن التي فيها من أسباب نصر دينه وعلوّ كلمته ، ونصره جنده ، وعزة أوليائه ، وقوة أهل السُّنَّة والجماعة ، وذلَّ أهل البدعة والفرقة ، وتقرير ما قُرر عندكم من السُّنَّة وزيادات على ذلك بانفتاح أبواب من الهدى والنصر ، والدلائل وظهور الحق لأمم لا يحصى عددهم إلا الله تعالى وإقبال الخلائق إلى سبيل السُّنَّة والجماعة ، وغير ذلك من المنن ما لابد معه من عظيم الشكر ، ومن الصبر ، وإذا كان صبرًا في سراء .

وتعلمون أن من القواعد العظيمة التي هي من جماع الدين ، تأليف القلوب واجتماع الكلمة ، وصلاح ذات البين فإن الله تعالى يقول : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا

---

(١) أي : قضية محاكمته في مصر وسجنه ، حيث إذا أراد الله نشر فضيلة أتاح لها لسان حسود ، فقد استطاع بذلك بث آرائه هناك .

ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ الأنفال : ١] ، ويقول : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، ويقول : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران : ١٠٥] ، وأمثال ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف ، وتنهى عن الفرقة والاختلاف .

وأهل هذا الأصل : هم أهل الجماعة ، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة .

وجماع السُّنَّة : طاعة الرسول ، ولهذا قال النَّبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « إن الله يرضى لكم ثلاثًا : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أموركم » .

وفي السُّنن من حديث زيد بن ثابت وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فقيها الصحابة - عن النَّبي ﷺ أنه قال : « نضَّر الله امرأً سمع منا حديثًا فبلغه إلى من لم يسمعه ، فرُبَّ حامل فقه غير فقيه ، ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم ، إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ، فإن دعوتهم تحيط من وراءهم » .

وقوله : « لا يغل » أي : لا يحقد عليهن ، فلا يبغض هذه الخصال قلب المسلم بل يحبهن ويرضاهن (١) .

وأول ما أبدأ به من هذا الأصل : ما يتعلق بي ، فتعلمون رضي الله عنكم ، أني لا أحب أن يؤذى أحد من عموم المسلمين ، فضلاً عن أصحابنا بشيء أصلاً ، لا باطنًا ولا ظاهرًا ، ولا عندي عتب على أحد منهم ولا لوم أصلاً ، بل هم عندي من الكرامة والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف أضعاف ما كان كل بحسبه .

---

(١) واضح من تشديد الشيخ على الأُلفة والمحبة ما لا قاه من الاختلاف ، وتعصب المشايخ ضده ، بسبب اجتهاد يرى أنه صحيح ، ثم هو يريد من هذا التمهيد الطويل ، أن لا يتعصب إخوانه ضد الذين آذوه كما سيذكره .

ولا يخلو الرجل إما أن يكون مجتهداً مُصيباً أو مُخطئاً أو مذنباً :

فالأول : مأجور مشكور .

والثاني : مع أجره على الاجتهاد فمعفواً عنه مغفورٌ له .

والثالث : فالله يغفر لنا وله ولسائر المسلمين .

فنطوي بساط الكلام المخالف لهذا الأصل (١) ، كقول القائل : فلان قصر ، فلان عمل ، فلا أوذي الشيخ بسببه ، فلان كان سبب هذه القضية ، فلان كان يتكلم في كيد فلان ... ونحو هذه الكلمات التي فيها مذمة لبعض الأصحاب والأخوان (٢) ، فإني لا أسامح من آذاهم من هذا الباب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

بل إن مثل هذا يعود على قائله بالملامة ، إلا أن يكون له حسنة ، وممن يغفر الله له إن شاء الله ، وقد عفا الله عما سلف ، وتعلمون أيضًا : أن ما يجري من تغليظ أو تخشين على بعض الأصحاب والإخوان ما كان يجري بدمشق ومما جرى الآن بمصر ، فليس ذلك غضاضة ولا نقصًا في حق صاحبه، ولا حصل بسبب ذلك تغير منا ولا بُغض، بل هو بعد ما عومل به من التغليظ والتخشين أرفع قدراً وأنبه ذكرًا ،وأحب وأعظم ...

وإنما هذه الأمور هي من مصالح المؤمنين ، التي يصلح الله بها بعضهم ببعض ، فإن المؤمن للمؤمن كاليد تغسل أحداهما الأخرى ، وقد لا ينقلع الوسخ إلا بنوى من الخشونة ، لكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة ما نحمد معه ذلك التخشين .

وتعلمون : أنَّا جميعًا معاونون على البر والتقوى ، واجب علينا نصر بعضنا بعضًا ، أعظم ما كان وأشد ، فمن رام أن يؤذي بعض الأصحاب والإخوان لما قد يظنه من نوع تخشين عومل به بدمشق أو بمصر الساعة أو غير ذلك فهو الغالط .

وكذلك من ظن أن المؤمنين ينكلون عما أمروا به من التعاون والتناصر ، فقد ظن

---

(١) ليس بعد هذا الصفح وهذا التسامح شيء ، وهذا لا يصدر إلا عن عالم هو وريث الأنبياء لا شك .

(٢) ربما يقصد بعض أصحابه وإخوانه في دمشق ، الذين ضعفوا في هذه المحنة ، ولم يستمروا على منهج شيخهم ، ولذلك ينهى أصحابه أن يؤذوهم ، ويعتذر لهم ويبين أن ليس في قلبه بغض لهم، بل يقدرهم ، ويحبهم في الله .

ظنَّ السوء ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [يونس : ٣٦] ، وما غاب عنا أحد من الجماعة أو قدم إلينا الساعة أو قبل الساعة إلا ومنزلته عندنا اليوم أعظم مما كانت وأجلّ وأرفع ، وتعلمون رضي الله عنكم ، أن ما دون هذه القضية من الحوادث يقع فيها من اجتهاد الآراء ، واختلاف الأهواء ، وتنوع أحوال أهل الإيمان ما لابد منه من نزغات الشيطان ما لا يتصور أن يعري عنه نوع الإنسان ، وقد قال تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٣) ﴾ [الأحزاب : ٧٢ ، ٧٣] ، بل أنا أقول ما هو أبلغ من ذلك تنبيهًا بالأدنى على الأعلى وبالأقصى على الأدنى فأقول :

تعلمون كثرة ما وقع في هذه القضية [١] ، من الأكاذيب المفتراة والأغاليط المظنونة ، والأهواء الفاسدة ، وأن ذلك أمر يجل عن الوصف ، وكل ما قيل من كذب وزور ، فهو في حقنا خير ونعمة قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) ﴾ [النور : ٤] ، وقد أظهر الله من نور الحق وبرهانه ، ما ردَّ به إفك الكاذب وبُهتانه ، فلا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه عليَّ أو ظلمه وعدوانه ، فإني قد أحللت كل مسلم ، وأنا أحب الخير لكل المسلمين ، وأريد لكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي .

والذين كذبوا وظلموا منهم في حلٍّ من جهتي ، وأما ما يتعلق بحقوق الله ، فإن تابوا تاب الله عليهم ، وإلا فحكم الله نافذ فيهم ، فلو كان الرجل مشكوراً على سوء عمله ، لكنت أشكر لكل من كان سببًا في هذه القضية [٢] ، لما يترتب عليه من

---

(١) قضية اتهام المشايخ له في مواضع العقيدة وتحاملهم عليه وحسدهم له ، ثم زجهم له في السجن مع أن رأيه هو الصحيح .

(٢) لأنه حصل بسببها خير كثير لأهل مصر ، حيث قمع البدع هناك وأظهر عوارها ، وألقى الدروس في المساجد والمدارس .

خير الدينا والآخرة ، لكن الله هو المشكور على كل نعمه وآلائه وأياديه التي لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له ، وأهل القصد الصالح يشكرون على قصدهم ، وأهل العمل الصالح يشكرون على عملهم ، وأهل السيئات نسأل الله تعالى أن يتوب عليهم .

وأنتم تعلمون هذا من خلقي والأمر أزيد مما كان وأوكد ، لكن حقوق الناس بعضهم مع بعض ، وحقوق الله عليهم هم فيها تحت حكم الله ، وأنتم تعلمون أن الصديق الأكبر في قضية الإفك التي أنزل الله فيها القرآن ، حلف لا يَصل مسْطح بن أُثاثة ، لأنه كان من الخائضين في الإفك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور : ٢٢] ، فما نزلت قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « بلى وأني لأحب أن يغفر الله لي » ، فأعاد إلى مسْطح النفقة التي كان ينفق ، ومع ما ذكر من العفو والإحسان وأمثاله وأضعافه ، والجهاد على ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة أمر لابد منه : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المائدة : ٥٤-٥٦] .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً (١) .

---

(١) انظر العقود الدرية ، (ص ٢٥٩) ، وبمجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٠) .

رسالة من أخيه عبد الله
يشرح فيها حال شيخ الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله بن تيمية إلى أخيه بدر الدين :

سلام الله ورحمته وبركاته على الشيخ الإمام العالم الجليل بدر الدين ، والى الله عليه آلاءه وأتبعها ، وأسبغ عليه نعمه ونوعها ، وجمعنا وإياه في هذه الدار على طاعته ، وفي دار القرار في دار كرامته مع الذين أنعم الله عليهم من النَّبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين أهل ولايته .

أما بعد :

فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وهو للحمد أهل ، وهو على كل شيء قدير ، وأصلي على سيد ولد آدم ، وخير خلق الله أجمعين ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا .

وبعد : فنحن والجماعة في نِعَم الله الكاملة ومِننه الشاملة ، فمنها نزول الأخ الكريم بالثغر (١) ، فإن أعداء الله قصدوا بذلك أمور ، يكيدون بها الإسلام وأهله ، وظنوا أن ذلك يحصل عن قريب ، فانقلبت عليهم مقاصدهم الخبيثة المعلومة ، وانعكست من كل الوجوه ، وأقبل أهل الثغر أجمعون إلى الأخ ، متقبلين لما ذكره وينشره من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ، والحط والوقيعة في أعدائها من أهل البدع والضلالات .

وأتفق أنه وجد بها الفرقة الضالة ، فكشف أسرارهم وفضحهم واستتاب جماعات منهم ، وتوَّب رئيسًا من رؤسائهم، واشتهر ذلك واستقر عند عموم المؤمنين

(١) يقصد مدينة الإسكندرية .

وخواصهم من أميرٍ وقاض ، وفقيه ومفت ، وشيخ وعموم المجاهدين ، وعلت كلمة الله به على أعداء الله ورسوله .

فنسأل الله العظيم : أن يجعل تمام النقمة عليهم ، وأن يقطع دابرهم وأن ينصر دينه وكتابه ورسوله .

فنسأل الله العظيم : أن يوفقك لما يحبه ويرضاه ، وأن يتولاك في جميع الأمور .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وعلى السعيدة الكريمة الطيبة رضي الله عنها وأرضها الوالدة التي منحها الله تعالى في آخر عمرها هذه الكرامة العظيمة والمنزلة الرفيعة والدرجة العلية .

وأكمل السلام وأنماه على جميع الأهل والإخوان ، والأصحاب والمعارف والجيران .

كتب والخاطر مشغول بأمر المسلمين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً (١) .

---

(١) العقود الدرية (ص ٢٧٢) .

رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية من سجنه بالإسكندرية إلى أصحابه يحثهم فيها على التبتل والخشوع إلى الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴾ [الضحى : ١١] :

والذي أعرف به الجماعة أحسن الله إليهم في الدنيا وفي الآخرة ، وأتم عليه نعمته الظاهرة والباطنة ، فإني - والله العظيم الذي لا إله إلا هو - في نِعم من الله ما رأيت مثلها في عمري كله ، وقد فتح الله سبحانه وتعالى من أبواب فضله ونعمته وخزائن جوده ورحمته ما لم يكن بالبال ولا يدور في الخيال ، هذا ويعرف بعضها بالذوق من له نصيب من معرفة الله وتوحيده وحقائق الإيمان ، وما هو مطلوب من الأولين والآخرين من العلم والإيمان .

فإن اللذة والفرحة والسرور ، وطيب الوقت والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه ، إنما هو في معرفة الله سبحانه وتعالى وتوحيده والإيمان به ، وانفتاح الحقائق الإيمانية والمعارف القرآنية ، وقد قال بعض الشيوخ : لقد كنت في حال أقول فيها : « إن كان أهل الجنَّة في هذه الحال إنهم لفي عيش طيب » ، وقال آخر : « لتمُر على القلب أوقاتٌ يرقص فيها طربًا، وليس في الدنيا ما يشبه نعيم الآخرة، إلا نعيم الإيمان والمعرفة» ، ولهذا كان النَّبي ﷺ يقول : « أرحنا بالصلاة يا بلال » (١) ، ولا يقول : أرحنا منها كما يقول من تثقل عليه الصلاة ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة : ١٤٥] ، والخشوع : الخضوع لله تعالى ، والسكون والطمأنينة إليه بالقلب والجوارح ، وكان النَّبي ﷺ يقول : « حُبِّبَ إِليَّ من دنياكم

(١) رواه أبو داود (٤٣٣٣) ، أحمد (٢٢٠٠٩) .

النِّساء والطِّيب » ، ثم يقول : « **وجعلت قُرة عيني في الصلاة** »(١) ، ولم يقل : حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث ، كما يرفعه بعض النَّاس ، بل هكذا رواه الإمام أحمد والنسائي ، إن المحبب إليه من الدنيا النساء والطيب ، وأما قرة العين فتحصل بحصول المطلوب ، وذلك في الصلاة .

والقلوب فيها وسواس النفس ، والشيطان يأمر بالشهوات والشبهات ما يفسد عليه طيب عيشها ، فمن كان مُحبًّا لغير الله فهو مُعذب في الدنيا والآخرة ، فإن نال مراده عُذِّبَ به ، وإن لم ينله فهو في العذاب والحسرة والحزن .

وليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله والتقرب إليه بما يحبه ، ولا تكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه ، وهذا حقيقة لا إله إلا الله ، وهي ملة إبراهيم الخليل عليه السلام وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين .

وكان النَّبي ﷺ يقول لأصحابه : « **قولوا : أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا ، وما كان من المشركين** »(٢) .

والخير كله في متابعة النَّبي ﷺ النَّبي الأُمِّي الذي يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وأكثر الناس لا يعرفون حقائق ما جاء به ، إنما عندهم قسط من ذلك : ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)** ﴾ [محمد : ١٧] ، والإنسان ظالم جاهل كما قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)** ﴾ [الأحزاب : ٧٢] ، وإنما غاية أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين التوبة ، ولهذا كان الدين مجموعًا في التوحيد والاستغفار ، قال تعالى : ﴿ **فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ** ﴾ [فصلت : ٦] ، ففعل جميع المأمورات ، وترك جميع المحظورات ،

---

(١) رواه أحمد والنسائي وغيرهما .
(٢) رواه أحمد (١٤٨١٨) ، الدارمي (٢٥٧٢) .

يدخل في التوحيد في قول : لا إله إلا الله .

والعبد إذا أنعم الله عليه بالتوحيد ، فشهد أن لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه ، حلاَّه الله بالأمن والسرور والحبور والرحمة للخلق ، والخوف الذي يحصل في قلوب الناس هو الشرك الذي في قلوبهم ، قال تعالى : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا ﴾ [آل عمران : ١٥١] ، وفي الحديث : « **تعس عبد الدينار ، تعس عبد الخميلة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش** » [١] .

ولما خوَّفوا الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بما يعبدونه ويشركون به ، قال الخليل : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) ﴾ [الأنعام : ٨١] ، ولهذا قال الإمام أحمد لبعض الناس : « لو صححت لم تخف أحداً » [٢] ، وكل من وافق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أمره فله نصيب من قوله ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] ، فإن المعية المتضمنة للنصر هي لما جاء به إلى يوم القيامة ، وهذا قد دل عليه القرآن ، وقد رأينا من ذلك وجربنا ما يطول وصفه ، ومن شنأ [٣] ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فله من ذلك نصيب ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣) ﴾ [الكوثر : ٣] ، ولهذا قال أبو بكر بن عياش : « ولكن أهل السُّنَّة يبقون ويبقى ذكرهم ، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم ، وذلك أن أهل البدعة شنؤوا ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأبترهم بقدر ذلك ، والذين أعلنوا ما جاء به النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصار لهم نصيب من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) ﴾ [الشرح : ٤] .

وكل من دعا غير الله فهو مُشرك ، والعيان يصدق هذا ، فإن المخلوقين إذا اشتكى إليهم الإنسان ، فضررهم أقرب من نفعهم ، وهذا باب واسع قد كتبت فيه شيئًا كثيرًا

---

(١) رواه البخاري (٢٨٨٦) .

(٢) أي : لو صححت اعتقادك .

(٣) شنأ : بغض وكره .

وعرفته علمًا وذوقًا وتجربة .

وفي الجملة : ما بين نعم الله التي أنعم بها عليَّ وأنا في هذا المكان ، وأعظم قدرًا وأكثر عددًا ما لا يمكن حصره ، وأكثر ما ينقص عليَّ الجماعة (١) ، فأنا أحب لهم أن ينالوا من اللذة والسرور والنعيم ما تقر به أعينهم ، وأن يفتح لهم من معرفة الله وطاعته ، والجهاد في سبيله ما يصلون به إلى أعلى الدرجات .

والمقصود إخبار الجماعة بأن نعم الله علينا فوق ما كانت بكثير ، ونحن بحمد الله في زيادة من نعم الله ، وإن لم يكن خدمة الجماعة باللقاء ، فأنا أدع لهم بالليل والنهار قيامًا ببعض الواجب من حقهم ، وتقربًا إلى الله تعالى في معاملته فيهم ، والذي آمر به كل شخص منهم أن يتق الله ويعمل لله ، مستعينًا بالله ، مجاهدًا في سبيل الله ، ويكون دعاؤه وغيره بحسب ذلك كما أمر الله به رسوله ﷺ .

■ اللهم أنزل بأسك الذي لا يردُّ عن القوم المجرمين ، اللهم مجري السحاب ، ومنزل الكتاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وزلزلهم وانصرنا عليهم .

■ ربنا أعنَّا ولا تُعن علينا ، وانصرنا ولا تنصر علينا ، وامكر لنا ولا تمكر علينا ، وانصرنا على من بغى علينا .

■ ربنا اجعلنا لك شاكرين مطاوعين مخبتين ، ربنا تقبل توبتنا ، واغسل حوبتنا ، وثبت حجتنا ، وسدد ألسنتنا ، واسلل سخائم صدورنا .

والحمد لله ناصر السُّنَّة ، وخاذل أهل البدعة ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا (٢) .

---

(١) يقصد إخوانه في دمشق .

(٢) **انظر** : مجموع الفتاوي (٢٨ / ٣٠) .

رسالة إلى أهله في القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تعلمون أنَّا بحمد الله في نِعم عظيمة ، ومِنن جسيمة وآلاء متكاثرة وأياد متظاهرة ، لم تكن تخطر لأكثر الخلق ببال ولا تدور لهم في خيال ، والحمد لله حمداً كثيراً ، طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى .

والحق دائمًا في انتصار وعلو وازدياد ، والباطل في انخفاض وسفال ونفاد ، وقد أخضع الله رقاب الخصوم ، وطلب أكابرهم من السلم والانقياد ما يطول وصفه .

ونحن والحمد لله ، قدا شترطنا عليهم في ذلك من الشروط ما فيه عز الإسلام والسُّنَّة وانقماع الباطل والبدعة ، وقد دخلوا في ذلك كله ، وامتنعنا حتى يظهر ذلك إلى الفعل، فلم نثق لهم بقول ولم نجبهم إلى مطلوبهم ، حتى يصير المشروط معمولاً ، والمذكور مفعولاً ، ويظهر من عز الإسلام والسُّنَّة للخاصة والعامة ما يكون من الحسنات التي تمحو سيئاتهم .

وكذلك جرى من الأسباب التي عز الإسلام وذل المشركين ، مما هو من أعظم نِعْم الله على عباده المؤمنين ، ووصف هذا يطول .

وقد أرسلت إليكم كتابًا أطلب ما صنفته في أمر الكنائس، وهي كراريس بخطِّي، قطع النصف بلدي ، فترسلون ذلك إن شاء الله تعالى ، وتستعينون على ذلك بالشيخ « جمال الدين المزي » فإنه يقلب الكتب ويخرج المطلوب ، وترسلون أيضًا من تعليق القاضي « أبي يعلى » الذي بخط القاضي « أبي الحسن » إن أمكن الجميع، وهو أحد عشر مجلداً ، وإلا فمن أوله مجلداً أو مجلدين أو ثلاثة ... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

رسالة من سجن القلعة بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

ونحن ولله الحمد والشكر في نعم عظيمة ، تتزايد كل يوم ، وخروج الكتب كان من أعظم النعم ، فإني كنت حريصًا على خروج شيء منها لتقفوا عليه ، وهم كرهوا خروج « الأخنائية » فاستعملهم الله في إخراج الجميع ، وإلزام المنازعين بالوقوف عليه ، فإن هذه المسائل كانت خفية على أكثر الناس ، فإذا ظهرت فمن كان قصده الحق هداه الله ، ومن كان قصده الباطل قامت عليه حُجة الله .

وما كتبت شيئًا من هذا لا يكتم عن أحد ولو كان مُبغضًا ، والأوراق التي فيها جوابتكم وصلت ، وأنا طيب وعيناي طيبتان أطيب ما كانتا ، ونحن في نعم عظيمة لا تحصي ولا تُعد ، والحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه .

وكل ما يقضيه الله تعالى الخير والرحمة والحكمة ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

ثم مُنع عن الشيخ الأقلام والحبر ، فبعث بهذه الرسالة إلى إخوانه وقد كتبها بالفحم ، وبقي الشيخ بالقلعة حتى أتاه اليقين .

يقول في آخر رسالة له :

« سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ونحن ولله الحمد والشكر في نعم متزايدة ، وجميع ما يفعله الله في نصر للإسلام ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾ [التوبة : ٣٣] (١) ، ومن سُنَّة الله أنه إذا أراد إظهار دينه أقام من يعارضه فيحق الحق بكلماته ، ويقذف بالحق على

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى (٢٨ / ٤٧) ، والعقود الدرية (٣٢٨) .

الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، والذي سعي فيه حزب الشيطان ، لم يكن مخالفة لشرع محمد ﷺ ، بل مخالفة لدين جميع المرسلين إبراهيم وموسى والمسيح ومحمد خاتم النَّبيين صلى الله عليهم أجمعين .

وكانوا قد سعوا في أن لا يظهر من جهة حزب الله ورسوله خطاب ولا كتاب ، وجزعوا من ظهور « الأخنائية » فاستعملهم الله تعالى حتى أظهرو أضعاف ذلك ، ومقصودهم إظهار عيوبه ، فلم يجدوا إلا ما هو حجة عليهم ، ولم يمكنهم أن يظهروا علينا عيبًا في الشرع والدين ، بل غاية ما عندهم : أنه خولف مرسوم بعض المخلوقين (١) ، والمخلوق كائنًا من كان إذا خالف أمر الله تعالى ورسوله لم يجب ، بل ولا يجوز طاعته .

وقول القائل : إنه يظهر البدع ، كلام يظهر فساده لكل مستبصر ، ويعلم أن الأمر بالعكس ، وهذه قضية كبيرة لها شأن ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴾ [ص : ٨٨] ، وكانوا يطلبون تمام « الأخنائية » ، فعندهم ما يطمهم أضعافها وأقوى فقهًا منها ، وما فعلوه هو جهل منهم ، فقد دخلوا في شيء ما كانوا يعرفونه ، والأمر أعظم مما ظهر لكم ، نحن ولله الحمد على عظيم الجهاد في سبيله ، بل جهادنا في هذا مثل جهاد يوم « قازان » (٢) ، والجبلية والجهمية والاتحادية (٣) وأمثال ذلك ، وذلك من أعظم نِعم الله علينا وعلى النَّاس ، ولكن أكثر النَّاس لا يعلمون .

---

(١) يقصد مرسوم السلطان قلاوون في منعه بالإفتاء في قضية الطلاق،ومسألة شد الرحال لزيارة القبور، ولكنه رفض هذا لأنه لا يكتم العلم .

(٢) ملك التتار الذي ناقشه ابن تيمية وشدد عليه ، ثم قاتلهم بنفسه في موقعة شقحب .

(٣) أصحاب القول بالإتحاد بين الخالق وبين الخلق وهم كفرة .

حديث شيخ الإسلام - رحمه الله -
عن الحسد كمرض نفسي

يقول - رحمه الله - :

قال تعالى عن المنافقين: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة : ١٠].

وقال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

ومرض البدن خلاف صحته وصلاحه ، وكذلك مرض القلب هو نوع من فساد يحصل له إما بالشبهات أو بالشهوات ، كما فسر مجاهد وقتادة قوله : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي : شك ، وتارة يفسر بشهوة المرض ، كما فسر به قوله تعالى : ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب : ٣٢] ، ومرض القلب : ألمٌ يحصل في القلب كالغيظ من عدو استولى عليك .

قال تعالى : ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة : ١٤] ، وكذلك الشك والجهل يؤلم القلب ، قال النبي ﷺ : « هلا سألوا إذا لم يعلموا ، فإنما شفاء العيّ السؤال »[1] ، ويقال للعالم الذي أجاب بما يبين الحق : قد شفاني بالجواب .

والقلب يحتاج إلى أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح ، كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له ، والصدقة لما كانت تطفئ كما يطفئ الماء النَّار ، صار القلب يزكوا بها ، قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، وكذلك ترك الفواحش يزكوا بها القلب ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور : ٢١] ، وقال :

---

(١) رواه أبو داود (٢٨٤) ، وابن ماجه (٥٦٥) ، وأحمد (٢٨٩٨) ، والدارمي (٧٤٥) .

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ [فصلت : ٦ ، ٧] ، وهي التوحيد والإيمان الذي به يزكو القلب .

ولهذا قال يحيى بن عمار العلوم خمسة : فعلم هو حياة الدنيا وهو علم التوحيد ، وعلم هو غذاء الدين وهو علم التذكر بمعاني القرآن والحديث ، وعلم هو دواء الدين ، وهو علم الفتوى إذا نزل بالعبد نازلة احتاج إلى من يشفيه منها ، وعلم هو داء الدين وهو الكلام المحدث ، وعلم هو هلاك الدين وهو علم السحر ونحوه .

وقال بعض السلف ـ رحمهم الله ـ : « إن للحسنة لنورًا في القلب ، وقوة في البدن ، وضياء في الوجه ، وسعة في الرزق ، ومحبة في قلوب الخلق ، وإن للسيئة لظلمة في القلب ، وسوادًا في الوجه ، ووهنًا في البدن ، ونقصًا في الرزق ، وبُغضًا في قلوب الخلق » ، وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته ، قوله تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، وضرب الله مثلاً لنور الإيمان في قلب المؤمن ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور : ٣٥] ، وفي الدعاء المأثور : « اجعل القرآن ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا » (١) .

والربيع هو : المطر الذي ينزل من السماء فينبت به النبات ، والقلب الحي المنور ، فإنه لما فيه من النور يسمع ويبصر ويعقل ، والقلب الميت فإنه لا يسمع ولا يبصر وقالوا : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت : ٥] ، والقلب الحي يكون صاحبه فيه حياء يمنعه من القبائح ،

---

(١) رواه أحمد في مُسنده .

والحياء مشتق من الحياة ، ولهذا قال النَّبي ﷺ : « **الحياء من الإيمان** » (١) .

والميت الذي لا حياة فيه يسمى وقحًا ، والوقاحة : الصلابة وهو اليبس المخالف للرطوبة ، فإذا كان وقحًا يابسًا صليب الوجه ، لم يكن في قلبه حياة توجب حياءه .

ومن أمراض القلوب :

الحسد ، وهو البغض والكراهة لما يراه من حُسن الحال المحسود ، وهو نوعان :

النوع الأول : للنعمة عليه مطلقًا ، فهذا هو الحسد المذموم ، وإذا أبغض ذلك فإنه يتألم فيكون ذلك مرضًا في قلبه .

النوع الثاني : أن يكون فضل ذلك الشخص عليه ، فيجب أن يكون مثله أو أفضل منه ، فهذا حسد وهو الذي سموه الغبطة ، وقد سماه النَّبي ﷺ حسدًا في الحديث المتفق عليه ، من حديث ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : « **لا حسد إلا في اثنتين ، رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها ، ورجلاً أتاه الله مالاً فسلَّطه على هلكته في الحق** » ، ولفظ ابن عمر رضي الله عنهما : « **رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفق منه في الحق أناء الليل والنهار** » رواه البخاري ، فهذا الحسد الذي نهى عنه النَّبي ﷺ إلا في موضعين هو الذي سماه أولئك الغبطة ، وهو أن يحب مثل حال الغير ويكره أن يفضل عليه .

وأما من أحب أن ينعم الله عليه مع عدم التفاته إلى أحوال الناس ، فهذا ليس عنده من الحسد شيء ، ولهذا يُبتلى غالب الناس بهذا القسم الثاني ، وقد تسمى المنافسة كما يكره المستبقان كل منهما أن يسبقه الآخر ، والتنافس ليس مذمومًا مطلقًا ، بل هو محمود في الخير قال : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٦] ، فأمر المتنافس أن ينافس في هذا النعيم ، لا ينافس في نعيم الدنيا الزائل ، وهذا موافق لحديث النَّبي ﷺ فإنه نهى عن الحسد إلا فيمن أوتي العلم فهو يعمل به ويعلِّمه ، ومن أوتي المال فهو ينفقه ، لم يذكر المجاهد لأن النفوس لا تحسد من هو في

---

(١) رواه البخاري (٢٤) ، ومسلم (٣٦) .

تعب عظيم ، وإن كان المجاهد في سبيل الله أفضل من الذي ينفق المال ، وكذلك لم يذكر النَّبي ﷺ المصلي والصائم والحاج ، لأن هذه الأعمال لا يحصل منها في العادة نفع النَّاس الذي يعظمون به الشخص ويسوِّدونه ما يحصل بالتعليم والإنفاق .

والحسد في الأصل : إنما يقع لما يحصل للغير من السؤدد والرياسة ، ولهذا يوجد بين أهل العلم الذي لهم أتباع ، من الحسد ما لا يوجد فيمن ليس كذلك ، وكذلك فيمن له أتباع بسبب إنفاق ماله ، فهذا ينفع الناس بقوت القلوب ، وهذا ينفعهم بقوة الأبدان ، ولهذا ضرب الله سبحانه مثلين : مثلاً بهذا ، ومثلاً بهذا فقال : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) ﴾ [النحل : ٧٥ ، ٧٦] ، والمثلان ضربهما الله سبحانه لنفسه المقدسة ، ولما يعبُد من دونه ، فإن الأوثان لا تقدر لا على عمل ينفع ولا على كلام ينفع ، ولهذا كان النَّاس يعظمون دار العباس، فقد كان عبد الله يُعلِّم الناس وأخوه يطعم الناس (١) ، فكانوا يُعظِّمون على ذلك ، ورأى « معاوية » النَّاس يسألون « ابن عمر » عن المناسك وهو يفتيهم فقال : « هذا والله الشرف » أو نحو ذلك .

هذا وعمر بن الخطاب نافس أبا بكر رضي الله عنهما في الإنفاق ، كما ثبت في الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق ، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا ، قال : فجئت بنصف مالي ، قال : فقال لي رسول الله ﷺ : « **ما أبقيت لأهلك ؟** » ، قلت : مثله ، وأتى أبو بكر رضي الله عنه

---

(١) هو : عبيد الله بن العباس ، وكان أصغر من أخيه عبد الله بسنة ، استعمله على اليمن ، ومات رضي الله عنه بالمدينة سنة (٨٧هـ) ، وكان سخيًّا جوادًا ينحر كل يوم جزورًا . انظر : كتاب الأعلام ، للزركلي (٣٤٩/٤) .

بكل ما عنده ، فقال له رسول الله ﷺ : « **ما أبقيت لأهلك ؟** » ، فقال : أبقيت لهم الله ورسوله ، فقلت : لا أسبقك إلى شيء أبدًا » .

فكان ما فعله عمر من الحسد والغبطة المباحة ، لكن حال الصدِّيق رضي الله عنه أفضل وهو أنه خالٍ من المنافسة مطلقًا لا ينظر إلى حال غيره ، وكذلك كان في الصحابة أبو عبيدة بن الجراح ونحوه كانوا سالمين من جميع هذه الأمور ، فكانوا أرفع درجة ممن عنده منافسة وغبطة ، وإن كان ذلك مباحًا ، ولهذا استحق « أبو عبيدة » رضي الله عنه أن يكون أمين هذه الأُمَّة ، فإن المؤتمن إذا لم يكن في نفسه مزاحمة على شيء مما أُؤتمن عليه ، كان أحق بالأمانة ممن يخاف مزاحمته .

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس رضي الله عنه قال : كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ فقال : « **يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجلاً من أهل الجنَّة** » ، قال : فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه في يده الشمال فسلم ، فلما كان من الغد ، قال النَّبي ﷺ مثل ذلك فطلع ذلك الرجل على مثال حاله ، فلما كان اليوم الثالث قال النَّبي ﷺ مقالته ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله ، فلما قدم النَّبي ﷺ أتبعه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقال : إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثًا ، فإن رأيتك أن تؤويني إليك حتى تمضى الثلاث فعلمت ، قال : نعم ، قال أنس رضي الله عنه : فكان عبد الله يحدِّث أنه بات عنده ثلاث ليال ، فلم يره يقوم من الليل شيئًا ، غير أنه إذا تعب انقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبَّر حتى يقوم إلى صلاة الفجر ، فقال عبد الله : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرًا .

فلما فرغنا من الثلاثة وكدت أن أحقِّر عمله قلت : يا عبد الله لم يكن بيني وبين والذي غضب ولا هجرة ، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول ثلاث مرات : « **يطلع عليكم رجل من أهل الجنَّة** » ، فطلعت أنت الثلاث مرات ، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك ، فأقتدي بذلك ، فلم أراك ما رأيت غير أنني لا أجد على أحد من

المسلمين في نفسي غشًا ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه ، قال عبد الله : هذه التي بلغت بك وهي التي لا نطيق » .

وبهذا أثنى الله تعالى على الأنصار فقال تعالى : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] ، أي : مما أوتي إخوانهم المهاجرون ، قال المفسرون : لا يجدون في صدورهم حاجة ، أي حسداً وغيظًا مما أوتي المهاجرون .

وكان بين الأوس والخزرج منافسة في الدين ، فكان هؤلاء إذا فعلوا ما يفضلون به عند الله ورسوله أحب الآخرون أن يفعلوا نظير ذلك .

وأما الحسد المذموم كله فقد قال تعالى في حق اليهود : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة : ١٠٩] ، ثم هذا الحسد إن عمل صاحبه بموجبه كان ظالمًا متعديًا مستحقًا للعقوبة ، إلا أن يتوب ، وكان المحسود مظلومًا مأموراً بالصبر والتقوى ، فيصبر على أذى الحاسد ويعفو ويصفح عنه ، وقد ابتلى « يوسف عليه السلام » بحسد إخوته له ، ثم إنهم ظلموه بتكلمهم في قتله وإلقائه في الجُب وبيعه رقيقًا لمن ذهب به إلى بلاد الكفار فصار مملوكًا لقوم كفار .

والمقصود أن الحسد مرض من أمراض النفس ، وهو مرض غالب فلا يخلص منه إلا قليل من الناس ، ولهذا يُقال : « ما خلا جسد من حسد ، ولكن اللئم يبديه ، والكريم يُخفيه ، فمن وجد في نفسه حسداً لغيره فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر ، فكره ذلك من نفسه ، وكثير من الناس الذين عندهم دين لا يعتدون على المحسود ، ولكن أيضًا لا يقومون بما يجب من حقه ، بل إذا ذمَّه أحد لم يوافقوه عن ذمِّه ولم يذكروا محامده ، وكذلك لو مدحه أحد لسكتوا ، وهؤلاء مدينون في ترك المأمور في حقه ، مفرطون في ذلك ، وجزاؤهم أنهم يبخسون حقوقهم فلا ينصفون

أيضًا في مواضع ، ولهذا قيل أول ذنب عصي الله به ثلاثة : الحرص والكِبر والحسد ، فالحرص من آدم ، والكِبر من إبليس ، والحسد من قابيل .

وفي السُنن عن النَّبي ﷺ : « **دب إليكم داء الأُمم قبلكم : الحسد والبغضاء وهي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين** » ، فسماه داء ، كما سمى البخل داء ، في قوله : « **وأي داء أدوأ من البُخل ؟!!** » .

فعلم أن هذا مرض ، وقرن في الحديث الأول الحسد بالبغضاء ، لأن الحاسد يكره أولاً فضل الله على ذلك الغير ، ثم ينتقل إلى بغضه ، والحسد يوجب البغي كما أخبر الله تعالى عمن قبلنا ، حيث بغى بعضهم على بعض كما يبغي الحاسد على المحسود ، فالبخل والحسد مرض يوجب بغض النفس لما ينفعها ، بل وحبها لما يضرها ، والقلب إنما خلق لأجل حُبِّ الله تعالى ، وهذه هي الفطرة التي فطر الله عليها عباده ، والرسل صلى الله عليهم بُعِثوا لتقرير الفطرة وتكميلها لا لتغييرها وتحويلها ، وإذا كان القلب مُحبًا لله وحده مُخلصًا له الدين لم يبتل بالأمراض .

فصحة القلب بالإيمان تحفظ ، من العلم النافع والعمل الصالح ، فليحرص المؤمن على كمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنة وظاهرة فإنها عمود الدين ، وليكن هجيراه : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنها تحمل الأثقال ، وتكابد الأهوال ، ينال رفيع الأحوال .

والحمد لله رب العالمين ، وله الحمد والمنَّة على الإسلام والسُّنَّة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آه وأصحابه وأزواجه أُمَّهات المؤمنين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسلم تسليمًا كثيرًا (١) .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٩١) .

رسالة إلى السلطان

بسم الله الرحمن الرحيم

من أحمد بن تيمية إلى سلطان المسلمين ، وولي أمر المؤمنين ، ونائب رسول الله ﷺ في أُمَّته ، بإقامة فرض الدين وسُنَّته ، وأيده الله تأييداً يصلح به له وللمسلمين أمر الدنيا والآخرة ، ويقيم به جميع الأمور الباطنة والظاهرة ، حتى يدخل في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) ﴾ [الحج : ٤١] ، وفي قوله ﷺ : « سبعة يُظلهم الله في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله ، إمامٌ عادل . . . » (١) .

وقد استجاب الله الدعاء في السلطان ، فجعل فيه من الخير الذي شهدت به قلوب الأُمَّة ما فضَّله به على غيره ، والله المسؤول أن يعينه ، فإنه أفقر خلق الله إلى معونة الله ، قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور : ٥٥] ، وصلاح أمر السلطان بتجريد المتابعة لكتاب الله وسُنَّة رسوله ونبيه ﷺ ، وحمل الناس على ذلك ، فإنه سبحانه جعل صلاح أهل التمكين في أربعة أشياء : إقامة الصلاة وإتياء الزكاة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإذا أقام الصلاة في مواقيتها جماعة هو وحاشيته وأهل بيته ، وأمر بذلك جميع الرعية ، وعاقب من تهاون في ذلك العقوبة التي شرعها الله ، فقد تم هذا الأصل ، ثم إنه مضطر إلى الله تعالى ، فإذا ناجى ربه في السحر واستغاث به وقال : « **يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث** » ، أعطاه الله من التمكين ما لا يعلمه إلا الله .

---

(١) رواه البخاري (٦٦٠ / ١٤٢٣) ، مسلم (١٠٣١) .

ثم كل نفع وخير يوصله إلى الخلق ، هو من جنس الزكاة ، فمن أعظم العبادات سد الفاقات ، وقضاء الحاجات ، ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف ، والأمر بالمعروف ، وهو الأمر بما أمر الله به ورسوله من العدل والإحسان ، وأمر نواب البلاد وولاة الأمور باتباع حكم الكتاب والسُّنَّة ، واجتنابهم حرمات الله ، والنهي عن المنكر ، والنهي عما نهى الله عنه ورسوله ﷺ .

وإذا تقدم السلطان أيده الله بذلك في عامة بلاد الإسلام ، كان فيه صلاح الدنيا والآخرة له وللمسلمين ما لا يعلمه إلا الله ، والله يوفقه لما يحبه ويرضاه .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته [١] .

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٢٤١) .

رسالة في أهمية وشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر

يقول ـ رحمه الله تعالى ـ :

الأمر بالمعروف من خصائص هذه الأُمَّة :

وصف الله سبحانه هذه الأُمة بما وصف به نبيها ، قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، ولهذا قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في القيود والسلاسل حتى تدخلوهم الجنَّة » ، وسائر الأُمم لم يأمروا كل أحد بمعروف ، ولا نهوا كل أحد عن كل منكر ، ولا جاهدوا على ذلك ، والذين جاهدوا كبني إسرائيل فعامة جهادهم كان لدفع عدوهم عن أرضهم ، لا لدعوة إلى الهدى والخير ، ولهذا كان إجماع هذه الأُمَّة حجة ، لأن الله تعالى أخبر أنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر . . . » .

المعروف والمنكر :

ومن النهي عن المنكر إقامة الحدود ، ويجب على أُولي الأمر ، وهم علماء كل طائفة وأمراؤها ومشايخها ، أن يقوموا على عامتهم ويأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر ، فيأمرونهم بشرائع الإسلام وهي الصلوات الخمس في مواقيتها والصدقات المشروعة والصوم المشروع ، وحج البيت الحرام ، ومثل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، ومثل إخلاص الدين لله ، والتوكل عليه رجاءً لرحمة الله ، والخشية من عذابه ، والصبر لحكم الله ، والتسليم لأمر الله ، ومثل صدق الحديث والوفاء بالعهود ، وأداء الأمانات إلى أهلها . . . .

وأما المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله فأعظمه : الشرك بالله ، وهو أن يدعوا

بالصبر ، كقوله لخاتم الرسل ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) ﴾ [المدثر : ١ – ٧] ، فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالإنذار، وختمها بالأمر بالصبر ، ونفس الإنذار أمر بالمعروف ونهي عن المنكر .

فلابد من هذه الثلاثة : العلم، والرفق ، والصبر، العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه والصبر بعده ، وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف : « لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهًا فيما يأمر به ، وفقيهًا فيما ينهى عنه ، رفيقًا فيما يأمر به ، رفيقًا فيما ينهي عنه ، حليمًا فيما يأمر به ، حليمًا فيما ينهى عنه » .

وليعلم أن الأمر بهذه الخصال في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يوجب صعوبة على كثير من النفوس ، فيظن أن بدون هذه الخصال أو أقل ، فإن ترك الأمر الواجب معصية ، فالمنتقل من معصية إلى معصية أكبر منها كالمستجير من الرمضاء بالنَّار ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الأفاق وفي أنفسهن ، وبما شهد به في كتابه : « أن المعاصي سبب المصائب وأن الطاعة سبب النعمة » .

وقد أخبر سبحانه بما عاقب به أهل السيئات من الأُمم كقوم نوح وعاد وثمود ، وقوم لوط وأصحاب مدين ، وقوم فرعون في الدنيا وأخبر بما يعاقبهم به في الآخرة ، كما ذكر ذلك في سورة : النازعات ، والمزمل ، والحاقة ، والقمر ، وغافر ... إلخ .

وإذا كان الكفر والفسوق والعصيان سبب الشر والعدوان فقد يذنب الرجل أو الطائفة ويسكت آخرون عن الأمر والنهي ، فيكون ذلك من ذنوبهم ، فيحصل التفرق والإختلاف والشر ، هذا من أعظم الفتن والشرور قديمًا وحديثًا ، ومن تدبر الفتن الواقعة رأى سببها ذلك ، ورأى أن ما وقع بين أمراء الأُمَّة وعلمائها ومن دخل في ذلك من ملوكها ومشايخها ، ومن تبعهم من العامة من الفتن : « هذا أصلها [١] » [٢] .

---

(١) أي : إما عدم إنكار أو إنكار فيه أخطاء .

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٢١ ، ١٧٠) بتصرف .

مسائل الإيمان والكفر (١)

[١] الإيمان قول وعمل ونية ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، أي : صلاتكم إلى بيت المقدس ، فسمى الصلاة إيمانًا ،وقال سبحانه :﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفتح:٤] ، وقال النَّبي ﷺ : « الإيمان بضع وستون شُعبة ، أعلاها لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شُعبة من الإيمان » (٢) ، فالإيمان قول باللسان ، وإقرار بالجنان « القلب » وعمل بالأركان .

[٢] من مات على التوحيد دخل الجنَّة يومًا من الدهر ، يصيبه قبل هذا اليوم ما يصيبه لأحاديث الشفاعة وفضل الشهادة .

[٣] من مات على الشرك بعد بلوغ الرسالة فهو مُخلد في النَّار أبدًا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء :٤٨ - ١١٦] ، وأما من لم تبلغهم الرسالة فهم من أهل الامتحان في عرصات القيامة كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة .

[٤] المسلم الذي يرتكب الكبائر ويصر عليها « أي : لا يتوب منها » لا يكفر بفعلها ولا يخلد في النار لو دخلها في الآخرة ما لم يستحلها لقوله تعالى : ﴿ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ ، وهذه الآية في غير التائب لأن التائب من الشرك مغفور له ، فالآية إذن فيمن مات على الشرك ، ولكن ينقص إيمان المرء بمعصيته وفسقه لقول النَّبي ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » [رواه مسلم] .

[٥] من رجحت حسناته على سيئاته بواحدة دخل الجنَّة بغير دخول النَّار إلا تحلة القسم ، ومن تساوت حسناته وسيئاته فهو من أصحاب الأعراف ومآلهم إلى

(١) راجع كتابي « **الضوابط الشرعية لتحقيق الأخوة الإيمانية** » من مطبوعات دار الإيمان الإسكندرية.
(٢) رواه البخاري (٩) ، مسلم (٣٥) .

الجنَّة ، ومن رجحت سيئاته على حسناته استحق دخول النَّار .

[٦] ومن استحق دخول النَّار من عصاة الموحدين فهو في مشيئة الله ، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ـ فالناس يدورون بين فضل وعدل في الدنيا والآخرة ـ ومن هذا الصنف من يدخل النار بلا شك ولكن المسلم لا يدخل النار دخول الكفار ولا يعذب فيها عذاب الكفار ولا يخلد فيها خلود الكفار .

[٧] لا يختلف أهل السُّنَّة في أن تارك النطق بالشهادتين مع القدرة عليها كافر مُخلد في النَّار ، حتى لو اعتقد صحتها بقلبه دون النطق لقوله ﷺ : « يخرج من النَّار من قال : لا إله إلا الله » (١) .

[٨] الخلاف فيمن ترك الأركان الأربعة تكاسلاً لا جحوداً ـ وهي الصلاة والزكاة والصوم والحج ـ من مسائل الاجتهاد عند أهل السُّنَّة لا يُبدَّع المخالف فيها ولا يُفسق ، وليست كمسألة مرتكب الكبيرة ، فمن كَفَّر مرتكب الكبيرة كالزنا والسرقة أو حكم بخلوده في النَّار ـ كالخوارج والمعتزلة ـ فهو مُبتدع .

وأما من كَفَّر تارك الصلاة ـ وهي أشهرها ـ فهو مجتهد مأجور على أي حال ، وكذا من لم يكفِّره كُفرًا ينقل عن الملة فهو مجتهد ، وهذه المسألة مما يسوغ فيها الخلاف عند أهل السُّنَّة ، وإن كان جمهور فقهائهم يقولون عنه كُفر دون كُفر ، أما تركها جحوداً فكُفره معلوم من الدين بالضرورة .

[٩] ومثله الخلاف في تكفير بعض طوائف أهل البدع مما ليس فيه إجماع عند أهل السُّنَّة بل هو من مسائل الاجتهاد ، كالخوارج ومتأخري القدرية ، والمعتزلة والروافض والجمهور على عدم تكفيرهم .

[١٠] لا يُكَفِّر مسلم مُعين ثبت له حكم الإسلام إلا بعد بلوغ الحجة التي يُكَفَّر المخالف لها ، نقل الإجماع عليه ابن حزم وأقره شيخ الإسلام ابن تيمية في

---

(١) رواه مسلم (٢٧٨) ، والبخاري (٤٢) .

منهاج السُّنَّة سواء كان خلافه في الأصول أو الفروع ، وهذه الحجة يقيمها عالم ذو سلطان مُطاع بحيث تنتفي الشبهات وتدرأ المعاذير ويحيَ من حيَّ عن بينة ويُهلك من هلك أيضاً عن بينة « نقلناه من شيخ الإسلام » .

[١١] يثبت حكم الإسلام بالنطق بالشهادتين بالنص والإجماع ، نقله ابن رجب وغيره ، وكذا بالولادة لأبوين مسلمين لحديث «كل مولود يولد على الفطرة » [متفق عليه] .

والولد يتبع المسلم من والديه ، ومن توقف في الحكم بالإسلام لمن نطق بالشهادتين أو وُلِدَ مسلماً ولم يُعلم عنه شرك ولا ردة ، فهو مبتدع لمخالفته إجماع السلف الصالح عن ذلك ، ولا يستثنى من ذلك إلا من يقولها حال كفره فلابد من نطقها مع البراءة من الكفر .

[١٢] استمرار عصمة الدم والمال لمن دخل في الإسلام متوقف على التزامه بالصلاة والزكاة وسائر حق الإسلام ، كما في الحديث : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ... » [رواه مسلم] .

[١٣] يجب الحذر في الجملة من تكفير من قد عُلِمَ إسلامه بيقين لقول النَّبي ﷺ : « من قال لأخيه يا كافر ، فقد باء بها أحدهما » (١) ، وقال : « لعن المؤمن كقتله » (٢) .

فثبوت عقد الإسلام بيقين لا يزحزح بشك ، وإذا كانت الحدود تُدرأ بالشبهات ، فأولى ثم أولى أمر التكفير ، ولأن يخطئ الحاكم في العفو خيراً من أن يخطئ في القصاص ، وكان الإمام مالك يقول : « لو احتمل المرء الكفر من تسعة وتسعين وجهاً واحتمل الإيمان من وجه لحملته على الإيمان تحسيناً للظن بالمسلم » ، وكان الإمام

---

(١) رواه أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما برقم (٥٦٤٤) .

(٢) رواه البخاري (٥٦٤٠) ، ومسلم (١٦٠) .

أحمد يقول لعلماء وقضاة الجهمية : « أنا لو قلت قولكم لكفرت ، ولكني لا أكفركم لأنكم عندي جُهال » .

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :

« ونحن نعلم بالضرورة أن رسول الله ﷺ لم يشرع لأمته أن يدعي أحداً من الأحياء والأموات ولا الأنبياء ولا غيرهم، ولا بلفظ الاستعانة ، ولا بلفظ الاستغاثة ، ولا بغيرها ، كما أنه لم يشرع لهم السجود لحي ولا إلى ميت ، ونحو ذلك بل نعلم أن نهي عن ذلك كله وأنه من الشرك الذي حرمه الله ورسوله ، ولكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يبين لهم ما جاء به الرسول ﷺ » أ . هـ .

وإذا كان الناس اليوم قد ورثوا الإسلام وجهلوا معانيه ولم تقم عليهم الحجة الرسالية قيامًا يتأكد معه أن يحيى من حي عن بينة ، وأن يُهلك من هلك عن بينة ، فعلينا بدعوتهم والرفق بهم وتعليمهم ما جهلوه من دين الله ، لا المسارعة إلى تكفيرهم ، وهذه عقيدتنا وعقيدة شيخ الإسلام ابن تيمية ، وهي عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة .

أنواع الاختلاف الواقع بين المسلمين :

ينقسم الخلاف الواقع بين المسلمين إلى اختلاف التنوع واختلاف التضاد كما بيَّنه شيخ الإسلام : « خلاف تضاد ، وخلاف تنوع ، فالأول مثل أن يوجب هذا شيئًا ويحرمه الآخر ، والثاني : مثل القراءات ، التي يجوز كل منها ، وأنواع التشهدات والاستفتحات ، وغير ذلك » أ . هـ .

فتاوي شيخ الإسلام - رحمه الله - بدمشق وبعض اختياراته التي خالف فيها المذاهب الأربعة أو بعضها

ثم إن الشيخ - رحمه الله - بعد وصوله من مصر إلى دمشق واستقراره بها ، لم يزل ملازمًا للإشتغال والأشغال ، ونشر العلم وتصنيف الكتب ، وإفتاء الناس بالكلام والكتابة المطولة وغيرها ، ونفع الخلق والإحسان إليهم ، والإجتهاد في الأحكام الشرعية ، ففي بعض الأحكام يفتي بما أدى إليه اجتهاده ، من موافقته أئمة المذاهب الأربعة ، وفي بعضها قد يفتي بخلافها ، أو بخلاف المشهور من المذاهب ، ومن اختياراته التي خالفهم فيها ، أو خالف المشهور من أقوالهم : القول بقصر الصلاة في كل ما يسمى سفراً طويلاً كان أو قصيراً ، ما هو مذهب الظاهرية ، وقول بعض الصحابة والقول بأن البكر لا تستبرأ وإن كانت كبيرة ، كما هو قول ابن عمر ، واختاره البخاري صاحب الصحيح ، والقول بأن سجود التلاوة لا يشترط له وضوء ، كما يشترط للصلاة كما هو مذهب ابن عمر ، واختيار البخاري أيضًا ، والقول بأن من أكل في شهر رمضان معتقداً أنه ليل فبان نهاراً لا قضاء عليه كما هو الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وإليه ذهب بعض التابعين ، وبعض الفقهاء بعدهم ، والقول بأن المتمتع يكفيه سعي واحد بين الصفا والمروة ، كما هو في حق القارن والمفرد ، كما هو قول ابن عباس رضي الله عنهما ، ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل ، رواها عنه ابنه عبد الله وكثير من أصحاب الإمام أحمد لا يعرفونها .

والقول بجواز المسابقة بلا محلٍّ ، وإن خرج المتسابقان ، والقول باستبراء المختلعة بحيضة ، وكذلك الموطوءة بشبهة ، والمطلقة آخر ثلاثة تطليقات ، والقول بإباحة وطء الوثنيات بملك اليمين ، والقول بجواز عقد الرداء في الإحرام ، ولا فدية في ذلك ، وجواز طواف الحائض ، ولا شيء عليها ، إذا لم يمكنها أن تطوف طاهرة ، والقول بجواز بيع الأصل بالعصير ، كالزيتون بالزيت ، والسمسم بالشيرج ، والقول بجواز

الوضوء بكل ما يسمى ماء مطلقًا أو مقيداً ، والقول بجواز بيع ما يتخذ من الفضة للتحلي وغيره ، كالخاتم ونحوه ، بالفضة متفاضلاً ، وجعل الزائد من الثمن في مقابلة الصنعة ، والقول بأن المائع لا ينجس بوقوع النجاسة فيه إلا أن يتغير ، وقليلاً كان أو كثيراً ، والقول بجواز التيمم لمن خاف فوات العيد والجمعة باستعمال الماء ، والقول بجوز التيمم في مواضع معروفة ، والجمع بين الصلاتين في أماكن مشهورة ، وغير ذلك من الأحكام المعروفة من أقواله ، وكان يميل أخيراً لتوريث المسلم من الكافر الذِّمي ، وله في ذلك مصنف وبحث طويل ، ومن أقواله المعروفة المشهورة التي جرى له بسبب الإفتاء بها محن وقلاقل : قوله بالتكفير في الحلف في الطلاق ، وأن الطلاق الثلاث لا يقع إلا واحدة ، وأن الطلاق المحرم لا يقع ،.

وله في ذلك مصنفات ومؤلفات كثيرة منها :

قاعدة كبير سماها « تحقيق الفرقان بين التطليق والإيمان » نحو أربعين كراسة ، وقاعدة سماها « الفرق المبين في الطلاق واليمين »، وقاعدة في تقرير أن الحلف بالطلاق من الأيمان حقيقة ، وقاعدة سماها « التفصيل بين التكفير والتحليل » ، وقاعدة سماها « اللمعة » وغير ذلك من القواعد والأجوبة في ذلك لا ينحصر ولا ينضبط ، وله في ذلك جواب اعتراض ، ورد عليه من الديار المصرية ، وهو جواب طويل في ثلاث مجلدات ، بقطع نصف البلدي .

بعض أسباب الخلاف بين ابن تيمية وغيره من الفقهاء في التعامل مع النصوص

شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ هو أحد العلماء المجتهدين ، فقد حصَّل أدوات النظر وأسباب الاجتهاد ، وبالتالي فهو لا يقلد غيره ، ولا يفتي إلا بما يغلب عليه ظنه أن هذا هو حكم الله ، وشأنه شأن غيره من علماء الأمة المجتهدين ، يُصيب ويخطئ ، والحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد ، وقد تختلف أنظار العلماء حول نفس النصوص ، ويفرق ابن تيمية بين خلاف وآخر فيقول : « نعم ، من خالف الكتاب المستبين والسُّنَّة المستفيضة خلافًا لا يعذر فيه ، فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع » ، ويوضح أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا يتناظران في المسألة لا يقصدان إلا الخير ، وعيب التقاطع والتدابر مع كل مسألة يختلف فيها مسلمان ، ويبين أنه لن يبقي بسبب ذلك أُخوة إيمانية ، وعلى ضوء ذلك لابد من التفريق بين خلاف الصوفية والشيعة والخوارج لأهل السُّنَّة ، فهذا خلاف غير منجبر ، وبين خلاف العلماء في مسائل قصر الصلاة والطلاق بالثلاثة في المجلس الواحد .

وقد خالف ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بعض الفقهاء لأسباب منها :

[١] مراعاة مقاصد التشريع فيما يذهب إليه من توجيه النصوص ، وذلك على نحو يندفع به التعارض بين ظاهر النصوص بين ما تقرر من استقراء مجموع النصوص من المقاصد المعتبرة ، فقد كان يرى أن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، وأنها ترجح خير الخيرين ، ودفع شر الشرين ، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما ، ودفع أعظم المفسدتين بتحمل أدناهما ، كما كان ـ رحمه الله ـ يتوخى تحقيق معنى التيسير والتوسعة على الناس فيما يذهب إليه من توجيه النصوص ، وذلك في إطار ما أثبته الشرع ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] ، ولقول النبي ﷺ :

« إذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم » (١) ، ومن ذلك ذهابه إلى جواز بيع المغيبات في الأرض كالجزر واللفت والقلقاس بالرغم مما في ذلك من الغرر لاحتياج الناس إلى هذه البيوع ، ولأن الشرع يُبيح للناس ما يحتاجون إليه ولا يحرمه عليهم لأجل نوع من الغرر .

[٢] الإعمال أولى من الإهمال ، فطالما أن النصوص متكافئة من حيث الثبوت والدلالة فيعمل بها كل من غير إهمال لواحد منها ، ولا يكره منه شيء كتنوع صفة الأذان والإقامة والقراءات والتشهدات واستفتاح الصلاة وأنواع الحج - قران وتمتع وإفراد - إذ ليس لأحد أن يُكره ما سَنَّه رسول الله ﷺ ، ويكون من تمام السُّنَّة فعل هذا تارة ، وهذا تارة ، وهذا في مكان وهذا في مكان ، فإذا حدث التعارض بين النصوص يعمل بالأصح والأشهر .

[٣] من جملة أسباب الخلاف تعليق الشرع الحكم بما لا حد له في اللغة ولا في الشرع ، ويرى ابن تيمية أن الصواب في ذلك هو الرجوع إلى عرف أهل الخطاب ، والتعويل عليه في بيان المقصود ، وفي ذلك يقول : « الأسماء التي علق الله بها الأحكام في الكتاب والسُّنَّة : منها ما يعرف حده ومسماه بالشرع فقد بيَّنه رسول الله ﷺ كاسم الصلاة والزكاة والصيام والحج ، ومنها ما يعرف حده باللغة كالشمس والقمر والسماء والأرض والبر والبحر ، ومنها ما يرجع حده إلى عادة الناس وعرفهم فيتنوع بحسب عادتهم : كاسم البيع ، والنكاح ، والقبض والدرهم والدينار ، ونحو ذلك من الأسماء التي لم يحدها الشرع بحد ، ولا لها حد واحد ، فيشترك فيها جميع أهل اللغة ، بل يختلف قدره وصفته باختلاف عادات الناس ، فما كان من النوع الأول فقد بيَّنه الله ورسوله ﷺ ، وما كان من النوع الثاني والثالث فالصحابة والتابعون مخاطبون بالكتاب والسُّنَّة ، قد عرفوا المراد منهم لمعرفتهم بمسماه المحدود في اللغة أو المطلق في عُرف الناس وعاداتهم من غير حد شرعي ولا لغوي ، وبهذا يحصل التفقه

---

(١) رواه مسلم في كتاب الحج برقم (٢٣٨٠) .

بالكتاب والسُّنَّة ، ومن ذلك اسم الحيض علق الله به أحكامًا متعددة في الكتاب والسُّنَّة ولم يقدر لا أقله ولا أكثره ، ولا الطهر بين الحيضتين مع عموم بلوى الأمة بذلك واحتياجهم إليه ، واللغة لا تفرق بين قدر وقدر ، فمن قدر في ذلك حداً فقد خالف الكتاب والسُّنَّة ، والعلماء منهم من يحد أكثره وأقله ، ثم يختلفون في التحديد ، ومنهم من يحد أكثره دون أقله ، والقول الثالث أصح أنه لا حد لأكثره ولا لأقله ، بل ما رأته المرأة عادة مستمرة فهو حيض وإن قدر أنه أقل من يوم استمر بها دائمًا فهذا قد علم أنه ليس بحيض لأنه قد علم من الشرع واللغة أن المرأة تكون طاهرة تارة وتكون حائضًا تارة » (١) .

[٤] لم يكن شيخ الإسلام يقول بمقتضى النص متغافلاً عن ملابسات وروده ، وقرائن الحال المصاحبة له ، بل كان يضم إلى النص النصوص التي تكشف عن ملابسات وروده ، وتفصح عما اقترن به من الأسباب الباعثة عليه ، إذ قد يفهم من النص أنه مطلق في حين أنه مقيد بحال معينة ، أو قد يفضي التعامل مع النص مستقلاً إلى تعميم ما تضمنه من حكم في حين أنه حكم خاص ، ومن ذلك تجوزيه للمزارعة إذا خلت من الأسباب المستوجبة للنهي الوارد في النصوص على عكس ما ذهب إليه الجمهور ، وتخطئته لمن منع التسعير مطلقًا محتجًا بالحديث .

[٥] منعه ـ رحمه الله ـ من أن يخص النص بأحد أفراد الأمة دون باقيهم ، وذلك لاشتراك الجميع في الوصف ـ المؤثر الذي يدور معه الحكم وجودًا وعدمًا ـ ومثال ذلك اختياره أن إرضاع الكبير يحرم إن احتيج إلى جعله ذا محرم استدلالاً بما رواه مسلم عن عائشة من حديث سالم مولى أبي حذيفة حيث جاءت امرأة أبي حذيفة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن سالمًا يدخل عليّ وهو رجل وفي نفس أبي حذيفة منه شيء ؟ ، فقال رسول الله ﷺ : « **أرضعيه حتى يدخل**

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩ / ٢٣٥) .

عليك »[١] وفي رواية في الموطأ قال : « أرضعيه خمس رضعات » ، وقد ذهب الأئمة الأربعة إلى أن الحديث مخصوص بهذه الواقعة ، وأن رضاع الكبير لا تنتفي به الحرمة ، بينما رأى ابن تيمية تعميمه إلى جميع الأحوال المماثلة والمشابهة .

[٦] تناول النصوص في إطار ما تقتضيه طبيعة المكلف ، فابن تيمية يرى أن النفوس إذا اعتادت المعصية لا تنفطم عنها انفطاماً جيداً إلا بتروك ما يقاربها من المباح كما قيل : لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال ، وكما أن النفس أحياناً لا تترك المعصية إلا بتدريج ولا تتركها جملة ، ولهذه يوجد في السُّنَّة عنه ﷺ لمن خشي منه النفرة عن الطاعة الرخصة له في أشياء يستغني بها عن الحرام ، ولمن وثق بإيمانه وصبره النهي عن بعض ما يستحب له تركه مبالغة في فعل الأفضل،كذلك فإنه يستحب له فعل الحسنات البدنية والمالية كالخروج عن جميع ماله ، مثل أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه ، وما لا يستحب لمن لم حاله كذلك كالرجل الذي جاء ببيضة من ذهب حذفه النَّبي ﷺ بها فلو أصابته لأوجعته ، ثم قال : « يعمد أحدكم إلى ماله لا يملك غيره فيتصدق به ، ثم يقع يتكفف الناس » ، ومسلك شيخ الإسلام هذا يدل على فقهه في دين الله ، إذ لكل مقام مقال ، والفتوى تقدر زماناً ومكاناً وشخصاً ، ولابد من مطابقة الحكم مع الواقع المساوي له ، ومراعاة السُنن الشرعية والسُنن الكونية ، ومراعاة تفاوت الخلق في معاني السلوك ودرجات الإيمان .

[٧] يرى ابن تيمية أن حمد الفعل أو ذمَّهُ لا ينبغي أن يقتصر فيه على مجرد ظاهر النص دون النظر إلى الحاجة المعارضة له التي يحصل بها من ثواب الحسنة ما يربو على ذلك ومن أمثلة ذلك الصيام للمريض والطهارة بالماء لمن يخاف عليه الموت ، فالمريض الذي يتضرر بالصيام يحرم عليه أن يصوم ، وكذلك من يخاف عليه الموت من استخدام الماء عليه أن يتيمم ، **وضابط هذا المسلك**

---

(١) رواه مسلم .

عند ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :

﴿ أ ﴾ أن يحصل باعتبار الحاجة المعارضة من ثواب الحسنة ما يربو على مجرد الاقتصار على النص ، وهذا يتطلب استقراء مجموع النصوص ومعرفة مقاصد الشريعة وغايات الأحكام .

﴿ب﴾ أن يظهر أن إعمال النص بمجرد ظاهره تعارضه مفسدة راجحة ، يثبت باستقراء مجموع النصوص إما القطع بحرمتها وإما ترجيح ذلك ، وعند ذلك يلزم التحول عن إعمال ظاهر النص باعتبار تلك الحاجة المعارضة ، وعلى هذا الضابط إعمال النص (١) ، عند ابن تيمية بعد ثبوته على أن يكون سالمًا عن المعارض المقاوم على نحو ما تقدم ، فإن وجد المعارض المقاوم باستقراء مجموع نصوص الشرع بهذا الخصوص ، وكان في ذلك من القوة بحيث يفوق مجرد النص ، وجب المصير إليه والقول به ، ترك ظاهر النص له ، والله أعلم .

أولاً : حجية القياس عنده وضابط ذلك :

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :

« إن لفظ القياس لفظ مجمل يدخل فيه القياس الصحيح والقياس الفاسد فالقياس الصحيح هو الذي وردت به الشريعة ، وهو الجمع بين المتماثلين ، والفرق بين المختلفين، الأول قياس الطرد والثاني قياس العكس الذي بعث الله به رسوله » (٢) .

وهو يقسم القياس الصحيح إلى نوعين :

[١] أن يعلم أنه لا فارق بين الفرع والأصل ، إلا فرق غير مؤثر في الشرع .

[٢] أن ينص على حكم لمعنى من المعاني ، ويكون ذلك المعنى موجوداً في غيره ؛ فإذا قام دليل من الأدلة على أن الحكم متعلق بالمعنى المشترك بين الأصل والفرع

---

(١) راجع مقدمه كتاب « تيسير الفقه الجامع للاختيارات الفقهية » د . أحمد موافي .

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠ /٥٠٥-٥٠٦) .

سوى بينهما وكان هذا قياساً صحيحاً .

قال ـ رحمه الله ـ : فهذان نوعان كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يستعملونها وهما من باب فهم مراد الشارع ، فإن الاستدلال بكلام الشارع يتوقف على أن يُعرف ثبوت اللفظ عنه ، وعلى أن يُعرف مراده باللفظ ، وإذا عرفنا مراده فإن علمنا أنه حكم للمعنى المشترك لا لمعنى يخص الأصل أثبتنا الحكم حيث وجد المعنى وإن علمنا أنه قصد تخصيص الحكم بمورد النص منعنا القياس ، كما أن علمنا أن الجمع خص به الكعبة ، وأن القيام خص به شهر رمضان ... ، فإنه يمنع « هنا » أن نقيس علي المنصوص غيره ، وإذا عين الشارع مكاناً أو زماناً للعبادة كتعين الكعبة وشهر رمضان ، فإلحاق غير المنصوص به يشبه حال أهل اليمن أسقطوا تعيين الأشهر الحرم ، وقالوا : المقصود أربعة أشهر من السنة ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ [التوبة : ٣٧] ، وقياس الحلال بالنص على الحرام بالنص من جنس قياس الذين قالوا : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ [البقرة : ٢٧٥] ، فهذه الأمية الفاسدة ، وكل قياس دل النص على فساده فهو فاسد ، وكل من ألحق منصوصاً بمنصوص يخالف حكمه فقياسه فاسد ، وكل من سوى بين شيئين أو فرق بين شيئين بغير الأوصاف المعتبرة في حكم الله ورسوله فقياسه فاسد »(١) .

وابن تيمية ـ رحمه الله ـ يطرد حكم الأصل في الفرع بجامع ما بينهما من المعنى المشترك « وصفاً ظاهراً منضبطًا مناسباً يعني الحكمة » ، وهو بذلك يضيف إلى ما قال به الفقهاء من الوصف المؤثر ، الوصف المناسب ، أو الحكمة التي قصدها الشارع من إثبات الحكم بالطلب أو المنع ، فيقيم في بعض الأحيان عللاً يعدي بها الحكم من الأصل إلى الفرع .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩ / ٢٦٨ – ٢٨٨) .

ومن أمثلة ذلك :

أنه يُجيز الفطر لمن يشتغل بما يشق عليه بهما لابد للأمة منه قياسًا على جواز الفطر في السفر باعتبار أن علة الفطر في السفر هي المشقة وليست هي مجرد السفر ولم يسلِّم ابن تيمية للفقهاء بأنه يوجد حكم جار على خلاف القياس وفي رسالته في معنى القياس بين خطأ الفقهاء في ذلك وأثبت أن الحكم على وفق القياس .

ثانيًا : حجية فتاوى الصحابة وضابط ذلك :

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :

« والذي لا ريب فيه أنه حجة ما كان من سُنَّة الخلفاء الراشدين الذين سنُّوه للمسلمين ، ولم ينقل أحداً من الصحابة خالفهم فيه ، فهذا لا ريب أنه حُجة ، بل إجماع ، وقد دل عليه قول النَّبي ﷺ : « **عليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة** » (١) .

قال : « وقد تأملت من هذا الباب ، أي ما أفتى به الصحابة مما أُشكل على الفقهاء ـ ما شاء الله ـ فرأيت الصحابة أفقه الأُمَّة وأعلمها ، واعتبر هذا بمسائل الإيمان بالنذر والعتق والطلاق وغير ذلك ، ومسائل تعليق الطلاق بالشروط ونحو ذلك ، وقد بينت فيما كتبه أن المنقول فيها عن الصحابة ﵃ هو أصح الأقول ، قضاءً وقياسًا ، وعليه يدل الكتاب والسُّنَّة ، وعليه يدل القياس العلمي ، وكل قول تناقض في القياس مخالف للنصوص » (٢) .

وقال أيضًا : « وإلى ساعتي هذه ما علمت قولاً قاله الصحابة ولم يختلفوا فيه إلا وكان القياس معه ، لكن العلم بصحيح القياس وفاسده من أجل العلوم ، وإنما يعرف ذلك من كان خبيرًا بأسرار الشرع ومقاصده وما اشتملت عليه شريعة الإسلام من

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/٥٧٣) .

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/٥٨٢) .

المحاسن التي تفوق التعداد وما تضمنته من مصالح العباد في المعاش والمعاد ، وما فيها من الحكمة البالغة والرحمة السابغة ، والعدل التام والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب » (١) .

فما سنَّه الخلفاء الراشدين ، مما لم ينقل عن أحد الصحابة أنه خالفهم فيه ولم يعارض نص أو في معناه فهو حُجة عند ابن تيمية بل إجماعًا ، وقد استند ابن تيمية في ذلك إلى عدد من النصوص ، منها قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] ، وهو في هذا يذهب لما ذهب إليه الإمام أحمد من أن قول الصحابي حجة .

ومن أمثلة احتجاج ابن تيمية بما ذهب إليه الصحابة رضي الله عنهم اختياره فيما إذا تصرف الرجل في حق الغير بغير إذنه بالبيع أو الشراء أو نحو ذلك أنه يقع هذا التصريف موقوفًا على الإجازة لا أنه يكون مردوداً ،سواء كان ذلك للحاجة أو مطلقًا .

كما اختار أيضًا أن امرأة المفقود تؤجل أربع سنوات ثم تزوج ، فإن قدم الزوج المفقود خير بين المرأة ، يعني أن تُرد إليه ، وبين مهرها وذلك لقضاء عمر رضي الله عنه .

فإذا اختلف الصحابة تخير من أقوالهم ما كان أقربها إلى الكتاب والسُّنَّة ، ولم يخرج - رحمه الله - عن أقوالهم ، فإن لم يتبين له موافقة أحد الأقوال حكى الخلاف فيها ولم يجزم بقول .

ثالثًا : سد الذرائع وحجيته عن ابن تيمية - رحمه الله - :

يقول ابن تيمية - رحمه الله - :

« إن الله سبحانه ورسوله سد الذرائع المفضية إلى المحارم بأن حرمها ونهى عنها ، والذريعة - يعني في اللغة - ما كان وسيلة إلى الشيء لكن صارت في عرف الفقهاء عبارة عما أفضت إلى فعل محرم ، ولو تجردت عن ذلك الإفضاء لم يكن فيها

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠ / ٥٨٣) .

مفسدة ، ولهذا قيل الذريعة : الفعل الذي ظاهره أنه مباح وهو وسيلة إلى فعل المحرم أما إذا أفضت إلى فساد ليس هو فعلاً كإفضاء الخمر إلى السُكر وإفضاء الزنا إلى اختلاط المياه ، أو كان الشيء في نفسه فساداً كالقتل والظلم ، فهذا ليس من هذا الباب فإنا نعلم أنما حرمت الأشياء لكونها في نفسها فساداً بحيث تكون ضرراً لا منفعة فيه أو لكونها مفضية إلى فساد بحيث تكون هي في نفسها فيها منفعة وهي مفضية إلى ضرراً أكثر منها فتحرم فإن كان الفساد فعل محظور سميت ذريعة ، وإلا سميت سبباً ومقتضياً ونحو ذلك من الأسماء المشهورة .

ثم إن هذه الذرائع منها ما يفضي إلى المكروه ، بدون قصد فاعلها ومنها ما تكون إباحتها مفضية للتوسل بها إلى المحارم فهذا القسم الثاني يجامع الحيل ، بحيث يقترن به الاحتيال تارة وقد لا يقترن ، كما أن الحيل قد تكون بالذرائع .

وقد تكون بأسباب مباحة في الأصل ليست ذرائع فصارت الأقسام ثلاثة :

الأول : ما هو ذريعة : وهو مما يحتال به كالجمع بين البيع والسلف ، وكاشتراء البائع السلعة من مشتريها بأقل من الثمن تارة وبأكثر أخرى ، وكالاعتياض من ثمن الربوي بربوى لا يُباع بالأول نسأ .

الثاني : ما هو ذريعة لا يحتال بها كسب الأوثان فإنه ذريعة إلى سب الله تعالى ، وكذلك الرجل والد غيره ، فإنه ذريعة إلى أن يسب والده ، وإن كان هذا لا يقصدهما مؤمن .

الثالث : ما يحتال من المباحات في الأصل كبيع النصاب في أثناء الحول فراراً من الزكاة وكإغلاء الثمن لإسقاط الشفعة .

والغرض هنا أن الذرائع حرمها الشارع ، وإن لم يقصد بها المحرم خشية إفضائها إلى المحرم ، فإذا قصد بالشيء نفس المحرم كان أولى بالتحريم من الذرائع ، وبهذا التحرير يظهر علة التحريم في مسائل العينة وأمثالها، وإن لم يقصد البائع الربا لأن هذه المعاملة يغلب فيها قصد الربا فيصير ذريعة ، فيسد هذا الباب لئلا يتخذه الناس ذريعة إلى

الربا ، ويقول القائل : لم أقصد به ذلك ، ولئلا يدعوا الإنسان فعله مره إلى أن يقصد مرة أخرى ، ولئلا يعتقد أن جنس هذه المعاملة حلال ولا يميز بين القصد وعدمه ، ولئلا يفعلها الإنسان مع قصد يخفى من نفسه على نفسه .

وللشريعة أسرار في سد الفساد وحسم مادة الشر لعلم الشارع بما جبلت عليه النفوس وبما يخفى على الناس من خفى هواها الذي لا يزال يسري فيها حتى يقودها إلى الهلكة ، فمن تحذلق على الشارع ، واعتقد في بعض المحرمات أنه إنما حُرِّم لعلة كذا ، وتلك العلة مقصودة فيه ، فاستباحه بهذا التأويل فهو ظلوم لنفسه ، جهول بأمر ربه ، وهو إن نجا من الكفر لم ينج غالبًا ؛ من بدعة أو فسق أو قلة في الدين وعدم بصيرة ، أما شواهد هذه القاعدة فأكثر من أن تُحصر ، فنذكر منها ما حضر .

وقد ذكر - رحمه الله - ثلاثين شاهداً على هذه القاعدة منها حرمة سب الأصنام عند من يُعلم من حاله أنه يسب الله عَدْوًا بغير علم ، ومنها حرمة الخلوة بالأجنبية والسفر بها حسمًا لمادة الشر والفساد ولم ينفرد شيخ الإسلام في الأخذ بمبدأ سد الذرائع ، فهو معمول به عند العلماء وإن لم يعتبره البعض أصلاً وتوسع ابن تيمية في هذا الباب يجعله أقرب ما يكون فيه إلى المالكية .

الاختيارات الفقهية لشيخ الإسلام ابن تيمية

ـ رحمه الله ـ

ذكر ابن عبد الهادي بعض اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه العقود الدرية ، ونقلها عنه ابن الألوسي في كتابه « جلاء العينين » ، وقد رأيت تفصيلاً وتقسيمًا لهذه الإختيارات في مقدمة رسالة الجامع للاختيارات الفقهية للدكتور أحمد موافي ، أنقله لك :

القسم الأول

الاختيارات المخالفة لما عليه الجمهور بالمعنى الواسع للجمهور

ومن أمثلتها :

[١] أن تارك الصلاة عمداً إذا تاب لا يشرع له قضاؤها .

[٢] أن من تجدد له سبب الصوم ـ كما إذا قامت البيِّنة بالرؤيا في أثناء النَّهار ـ يتم بقية صوم يومه ولا يلزمه قضاء ، وإن كان قد أكل .

[٣] جواز إقدام الحائض على الطواف عند الضرورة ولا فدية عليها .

[٤] أن الطلاق البدعي ـ الطلاق في الحيض أو في طهر بعد الوطء قبل أن يتبين حملها ـ لا يقع .

[٥] أن طلاق الثلاث المجموعة ـ في طهر واحد ـ محرم ، ولا يلزمه منه إلا طلقة واحدة .

[٦] أن من علق الطلاق على شرط والتزمه لا يقصد بذلك إلا الحظر أو المنع يجزئه كفارة يمين .

[٧] أن الخلع لا ينقص به عدد الطلاق ولو وقع بلفظ الطلاق .

[٨] أن المطلقة ثلاثًا « آخر التطليقات الثلاثة » ليس عليها إلا الاستبراء ، لا الاعتداد بثلاث حيض .

[٩] أن المختلعة يكفيها الاعتداد بحيضة .

[١٠] أن ارتضاع الكبير تنتشر به الحرمة إذا احتيج إلى جعله ذا محرم .

[١١] أنه يجوز بيع العصير بأصله كالزيتون بالزيت ، والسمسم بالشَّيْرَج .

[١٢] وأنه تجوز إجارة الحيوان لأخذ لبنه ، والشجر لأخذ ثمره .

[١٣] وأنه تجوز المسابقة بلا محل ولو أخرج المتسابقان .

[١٤] وأنه تجوز التضحية بما كان أصغر من جذع الضأن كمن ذبح قبل صلاة العيد جاهلاً بالحكم ، ولم يكن عنده ما يعتد به في الأضحية .

القسم الثاني

الاختيارات المخالفة لما عليه المذاهب الأربعة

[يعني المخالفة بالمعنى الضيق]

ومن أمثلتها :

[١] أن أقل الحيض لا يقدر ولا أكثره ، بل كل ما استقر عادة للمرأة فهو حيض وإن نقص عن يوم أو زاد على خمسة عشر .

[٢] أنه لا حد لأقل سن تحيض له المرأة ولا لأكثره ، ولا لأقل طهر بين الحيضتين.

[٣] وأنه يجوز قصر الصلاة في كل ما يسمى سفرًا قل أو كثر .

[٤] وأن الجمع لا يختص بالسفر الطويل، بل يجوز للحاجة كما في الجمع في المطر ، والجمع في المرض ، وكما جاءت السُّنَّة في الجمع للمستحاضة .

[٥] وأن سجود التلاوة لا يشترط له وضوء .

[٦] وأن بني هاشم إذا مُنِعُوا من الخُمس جاز لهم الأخذ من الزكاة .

[٧] وأنه يجوز لهم أيضًا أخذ زكاة الأغنياء من الهاشميين .

[٨] وأنه إذا شك هل طلع الفجر أو لم يطلع ؟ ، فاعتقد أنه ليل جاز أن يأكل ويشرب حتى يتبين الطلوع ، ولو علم بعد ذلك أنه أكل بعد طلوع الفجر فلا قضاء عليه .

[٩] أنه ليس للإحرام صلاة تخصه .

[١٠] أن المُحرم يجوز له عقد الرداء إذا احتاج إليه .

[١١] أنه يجوز لمن احتجم في رأسه وهو محرم حلق بعض شعره ـ إن احتاج لذلك ـ ولا شيء عليه .

[١٢] أنه يجوز وطيء الوثنيات بملك اليمين .

[١٣] أنه يجب على الزوج وطيء المرأة بقدر كفايتها ما لم ينهك بدنه ويشغله عن معيشته .

[١٤] أنه إذا استلحق الرجل ولده من الزِّنا ولا فراش لحقه .

[١٥] أن البكر إذا اشتريت لا يجب استبراؤها وإن كانت كبيرة ، لإنه لا زرع هناك .

[١٦] جواز بيع جميع البستان إذا صلح نوعه منه كما يجوز بيع النوع جميعه إذا بدأ صلاح بعضه .

[١٧] أن جميع المتلفات تضمن بالجنس ـ بحسب الإمكان ـ مع مراعاة القيمة حتى الحيوان .

[١٨] أن القصاص يكون في اللطمة والضربة والسبَّة .

القسم الثالث

الاختيارات التي وافق فيها شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - أحد المذاهب الأربعة وخالف الثلاثة الأخرى

[يعني ما خالف فيه الجمهور بالمعنى الضيق]

ومن أمثلتها :

[١] استحباب فسخ الحج إلى العمرة بالنسبة للقارن والمفرد .

[٢] أن الصواب خدمة المرأة لزوجها بالمعروف .

[٣] وجوب الكفارة على المرأة تظاهر زوجها .

[٤] أنه يجوز إبدال الوقف للحاجة أو للمصلحة .

[٥] أن الرهن إذا كان حيوانًا جاز للمرتهن أن ينتفع به ركوبًا أو حلبًا - بقدر نفقته عليه - ولو بغير إذن أهله .

[٦] جواز أن يكون أجر الوكيل في استيفاء المال جزءًا شائعًا من المال المستوفى ، وهي مسألة : « قفيز الطحان » .

[٧] أنه إذا دخل الرجل على امرأة فوجد عندها رجلاً أجنبيًا ، ووجدهما يفعلان الفاحشة فقتله فلا شيء عليه في الباطن ، ولا قود عليه في الظاهر .

[٨] أن المرأة تحد إذا وجدت حبلى ولم يكن لها زوج ولا سيد ، ولم تدَّع شبهة في الحمل ، ولقد أفردتَ من هذا البابَ ما وافق عليه ابن تيمية الفقه الحنفي « مخالفًا بذلك المذهب الثلاثة الأخرى » بالرغم من مآخذه على فقه مدرسة الرأي بوجه عام ، فمن ذلك :

« أ » أن ما ليس في اليد مثل الدين الذي على المعسر أو المماطل أو الجاحد - وفي معناه زكاة المغصوب - لا تجب فيه الزكاة .

﴿ ب ﴾ أن الإحرام لا يكون بمجرد ما في القلب ، بل لابد من قول أو عمل يصير محرمًا .

﴿ جـ ﴾ أن هدي التمتع والقرآن هدي نسك وليس هدي جبران .

﴿ د ﴾ ليس للولي أن يجبر ابنته البكر البالغ على النكاح .

﴿ هـ ﴾ أنه إذا حلف الرجل بالظِّهار أو الحرام لا يفعل شيئًا ثم يحنث في يمينه ، نظر في ذلك فإن قصد مجرد الحلف أجزأته كفارة يمين ، وإن قصد الإيقاع لزمته كفارة ظِهار .

﴿ و ﴾ إن الإخوة يحجبون بالجد .

﴿ ز ﴾ أن الأقراء الحيض .

﴿ حـ ﴾ أن الفرقة بسبب الدين - كإسلام امرأة الكافر - إنما توجب استبراء بحيضة واحدة ، لا الاعتداد بثلاثة قروء .

﴿ ط ﴾ جواز بيع الأرض الخراجية .

﴿ ي ﴾ ثبوت الشفعة فيما لا يقبل قسمة الإجبار .

﴿ ك ﴾ ثبوت الشفعة للجار .

﴿ ل ﴾ أن ما أشرف على الموت من المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ، إذا كان حيًّا فذكي حل أكله ، ولا يعتبر في ذلك حركة مذبوح .

القسم الرابع

الاختيارات التي وافق فيها ابن تيمية بعض الفقهاء وخالف البعض الآخر وأحياناً كان يوافق الجمهور

الاختيارات كثيرة جداً ، ومعلومة مما يغني عن ذكرها .

القسم الخامس

الاختيارات التي كان مذهب ابن تيمية فيها وسطًا بين مذهبي العلماء

ومن أمثلها :

[١] جواز إخراج القيمة في الزكاة للحاجة أو المصلحة أو العدل .

[٢] وأنه يجوز صيام يوم الغيم احتياطًا « والمقصود بصيام يوم الغيم هو إذا ما حال دون مطلع الهلال غيم ، أو قتر ليلة الثلاثين من شعبان » .

[٣] وأنه يعتبر اختلاف المطالع ، وذلك فيما تباعد من البلدان ، أما ما تقارب بحيث إن ظهرت الرؤية في واحدة منها أمكن أن يبلغ ذلك من يسكن البلد الأخرى - في الوقت الذي يؤدي بتلك الرؤية الصوم أو الفطر أو النُّسك - فإنه يجب الاعتبار بتلك الرؤية .

[٤] أن الوطء مع النيَّة يكون رجعة .

[٥] أن الموطوءة بشبهة والمزني بها ليس عليهما إلا الاستبراء بحيضة واحدة .

[٦] جواز بيع الأعيان الغائبة .

[٧] جواز الاستئجار على تلاوة القرآن بشرط الحاجة .

[٨] أنه إذا تصرف في المغصوب بما أزال اسمه كان للمالك أن يأخذه مع تضمين النقص ، أو أن يطالب بالبدل .

[٩] أن حد شرب الخمر أربعون جلدة ، وزيادة الأربعين الأخرى يفعلها الإمام عند الحاجة ، كما لو أدمن الناس الخمر ، أو كان الشارب ممن لا يرتدع بدونها .

صفوة القول فيما يتعلق بأصول ابن تيمية واختياراته

كان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عالمًا مجتهدًا ، اجتهادًا مطلقًا ، فلم يتقيد بمذهب من المذاهب الأربعة في كل فتاويه ، بل له اختيارات خالف فيها المذاهب الأربعة ، وهو في ذلك لم يصدر عن هواه ، بل جاءت وفق الأصول التي قررها بأدلتها ، وابن تيمية يلتقي مع الإمام أحمد في الأصول العلمية التي عوَّل عليها واستند إليها ، أي أنه حنبلي [(١)] المشرب وهو قد يوافق في بعض اجتهادات المذهب الظاهري أو الفقه الشيعي ، وهو نوع من التوافق في النتائج ليس غير ، إذ ليس ذلك منه - رحمه الله - إقراراً بصحة أصولهم ، ومن أمثلة ذلك موافقته للمذهب الظاهري في أن تارك الصلاة عمداً لا يشرع له قضاؤها ، وعليه أن يتوب إلى الله ويكثر من الحسنات الماحية ، ولأن تارك الصلاة يُستتاب .

وقد يخالف ابن تيمية - رحمه الله - قول الجمهور ، ولكنه لا يخرق الإجماع إذ إجماع الأُمَّة حجة بالمعنى الذي قرره : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥) ﴾ [النساء : ١١٥] ، وله سلف في كل ما ذهب إليه من اختيارات واجتهادات ، وقد راعى في ذلك مقاصد التشريع من تحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، وترجيح خير الخيرين ، ودفع شر الشرين ، وتحصل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما ، ودفع أعظم المفسدتين بتحمل أدناهما .

ويصح أن يُقال عن شيخ الإسلام - رحمه الله - أنه فقيه عصره والعصور التي تلت، فالقول بغلق باب الاجتهاد بعد قرون الخيرية تضييق للواسع ، ومصادمة لما هو واقع،

---

(١) لا يجوز استخدام كلمة حنبلي في معرض التهكم والانتقاص ، إذ الإمام أحمد أحد الأئمة المعتبرين ، وهو إمام أهل السُّنَّة ، ولحوم العلماء مسمومة ، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة ، وإذ لم يكن العلماء بأولياء لله فليس لله ولي ، كما قال الشافعي - رحمه الله - .

ووجود أمثال ابن تيمية خير شاهد على بطلان هذا القول ، إذ فتواه تُبرز أهمية العلماء وصلاحية الفقه الإسلامي للحكم على واقع الحياة ومجريات الأمور من غير أن يختلف ذلك في زمن من الأزمنة أو مكان من الأمكنة .

وفي اجتهاداته ـ رحمه الله ـ الحلول الشرعية لعدد من القضايا التي اختلفت فيها الأنظار مما يدرأ به الخلاف ويرتفع به النزاع وتلتقي عليه الأدلة ، ومن أمثلة ذلك نظرية العقد في الشريعة الإسلامية ، وكلامه في الطلاق الذي ارتفع به الكثير من الحرج الواقع بين الناس، ولعل هذا هو الذي دفع لجنة الفتوى بالأزهر والمحاكم بمصر للأخذ بفتوى ابن تيمية في الطلاق المعلق على شرط، والطلاق بالثلاثة « المجموع في لفظ واحد » .

توضيحه لأصول الاجتماع والائتلاف :

يقول شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في العقيدة الواسطية : « ثم من طريقة أهل السُّنَّة والجماعة : اتباع آثار رسول الله ﷺ باطنًا وظاهرًا ، واتباع سبيل الأولين من المهاجرين والأنصار ، واتباع وصية رسول الله ﷺ حيث قال : « **عليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها وعضُّوا عليها بالنواجز ، وإيَّاكم ومحدثَات الأمور ، فإن كل مُحدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة** » [(١)] .

ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله ، وخير الهدي، هدي محمد ﷺ ، ويؤثرون كلام الله على غيره من كلام أصناف الناس ، ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد ، ولهذا سموا : « أهل الكتاب والسُّنَّة ، وسموا أهل الجماعة لأن الجماعة هي الاجتماع ، وضدها الفُرقة ، وإن كانت لفظ الجماعة قد صار اسمًا لنفس القوم المجتمعين والاجتماع [(٢)] هو الأصل الثالث ، الذي يعتمد عليه في العلم والدين ،

---

(١) الحديث رواه العرباض بن سارية ، وأخرجه ابن ماجه وابن حبان ، وأبو داود ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٢) **الأصول الثلاثة عند ابن تيمية ـ رحمه الله ـ هي** : الكتاب والسُّنَّة والإجماع ، لاشتمالها على أصول الدين وفروعه ، وباطنه وظاهره وعلمه وعمله ، والإجماع هو اتفاق العلماء المعتبرين من الأمة على مسألة فيها نص من الكتاب والسُّنَّة .

وهم يزنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة أو ظاهرة ، معاملة تعلق بالدين والاجتماع « الإجماع » الذي ينضبط هو ما كان عليه السلف الصالح إذ بعدهم كثر الإختلاف وانتشرت الأمة » .

وتحدَّث شيخ الإسلام - رحمه الله - في خلاف الأُمَّة في العبادات ومذاهب أهل السُّنَّة والجماعة ، وذكر أنواع الفساد الذي حصل بسبب هذا الخلاف والتنازع كالجهل والظلم واتباع الظن وما تهوى الأنفس ، إلى أن قال : « الرابع : التفرق والاختلاف المخالف للإجماع ، والاجتماع حتى يصير بعضهم إلى الطعن واللعن والهمز واللمز ، وببعضهم إلى الاقتتال بالأيدي والسلاح، وببعضهم إلى المهاجرة والمقاطعة حتى لا يصلي بعضهم خلف بعض ، وهذا كله من أعظم الأمور التي حرمها الله ورسوله ، والاجتماع والائتلاف من أعظم الأمور التي أوجبها الله ورسوله ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ .

[آل عمران : ١٠٢ - ١٠٦] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ تبيض وجوه أهل السُّنَّة والجماعة ، ﴿ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ وتسود وجوه أهل البدعة والفُرقة » .

وكثير من هؤلاء يصير من أهل البدعة بخروجه عن السُّنَّة التي شرعها رسول الله ﷺ لأُمَّته ، ومن أهل الفرقة المخالفة للجماعة التي أمر الله بها ورسوله ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٥٩] .

وقال تعالى :﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ .

[البقرة : ٢١٣] .

وقال تعالى :﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ [الأنفال : ١] .

وقال تعالى :﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٠].

وقال تعالى :﴿ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ .

[النساء : ١١٤] .

وهذا الأصل العظيم وهو الاعتصام بحبل الله جميعًا وأن لا نتفرق هو من أعظم أصول الإسلام ، ومما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه ، ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم ، ومما عظمت به وصية النَّبي ﷺ في مواطن عامة وخاصة مثل قوله :« عليكم بالجماعة ، فإن يد الله مع الجماعة » (١) ، وقوله ﷺ :« فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الإثنين أبعد » (٢) ، وباب الفساد الذي وقع في هذه الأمة بل وفي غيرها هو التفرق بين أمرائها وعلمائها وملوكها ، ومشايخها وغيرهم ، من ذلك ما الله به عليم ، وإن كان بعض ذلك مغفوراً لصحابه لاجتهاده الذي يغفر فيه خطؤه أو لحسناته الماحية أو توبته أو لغير ذلك لكن يعلم أن رعايته من أعظم أصول الإسلام ، ولهذا كان امتياز أهل النَّجاة « أهل السُّنَّة والجماعة » عن أهل العذاب من هذه الأُمَّة ، ويذكرون في كثير من السُنن والآثار في ذلك ما يطول ذكره ، وكان الأصل الثالث بعد الكتاب والسُّنَّة الذي يجب تقدم العمل به هو الإجماع ، فإن الله لا يجمع هذه الأُمَّة على ضلالة » أ . هـ .

وقال ـ رحمه الله ـ في توحد الملة وتعدد الشرائع وتنوعها : (٣)

« إذا كان الله تعالى قد أمرنا بطاعته وطاعة رسوله ﷺ ، وأُولي الأمر منا وأمرنا

---

(١) ، (٢) حديث رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح (ح/٢٠٩١) وهو بلفظه عند أحمد والنسائي .

(٣) راجع كتابي « الضوابط الشرعية لتحقيق الأخوة الإيمانية » من مطبوعات دار الإيمان الإسكندرية .

عند التنازع في شيء أن نرده إلى الله والرسول ، وأمرنا بالاجتماع والائتلاف ، ونهانا عن التفرق والاختلاف ، وأمرنا أن نستغفر لمن سبقنا بالإيمان ، وسمَّانا المسلمين ، وأمرنا أن ندوم عليها إلى الممات ، فهذه النصوص وما كان في معناها توجب علينا الإجماع في الدين كاجتماع الأنبياء قبلنا في الدين وولاة الأُمور فينا هم خلفاء الرسول إلى أن قال : « فالأصول الثابتة بالكتاب والسُّنَّة والإجماع هي بمنزلة الدين المشترك بين الأنبياء ليس لأحد خروج عنها ، ومن دخل فيها كان من أهل الإسلام المحض وهم أهل السُّنَّة والجماعة ، وما تنوعوا فيه من الأعمال والأقوال المشروعة ، فهي بمنزلة ما تنوعت فيه الأنبياء » أ . هـ .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
وضابط ذلك عند ابن تيمية - رحمه الله -

ذكر شيخ الإسلام أصول أهل السُّنَّة ، ثم قال في العقيدة الواسطية : « ثم هم مع هذه الأصول يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة ، ويرون إقامة الحج والجهاد والجُمَع والأعياد مع الأمراء أبراراً كانوا أو فجاراً ، ويحافظون على الجماعات ، ويدينون بالنصيحة للأمة ويعتقدون معنى قوله ﷺ : « **مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر** » (١) . أ . هـ .

والأمر بالمعروف يشمل النصيحة والجهاد والدعوة وعزل الحاكم إذا استوجب الأمر ذلك ، والعمل لإقامة المجتمع الإسلامي ، وأعلى المعروف الإيمان بالله هو شامل للواجب والمستحب ، والمنكر شامل للمكروه والحرام ، وأعلى درجاته الكفر والشرك بالله تعالى .

والأمر بالمعروف فرض على الكفاية ، وهو أحياناً يجب وأحياناً يُستحب وأحياناً يُحرم (٢) ، ولا يجب إلا في حال الإستطاعة ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، وفي الحديث : « **من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان** »[رواه مسلم] ، ولابد من تحقيق المصلحة ودفع المضرة والمفسدة في ذلك ، كما بين شيخ الإسلام بقوله وفعله ، فقد كان بعض أتباعه يطلب منه الإنكار على التتار في شربهم الخمر ، فكان يقول : الخمر تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهؤلاء - يعني التتار - تصدهم الخمر عن قتل المسلمين وانتهاك أعراضهم ، وقد أوضح - رحمه الله - في رسالة الأمر بالمعروف من مجموع الفتاوى أن النَّبي ﷺ نهى عن قتل ابن سلول المنافق رغم كيده للإسلام

---

(١) حديث صحيح رواه النعمان بن بشير وأخرجه أحمد .

(٢) راجع كتابي : « تحصيل الزاد في تحقيق الجهاد » من مطبوعات دار الإيمان ، الإسكندرية .

ومؤامراته للفتك برسول الله ﷺ ، وذلك لئلا ترعد له أنف كثيرة بيثرب ، وقال النَّبي ﷺ : « **فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه** »(١) ، فقتل ابن سلول كان يتضمن مفسدة تغلب المصلحة ، ولذلك ورد النَّهي وشرع الله مصلحة كله ، وحيثما كانت المصلحة فثمَّ شرع الله ، كما بين شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم .

معاملة الشيخ في سجنه :

وما زال الشيخ تقي الدين في هذه المدة معظمًا مكرمًا ، يكرمه نقيب القلعة ونائبها إكرامًا كثيراً ، ويستعرضان حوائجه ويبالغان في قضائها ، وكان ما صنفه في هذه المدة قد خرج من عنده ، وكتبه بعض أصحابه واشتهر وظهر ، فلما كان قبل وفاته بأشهر ورد مرسوم السلطان بإخراج ما عنده كله ، ولم يبق عنده كتاب ولا ورقة ، ولا دواة ولا قلم ، وكان بعد ذلك إذا كتب ورقة إلى بعض أصحابه يكتبها بفحم ، وقد رأيت أوراقًا عدة بعثها إلى أصحابه وبعضها مكتوب بفحم .

---

(١) رواه البخاري (٤٥٢٥) ، ومسلم (٤٦٨٢) .

وفاة الشيخ - رحمه الله - بالقلعة
وما كتب بها قبل موته

ثم إن الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ بقي مُقيمًا بالقلعة سنتين وثلاثة شهور وأيامًا ، ثم توفي إلى رحمة الله ورضوانه ، وما برح في هذه المدة مُكبًّا على العبادة والتلاوة وتصنيف الكتب والرد على المخالفين ، وكتب على تفسير القرآن جملة كثيرة تشتمل نفائس جليلة ، ونكتًا دقيقة ، ومعاني لطيفة ، وبين في ذلك : مواضع كثيرة أُشكلت على خلقٍ من علماء أهل التفسير ، وكتب في المسألة التي حُبِسَ بسببها عدة مجلدات : منها الرد على ابن الإخنائي قاضي المالكية بمصر ، وتعرف بـ : « الإخنائية » ومنها كتاب كبير حافل في الرد على بعض قضاة الشافعية ، وأشياء كثيرة في هذا المعنى أيضًا .

قال ابن عبد الهادي في « العقود الدرية : قال الشيخ علم الدين :

« وفي ليلة الإثنين لعشرين من ذي القعدة من سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ، توفي الشيخ الإمام العلامة الفقيه ، الحافظ ، الزاهد ، القدوة ، شيخ الإسلام ، تقي الدين أبو العباس أحمد ، ابن شيخنا الإمام المفتي ، شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم ، ابن الشيخ الإمام شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات عبد السلام عبد الله ابن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني ، ثم الدمشقي بقلعة دمشق التي كان محبوسًا فيها ، وحضر جمع إلى القلعة ، فأُذِنَ له في الدخول ، وجلس جماعة قبل الغُسل وقرأوا القرآن وتبركوا برؤيته وتقبيله ثم انصرفوا ، وحضر جماعة من النساء ففعلن مثل ذلك ثم انصرفن ، واقتصر على من يُغَسِّل ويعين في الغُسل ، فلما فرغ من ذلك أُخرج ، وقد اجتمع النَّاس بالقلعة والطريق إلى جامع دمشق ، وامتلاء الجامع وصحنه ، وباب البريد وباب الساعات إلى باب اللبادين والفوارة .

شهادة أئمة الإسلام لابن تيمية
- رحمه الله -

العلامة القاضي ابن سوار السُبكي - رحمه الله - :

قال لبعض من لقيه : « والله يا فلان ما يُبغض ابن تيمية إلا جاهل،أو صاحب هوى، الجاهل لا يدري ما يقول،وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق بعد معرفته » أ . هـ .

الإمام العلامة ابن الحريري الحنفي - رحمه الله - :

كان - رحمه الله - يقول : « إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام ، فمن ؟ » ، وكتب في محضر أثناء محاكمة الشيخ : إنه منذ ثلاثمائة سنة ما رأى الناس مثل ابن تيمية » أ . هـ .

الإمام العالم كمال الدين الزملكاني - رحمه الله - :

قال : « لم يُرَ من خمسائة سنة أحفظّ منه » أ . هـ .

وقال أيضًا - رحمه الله - : « سيدنا وشيخنا وقدوتنا الشيخ الإمام العالم العلامة الأوحد البارع الحافظ الزاهد الورع القدوة الكامل العارف تقي الدين شيخ الإسلام ، سيد العلماء ، قدوة الأئمة الفضلاء ، وناصر السُّنَّة ، قامع البدعة ، حجة الله على العباد ، رادّ أهل الزيغ والعناد ، وأحمد العلماء العاملين ، وآخر المجتهدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني ، أعلى الله مناره ، وشيَّد به من الدين أركانه :

ماذا يقول الواصفون له ... ومحاسنه جُلَّت عن الحصر
هو حُجَّة لله قاهرة ... هو بيننا أعجوبة الدهر
هو آية في الخلق ظاهرة ... أنوارها أربت على الفجر

شيخ الإسلام الإمام تقي الدين أبو الفتوح محمد بن علي ابن دقيق العيد ـ رحمه الله ـ قال لشيخ الإسلام لما لقيه وسمعه :

« ما كنت أظن أن الله تعالى بقى يخلق مثلك » أ . هـ .

الإمام العلامة ابن الوردى ـ رحمه الله ـ :

قال : « وحضرت مجالس ابن تيمية ، فإذا هو بيت القصيدة ، وأول الخريدة ، علماء زمانه فلك هو قطبه ، وجسم هو قلبه ، يزيد عليهم زيادة الشمس على البدر ، والبحر على الفطر ، حضرت بين يديه يومًا ، فأصبت المعنى ، وكنَّاني وَقَبَّل بين عيني اليمنى ، وقلت :

إن ابن تيمية في كل العلوم أوحد
أحييت دين أحمدٍ وشرعه يا أحمد أ .هـ

حافظ الإسلام محدث الأعلام ، أستاذ أئمة الجرح والتعديل شيخ المحدثين أبو الحجاج يوسف بن الزكي المزّى الشافعي ـ رحمه الله ـ :

قال : « ما رأيت مثله ، ولا رأى هو مثل نفسه ، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله ، وسُنَّة رسوله ﷺ ، ولا أتبع لهما منه » أ . هـ .

العلامة الإمام الشيخ إبراهيم الرقى - رحمه الله - :

قال : « الشيخ تقي الدين يؤخذ عنه ، ويُقد في العلوم ، فإن طال عمره ملأ الأرض علمًا ، وهو على الحق ، ولابد ما يعاديه الناس ، فإنه وارث علم النبوة » أ.هـ.

أمير المؤمنين في الحديث الحافظ الذي عقمت النساء أن تلد مثله شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ رحمه الله ـ :

قال : « وشهرة إمامة الشيخ تقي الدين أشهر من الشمس ، وتلقيبه بشيخ الإسلام في عصره باق إلى الآن على الألسنة الزكية ، ويستمر غداً كما كان بالأمس ، ولا ينكر ذلك إلا من جهل مقداره ، أو تجنب الإنصاف ... » أ . هـ .

ثناء العلماء على شيخ الإسلام

- رحمه الله -

قال ابن الألوسي في « جلاء العينين » :

« هو شيخ الإسلام ، وحافظ الأنام ، المجتهد في الأحكام ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي ، وفي تاريخ إربل : أن جده سُئل عن اسم تيمية فأجاب : أن جده حج وكانت امرأته حاملاً ، فلما كان بتيماء - بلدة قرب تبوك - رأى جارية حسناء الوجه قد خرجت من خباء ، فلما رجع وجد امرأته قد وضعت جارية ، فلما رفعوها إليه قال : يا تيمية يا تيمية ، يعني أنها تشبه التي رآها بتيماء ، فسُمي بها » . أ . هـ .

وقد وُلِدَ بحران يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة ، وقدم به والده وبأخويه عند استيلاء التتار على البلاد إلى دمشق سنة سبع وستين وستمائة .

فأخذ الفقه والأصول عن والده، وسمع من خلق كثير منهم الشيخ شمس الدين، والشيخ زين الدين بن المنجا ، والمجد بن عساكر ، وقرأ العربية على ابن عبد القوي، ثم أخذ كتاب سيبويه فتأمله وفهمه ، وعني بالحديث ، وسمع الكتب الستة والمسند مرات ، وأقبل على تفسير القرآن الكريم فبرز فيه ، وأحكم أصول الفقه والفرائض والحساب والجبر والمقابلة ، وغير ذلك من سائر العلوم ، ونظر في الكلام والفلسفة وبرز في ذلك على أهله ، ورده على رؤسائهم وأكابرهم ، ومهر في هذه الفضائل ، وتأهل للفتوى والتدريس وله دون العشرين سنة، وتضلع في علم الحديث وحفظه حتى قالوا : إن كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فهو ليس بحديث ، وأمده الله تعالى بكثرة الكتب ، وسرعة الحفظ ، وقوة الإدراك والفهم وبطء النسيان حتى قال غير واحد : إنه لم يكن يحفظ شيئًا فينساه .

مؤلفات شيخ الإسلام

- رحمه الله -

قال ابن الآلوسي - رحمه الله - :

« ... وألف في أغلب العلوم التأليفات العديدة ، وصنف التصانيف المفيدة في التفسير والفقه ، والأصول والحديث ، والكلام والردود على الفِرق الضالة والمبتدعة ، وله الفتاوى المفصلة ، وحل المسائل المعضلة ، ومن تصنيفاته التي تبلغ ثلثمائة تصنيف : « درء تعارض العقل والنقل » أربع مجلدات ، و« الجواب الصحيح » - رداً على النصارى - أربع مجلدات ، و « شرح عقيدة الأصفهاني » مجلد ، و« الرد على الفلاسفة » ، أربع مجلدات ، وكتاب « إثبات المعاد » ، والرد على ابن سينا ، وكتاب « ثبوت النبوات عقلاً ونقلاً » ، و « المعجزات والكرامات » ، وكتاب « إثبات الصفات » مجلد ، وكتاب « العرش » ، وكتاب « رفع الملام عن الأئمة الأعلام » ، وكتاب « الرد على الإمامية » رداً على ابن المطهر الحلي مجلدين كبيرين ، وكتاب « الرد على القدرية » ، وكتاب « الرد على الإتحادية والحلولية » ، وكتاب في « فضائل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما » ، وكتاب « تفضيل الأئمة الأربعة » ، وكتاب « شرح العمدة في الفقه » أربع مجلدات ، وكتاب « الدرة المُضية في فتاوى ابن تيمية » ، وكتاب « المناسك الكبرى والصغرى » ، وكتاب « الصارم المسلوم على من سب الرسول » ، وكتاب في « الطلاق ، وكتاب « خلق أفعال العباد » ، وكتاب « الرسالة البغدادية » ، وكتاب « التحفة العراقية » ، وكتاب « إصلاح الراعي والرعية » ، وكتاب في « الرد على تأسيس التقديس » للرازي في سبع مجلدات ، وكتاب في « الرد على المنطق » ، وكتاب « الفرقان » ، وكتاب « منهاج السُنَّة النبوية » ، وكتاب « الاستقامة » مجلدين ، وغير ذلك .

كمال الدين بن الزملكاني : « بسم الله الرحمن الرحيم ، نقلت من خط الحافظ علم الدين البرازلي : « قال سيدنا وشخينا الإمام العلامة ،القدوة الحافظ، الزاهد العابد الورع ، إمام الأئمة ، خير الأُمَّة مفتي الفرق ، علامة الهدى، ترجمان القرآن، حسنة الزمان، عمدة الحفاظ ، فارس المعاني والألفاظ ، ركن الشريعة ، ذو الفنون البديعة ، ناصر السُّنَّة ، قامع البدعة ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني ، أدام الله تعالى بركته ، ورفع درجته .

الحمد لله الذي علَّم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الباهر البرهان ، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله ، المبعوث إلى الإنس والجان ، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا يرضى به الرحمن .

سألت وفقك الله تعالى عن معنى حرف « لو » وكيف يتخرج قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » على معناها المعروف ، وذكرت أن الناس يضربون في ذلك ، واقتضيت الجواب اقتضاء أوجب أن أكتب في ذلك ما حضرني الساعة مع بعد عهدي بما بلغني ما قاله الناس في ذلك ، وأنه لا يحضرني الساعة ما أرجعه في ذلك فأقول . . . أ . هـ . بحروفه .

ثم ساق الإمام السيوطي آخر الجواب إلى نهايته ، وأقرَّ المترجم على ترجمته ، فإن أردته فارجع إلى الأشباه والنظائر ، فإن فيه جلاء الأبصار والبصائر .

رأى الحافظ ابن سيد الناس في ابن تيمية :

وكتب الحافظ ابن سيد الناس : « ألفيته ممن أدرك العلوم حظًّا ، وكاد يستوعب السُنن والآثار حفظًا ، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته وإن أفتى في الفقه فهو مدرك غايته ، أو بالحديث فهو صاحب علمه وذو روايته ، أو حاضر بالملل والنحل لم ير أوسع من نحلته ، ولا أرفع من درايته ، برز في كل علم على أبناء جنسه ، ولم تر عين من رآه مثله ، ولا رأت عينه مثل نفسه . . . » أ . هـ .

رأي ابن الوردي في ابن تيمية - رحمه الله - :

وقال ابن الوردي في تاريخه وقد عاصره ورآه :

« وكانت له خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم ، ومعرفة بفنون الحديث مع حفظه لمتونه الذي انفرد به ، وهو عجيب في استحضاره واستخراج الحجج منه ، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة والمُسند ، بحيث يصدق عليه أن يقال : « كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث » ، ولكن الإحاطة لله تعالى ، غير أنه يغترف فيه من بحر ، وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي، وأما التفسير فسُلم إليه ، وكان يكتب في اليوم والليلة من التفسير أو من الفقه أو من الأصلين أو من الرد على الفلاسفة عنواً من أربعة كراريس .

وله التآليف العظيمة في كثير من العلوم ، وما يبعد أن تصانيفه تبلغ خمسمائة مجلداً ، وله الباع الطويل في معرفة الصحابة والتابعين ، قلَّ أن يتكلم في مسألة إلا ويذكر فيها مذاهب الأربعة ، وقد خالف الأربعة في مسائل معروفة ، وصنَّف فيها واحتج لها بالكتاب والسُّنَّة ، وبقى سنين يفتي بما قام الدليل عنده ، ولقد نصر السُّنَّة المحضة بالطريقة السلفية، وكان دائم الابتهال، كثير الاستعانة قوي التوكل، ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يديمها ،لا يداهن ولا يحابي، محبوباً عند العلماء والصلحاء ، والأمراء والتجار والكبراء ، وصار بينه وبين بعض معاصريه وقعات مصرية وشامية لبعض مسائل أفتى فيها بما قامت عنده بالأدلة الشرعية ، واجتمع بالسلطان محمود غازان السفاك المغتال ، وتكلم معه بكلام خشن ولم يهبه ، وطلب منه الدعاء فرفع يديه ودعا دعاء منصف أكثره عليه ، وغازان يؤمن على دعائه » . انتهى ملخصاً ، وأطال في الترجمة .

رأى الواسطي - رحمه الله - :

وقال العلامة عماد الواسطي في حقه بعد ثناء طويل جميل ما لفظه :

« فوالله ثم والله لم يُرَ تحت أديم السماء مثل شيخكم ابن تيمية ، علمًا وعملاً

وحالاً وخلقًا ، واتباعًا وكرامًا وحلمًا ، وقيامًا في حق الله تعالى عند انتهاك حرماته ، أصدق الناس عقدًا ، وأصحهم علمًا وعزمًا ، وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه همة ، وأسخاهم كفًا ، وأكملهم اتباعًا لنبيه محمد ﷺ ، وما رأينا في عصرنا هذا من تستجلي النبوة المحمدية وسُننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل ، يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الاتباع حقيقة » أ . هـ .

رأي ابن دقيق العيد - رحمه الله - :

ونقل في الشذرات عن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد وقد سُئل عن ابن تيمية بعد اجتماعه به كيف رأيته ؟ ، قال : « رأيت رجلاً سائر العلوم بين عينيه ، يأخذ ما شاء منها ويترك ما شاء » ، فقيل له : فَلِمَ لا تتناظران ؟ ، قال : « لأنه يحب الكلام ، وأحب السكوت » .

رأي تقي الدين السبكي - رحمه الله - :

وقال ابن مفلح في طبقاته : « كتب العلامة تقي الدين السبكي إلى الحافظ الذهبي في أمر الشيخ تقي الدين بن تيمية ما نصه : « فالمملوك يتحقق قدره وزخارة بحره ، وتوسعته في العلوم الشرعية والعقلية ، وفرط ذكائه واجتهاده ، وأنه بلغ في ذلك المبلغ الذي يتجاوزه الوصف ، والمملوك يقول ذلك دائمًا ، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجلّ ، مع ما جمعه الله تعالى من الزهادة والورع ، والديانة ونصرة الحق والقيام فيه ، لا لغرض سواه ، وجريه على سُنن السلف ، وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى ، وغرابة مثله في هذا الزمان بل في أزمان » أ . هـ .

رأي الحافظ ابن حجر العسقلاني - رحمه الله - : :

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في ترجمته المطنبة : « إن الفتنة لما ثارت على الشيخ ابن تيمية من جهة بعض كلماته ، تعصب له القاضي الحنفي ونصره ، وسكت القاضي الشافعي ولم يكن له ولا عليه ، وكان من أعظم القائمين عليه الشيخ نصر بن المنبجي ، لأنه كان بلغ ابن تيمية أنه يتعصب لابن عربي ،

فكتب يعاتبه على ذلك ، فما أعجبه لكونه بلغ في الحط على بن عربي وتكفيره ، فصار هو يحط على ابن تيمية ، ويغري بيبرس الجاشنكير ، وكان بيبرس يفرط في محبته ويعظمه ، واتفق أن قاضي الحنفية بدمشق وهو شمس الدين بن الحريري انتصر للشيخ ابن تيمية وكتب في حقه محضراً بالثناء عليه بالعلم والفهم ، وكتب به في خطة ثلاثة عشر سطراً من جملتها : أنه منذ ثلاثمائة سنة ما رأى الناس مثله » أ . هـ .

ونقل الإمام العسقلاني أيضًا عن الحافظ الذهبي أنه قال :

« حضر عند شيخنا أبو حيان المفسر فقال : ما رأت عيناي مثل هذا الرجل ! ، ثم مدحه بأبيات ذكر أنه نظمها بديهة ، وأنشده إياها وهي :

لما أتانا تقي الدين لا لنا ... داع إلى الله فرد ماله وزر
على محياه من سيما الألى صحبوا ... خير البرية نور دونه القمر
حبر تسربل منه دهره حبراً ... بحر تقاذف من أمواجه الدرر
قام ابن تيمية في نصر شرعتنا ... مقام سيد تيم إذا مضت مضر
وأظهر الحق إذا آراه اندرست ... وأحمد الشر إذا طارت له شرر
يا من يُحدِّث عن علم الكتاب أغص ... هذا الإمام قد كان ينتظر

يشير بهذا إلى أنه المجدد وقد صرح بذلك أيضًا العماد الواسطي ، ثم دار بينهما كلام فجرى « ذكر سيبوبه فأغلظ الشيخ ابن تيمية القول في سيبويه ، فناظره ابن حيان بسببه ، ثم عاد ذامًّا له ، وصيَّر ذلك ذنبًا لا يُغفر .

ويقال إن ابن تيمية قال له : « ما كان سيبويه نبي النحو ولا معصومًا ، بل أخطأ في الكتاب في ثمانين موضعًا ما تفهمها أنت ، فكان ذلك سبب مقاطعته إياه، وذكره في تفسير « البحر » بكل سوء ، وكذا في مختصر « النهر » أ . هـ .

وحضرت الجنازة في الساعة الرابعة من النهار ، أو نحو ذلك ، ووضعت في الجامع والجند يحفظونها من الناس من شدة الزحام ، وصلى عليه ـ أولاً ـ بالقلعة تقدم في الصلاة عليه الشيخ محمد بن تمام ،ثم صلي عليه بجامع دمشق، عقيب صلاة الظهر ،

وحُمل من باب البريد ، واشتد الزحام وألقى الناس على نعشه مناديلهم وعمائمهم للتبرك ، وصار النعش على الرؤوس ، وتارة يتقدم وتارة يتأخر ، وخرج الناس من الجامع من أبوابه كلها من شدة الزحام ، وكل باب أعظم زحمة من الآخر ، ثم خرج الناس من أبواب البلد جميعها من شدة الزحام ، لكن كان المعظم من الأبواب الأربعة : باب الفرج الذي أُخرجت منه الجنازة ، ومن باب الفراديس، ومن باب النصر ، وباب الجابية ، وعظم الأمر بسوق الخيل ، وتقدم في الصلاة عليه أخوه زين الدين عبد الرحمن ، وحُمِلَ إلى مقبرة الصوفية فدُفِنَ إلى جانب أخيه شرف الدين عبد الله ـ رحمهما الله ـ ، وكان دفنه وقت العصر أو قبلها بيسير ، وأغلق الناس حوانيتهم ، ولم يتخلف عن الحضور إلا القليل من الناس ، أو ممن أعجزه الزحام وحضرها نساء كثير بحيث حُزرن بخمسة عشر ألفًا ، أما الرجال فحزروا بستين ألفًا أو أكثر إلى مئة ألف (١) ، وشرب جماعة الماء الذي فضل من غُسله ، واقتسم جماعة بقية السدر الذي غُسل به ، وقيل إن الطاقية التي كانت على رأسه دُفِعَ فيها خمسمائة درهم ، وقيل : إن الخيط الذي فيه الزئبق الذي كان في عنقه بسبب القمل دُفِعَ فيه مئة وخمسون درهمًا ، وحصل في الجنازة ضجيج وبكاء ، وتضرع ، وختمت له ختم كثيرة بالصالحية والبلد ، وتردد الناس في قبره أيامًا ليلاً ونهاراً ، ورؤيت له منامات كثيرة صالحة ، ورثاه جماعة بقصائد جمَّة » .

وذكر ابن كثير أنه لم يتخلف عن الحضور إلا ثلاثة ، وخرج في جنازته الأمراء والرؤساء والعلماء والفقهاء ، والأجناد والرجال والنساء والصبيان من الخواص والعوام ، إلى أن قال : « والجميع يبكين عليه ، لأنه كان أُمَّة وحده ، وفرداً حتى نزل في لحده ، وكانت سيرة حياته حافلة بالجهاد والمعاناة والمِحن » .

قال ابن عبد الهادي : ولما مات كنت غائبًا عن دمشق بطريق الحجاز الشريف ، وبلغنا خبره بعد موته بأكثر من خمسين يومًا ، لما وصلنا إلى تبوك ، وحصل التأسف لموته رحمه الله تعالى .

---

(١) كان الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ يقول : « قولوا لأهل العلم بيننا وبينكم يوم الجنائز » .

وقد وجد بخط الشيخ - رحمه الله - أبيات كتبها بالقلعة وهي :

أنا الفقير إلى رب السموات ... أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي ... والخير إن جاءنا من عنده يأتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة ... ولا عن النفس دفع المضرات
وليس لي دونه مولى يدبرني ... ولا شفيع إلى رب البريات
إلا بإذن من الرحمن خالقنا ... رب السماء كما قد جاءت في الآيات
وليست أملك شيئًا دونه أبدًا ... ولا شريك أنا في بعض ذراتي
ولا ظهير له كيما أعاونه ... كما يكون لأرباب الولايات
والفقر لي وصف ذات لازم أبدًا ... كما الغني أبدًا وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم ... وكلهم عنده عبد له آتي
فمن بغى مطلبًا من دون خالقه ... فهو الجهول الظلوم المشرك العاتي
والحمد لله ملء الكون أجمعه ... ما كان منه وما من بعده يأتي
ثم الصلاة على المختار من مُضَرٍ ... خير البرية من ماضٍ ومن آتي

وله أيضًا :

إن لله علينا أنعما ... يعجز الحصر عن العد لها
فله الحمد على أنعمه ... وله الحمد على الشكر لها

قال ابن الألوسي : « وقد ترجمته علماء المذاهب المعاصرون له وغيرهم بتراجم مفصلة ، وأثنوا عليه الثناء الحسن ، وذكر له كرامات عديدة ، ومواظبة على الطاعات والعبادات ، وتجنبًا عن البدع ، وشدة اتباع السُنن ، وطريق السلف الصالح ، وأنه لم يتزوج حتى مات » .

هيئته ـ رحمه الله ـ :

قال ابن الألوسي : « وكان أبيض اللون ، أسود الرأس واللحية ، قليل الشيب ، شعره إلى شحمتي أُذنيه ، عيناه لسانان ناطقان ، ربعة من الرجال ، بعيد ما بين المنكبين ، جهوري الصوت » .

ما كتبه العلماء في وفاة الشيخ :

وقد ذكر نبذة من اختياراته العلامة ابن رجب المتوفي سنة سبعمائة وخمس وتسعين في طبقاته ، وفصَّل أيضًا سيرته وأحواله والثناء عليه .

وفاة شيخ الإسلام :

وقد توفي سنة سبعمائة وثمان وعشرين ، سحر ليلة الاثنين عاشر ذي القعدة الحرام ، في السجن ، فأخرج إلى جامع دمشق فصلوا عليه ، فكان يومًا مشهودًا ، لم يعهد بدمشق مثله ، وبكى النَّاس بكاءً شديدًا ، وتبركوا بماء غُسله ، واشتد الزحام على نعشه ، ودفن بمقابر الصوفية بعد أن صلوا عليه مرارًا ، وحزر من حضر جنازته بمئتي ألف ، ومن النساء بخمسة عشر ألف ، وختمت له ختامات كثيرة (١) ، ورثي بقصائد بليغة ، منها : **قصيدة الشيخ عمرو بن الوردي وهي :**

عثا في عرضه قومٌ سلاط ... لهم من نثر جوهره التقاط
تقي الدين أحمد خير خبر ... خروق المعضلات به تخاط
توفي وهو محبوس فريد ... وليس له في الدنيا انبساط
ولو حضروه حين قضي لألفوا ... ملائكة النعيم به أحاطوا
قضى نحبًا وليس له قرين ... ولا لنظيره ألف القماط
فتي في علمه أضحى فريدًا ... وحل المشكلات به يُناط

---

(١) هذه وتلك حكاية حال ذكرها ابن الألوسي وابن الهادي وكان ينبغي ردها ، إذا لم يكن ذلك من سلفنا الصالح ولا وردت به السُنن ، والعبادات توفيقية تؤخذ دون زيادة أو نقصان .

وكان إلى التُّقَى يدعو البرايا ... وينهى فرقة فسقوا ولاطوا
وكان الجن قد تفرق من سطاه ... بوعظ للقلوب هو السياط
فيالله ما قد ضم لحد ... ويا لله ما قد غطى البلاط
هم حسدوه لما لم ينالوا ... مناقبه فقد مكروا وشاطوا
وكانوا على طرائقه كسالى ... ولكن في أذاه لهم نشاط
وحبس الدر في الأصداف فخر ... وعند الشيخ في السجن اغتباط
بآل الهاشمي له اقتداء ... فقد ذاقوا المنون ولم يواطوا
بنو تيمية كانوا فبانوا ... نجوم العلم أدركها انهباط
ولكن يا ندامة حابسيه ... فشك الشرك كان به يماط
ويافرح اليهود بما فعلتم ... فإن الضد يعجبه الخباط
ألم يك فيكم رجلٌ رشيد ... يرى سجن الإمام فيستشاط
إمام ولاولاية كان يرجو ... ولا وقف عليه ولا رباط
ولا جاراكمو في كسب مال ... ولم يعهد له بكم اختلاط
ففيم سجنتموه وغظتموه ... أما لجزا أذيته اشتراط
وسجن الشيخ لا يرضاه مثلي ... ففيه لقدر مثلكم انحطاط
أما والله لولا كنتم سرى ... وخوف الشر لانحل الرباط
وكن أقول ما عندي ولكن ... بأهل العلم ما حسن اشتطاط
فما أحد إلى الإنصاف يدعو ... وكل في هواه له انخراط
سيظهر قصدكم يا حابسيه ... ونبئكم إذا نُصِب الصراط
فما هو مات عندكم واسترحتم ... فاعطوا ما أردتم أن تعاطوا
وحلوا واعقدوا من غير رد ... عليكم وانطوى ذاك البساط

ابتلى ابن تيمية كما ابتلى الصالحون من قبل :

قال ابن الألوسي - رحمه الله - :

« وما زال الناس ولا سيما الكبراء والعلماء يبتلون في الله تعالى ويصبرون ، وقد كانت الأنبياء - عليهم السلام - يُقتلون، وأهل الخير في الأُمم السالفة يُقتلون ويحرقون، وينشر أحدهم بالمنشار وهو ثابت على دينه ، ولولا كراهية التطويل لذكرت من ذلك ما يطول ، وقد قُتِلَ عمر ، وعثمان ، وعلي ، وسُمَّ الحسن ، وقُتِلَ الحسين وابن الزبير ، وصُلِبَ خبيب بن عدي، وقُتِلَ الحجاج عبد الرحمن بن أبي ليلى ، وسعيد بن الجُبير ، وقُتِلَ زيد بن عليّ ، وأما من ضُرِبَ من العلماء فكثيرون ، منهم : عبد الرحمن بن أبي ليلى ضربه الحجاج أربعمائة سوط ثم قتله ، وسعيد بن المسيب ضربه عبد الملك ابن مروان مئة سوط ، وصُبَّ عليه جرة ماء في يوم شات ، وأُلبس جبة صوف ، وخُبيب بن عبد الله بن الزبير ، ضربه عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد مئة سوط ، وذلك أنه حدث عن النَّبي ﷺ أنه قال : « إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا عباد الله خولاً ، ومال الله دولاً فكان عمر إذا قيل له أبشر قال : كيف بخيب على الطريق ؟! ، وأبو عمرو بن العلاء ضربه بنو أمية خمسمائة سوط ، والإمام موسى الكاظم سجنه هارون حتى مات ، والإمام أبو حنيفة توفي في السجن بعد أن ضرب وقيل أوجر سُماً ، والإمام مالك بن أنس ضربه المنصور [1] أيضاً سبعين سوطاً في يمين المكره ، وكان مالك يقول : لا يلزمه اليمين ، والإمام أحمد امتحن وسجن وضُرِبَ في أيام بني العباس، وللشيخ ابن تيمية في هؤلاء الأئمة أُسوة ، ولو أردنا استقصاء ما ذكره معاصروه من الثناء عليه ، وبيان سيرته ومفصل أحواله لأفضى بنا إلى الطول والقلم لملت ملولاً ويكفي من القلادة ما أحاط بالجيد .

---

(١) كذا بالأصل ، وهو غير صحيح ، والذي في كتب التاريخ : أن الذي ضرب الإمام مالك هو جعفر ابن سليمان والي المدينة من قبل المنصور وابن عمه ، ولما علم المنصور بضرب الإمام وما نزل به أعظم ذلك إعظاماً شديداً وأنكره على ابن عمه وكتب بعزله ، واعتذر للإمام مالك .

أقسام المنتقدين لابن تيمية - رحمه الله - :

قال ابن الألوسي - رحمه الله - :

« إن أكثر المنتقدين من المعاصرين وأشدهم في الوقوع فيه : الإمام السبكي ، ومن المتأخرين الشاذ النادر ، وهم على أقسام : فمنهم من شنع لداء المعاصرة ، ومنهم لشهرة كاذبة من غير تحقيق ، ومنهم لمخالفة في العقيدة ، ومنهم حُبًّا في ابن عربي وأتباعه ، ومنهم اقتداء بشيخه المنافس له » أ . هـ .

مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية

- رحمه الله -

بعض مؤلفاته في العقيدة :

[١] كتاب الاستقامة .

[٢] تفصيل الإجمال فيما تجب لله من صفات الكمال .

[٣] كتاب : اقتضاء الصراط المستقيم في الرد على اليهود والنصارى .

[٤] كتاب : الإيمان ، كتاب جامع لتعريف الإيمان والإسلام والفرق بينهما .

[٥] كتاب : شرح العقيدة الأصفهانية .

[٦] رسالة : العقيدة الحموية .

[٧] رسالة : العقيدة التدمرية : مجمل عقيدة السلف .

[٨] رسالة : العقيدة الواسطية : مختصر عقيدة السلف .

[٩] رسالة : عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة .

[١٠] رسالة : المناظرة في العقيدة الواسطية .

[١١] الرسالة : الكيلانية .

[١٢] الرسالة : البغدادية .

[١٣] الرسالة : البعلبكية .

[١٤] الرسالة : الأزهرية .

[١٥] السؤال : عن العرش .

[١٦] الوصية الكبرى في بيان الفِرقة الناجية .

[١٧] جوامع السياسة الإلهية .

[١٨] معارج الوصول .

[١٩] رسالة الأكليل في المتشابه والتأويل .

[٢٠] رسالة مراتب الإرادة .

[٢١] رسالة القضاء والقدر .

[٢٢] رسالة الاحتجاج بالقدر .

[٢٣] بيان الهدى من الضلال .

[٢٤] معتقدات أهل الضلال .

[٢٥] منهاج السُّنَّة النبوية .

[٢٦] الجمع بين العقل والنقل أو درء تعارض العقل والنقل أو موافقة صحيح المنقول صريح المعقول .

[٢٧] الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان .

[٢٨] الواسطة بين الحق والخلق .

[٢٩] نقض المنطق .

[٣٠] نقض تأسيس التقديس للرازي ، سبع مجلدات .

[٣١] العبودية .

[٣٢] معالم الأصول في تفنيد قول الفلاسفة والقرامطة في كذب الأنبياء في بعض الأحيان .

[٣٣] الوصية الصغرى في الدين والدنيا .

[٣٤] رسالة الإستغاثة .

[٣٥] رسالة في درجات اليقين .

[٣٦] رسالة في التوسل والوسيلة .

[٣٧] رسالة في الكلام على الفطرة .

[٣٨] الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح .

[٣٩] تخجيل أهل الإنجيل .

[٤٠] الرد على النصارى .

[٤١] الرد على النصيرية .

[٤٢] الصارم المسلوم في الرد على شاتم الرسول .

[٤٣] المسألة النصيرية .

[٤٤] مسألة الكنائس .

[٤٥] كتاب مذهب السلف القويم في تحقيق كلام الله الكريم .

[٤٦] العقيدة المراكشية .

[٤٧] مسألة العلو .

[٤٨] نقد تأسيس الجهمية .

[٤٩] إطال قول الفلاسفة بإثبات الجواهر العقلية .

[٥٠] بغية المرتاد في الرد على الفلاسفة والقرامطة والباطنية .

[٥١] الرد على الحلولية والاتحادية .

[٥٢] شرح حديث النزول .

[٥٣] الفتاوى الكبرى .

[٥٤] رسالة الإرادة والأمر .

[٥٥] مجموع الفتاوى في ٣٠ مجلد .

تراجم ودراسات حول شيخ الإسلام ابن تيمية
- رحمه الله -

[١] العقود الدرية ، محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي .

[٢] عقيدة ابن تيمية الحنبلي ، محمد أحمد الهبراوي .

[٣] ابن تيمية إمام السيف والقلم ، سعد صادق محمد .

[٤] ابن تيمية بطل الإصلاح الديني ، محمد مهدي الاستانبولي .

[٥] ابن تيمية ، حياته وعصره ، محمد أبو زهرة .

[٦] ابن تيمية السلفي ، د . محمد خليل هراس .

[٧] ابن تيمية الفقيه المعذب ، عبد الرحمن الشرقاوي .

[٨] ابن تيمية المفترى عليه ، محمد سليم الهلالي .

[٩] ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل ، د . محمد السيد الجليند .

[١٠] الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية ، سراج الدين أبو حفص عمر البزار .

[١١] البداية والنهاية (١٤/١٦٣) ، الحافظ ابن كثير .

[١٢] البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (١٦٣/١) محمد علي الشوكاني .

[١٣] تاريخ المذاهب الإسلامية (٢/٤٠٥) ، محمد أبو زهرة .

[١٤] تذكرة الحافظ (٤/١٤٩٦) ، للإمام الذهبي .

[١٥] ترجمة شيخ الإسلام ، محمد كرد علي .

[١٦] جلاء العينين في محاكمة الأحمدين ، نعمان خير الدين ابن الألوسي .

[١٧] الحافظ ابن تيمية ، أبو الحسن الندوي جمال الدين السرمري .

[١٨] حياة شيخ الإسلام ، محمد بهجة البيطار .

[١٩] تيسير الفقه الجامع للاختيارات الفقهية ، د . أحمد موافي .

[٢٠] ابن تيمية ، محمد يوسف موسى .

[٢١] منطق ابن تيمية ، محمد الزين .

[٢٢] شذرات الذهب ، لابن العماد الحنبلي .

[٢٣] التاريخ ، لابن الوردي .

[٢٤] فوات الوفيات ، صلاح الدين بن شاكر الكتبي .

[٢٥] الطبقات ، لابن رجب الحنبلي .

[٢٦] مجموعة الفتاوى المصرية لابن تيمية ، بدر الدين أبي عبد الله محمد بن علي الحنبلي البعلي .

[٢٧] رجال الدعوة والفكر ، للندوي .

[٢٨] رسائل من السجن لابن تيمية ، محمد العبدة .

[٢٩] دائرة المعارف الإسلامية « ابن تيمية » محمد بن شنب .

[٣٠] مدارج السالكين ، لابن القيم .

[٣١] روضة المحبين ، ابن القيم .

[٣٢] رحلة ابن جبير .

[٣٣] رحلة ابن بطوطة .

[٣٤] ابن القيم من آثاره العلمية ، أحمد ماهر محمود البقري .

الخاتمة

علم من أعلام الهُدى

يستحق شيخ الإسلام ابن تيمية بكل جدارة أن يعتبر في أعلام المجددين المصلحين ، وذلك بما خلفه وراءه من ذخائر العلوم والمؤلفات ، فهو فقيه عصره والعصور التي تلت القرن الثامن الهجري ، كما كان عاملاً قويًا من بين العوامل الآخرى للحركات الإصلاحية التي نشأت في أرجاء العالم الإسلامي المختلفة منذ القرن الثاني عشر الهجري ، إذ قد تأثرت به رحمه الله طبقة كبيرة من المؤلفين والدعاة والمصلحين في كل دور من أدوار التاريخ منذ ظهوره ، ولقد ركز رحمه الله على معنى التوحيد والاتباع ، وانصبغ هو بذلك ، فكان مثالاً للعالم الرباني العامل ، وعمل جاهداً للرجوع بالأمة من حوله للكتاب والسُّنَّة بفهم سلف الأُمَّة فأبطل العقائد والتقاليد المشركة ، ورد على عُبَّاد القبور ، ومن استخف بشعائر الله واستهزأ بالله ، واعتقد بألوهية المشايخ ، وتطرق إلى فتنة المشاهد ، والحج إليها ، وترجيح الحج إلى القبور علي الحج إلى الكعبة ، مما أدى إلى الإعراض عن المساجد وغير ذلك مما شاع في زمانه ، ولا زالت آثاره باقية إلى يومنا هذا .

كما نقد رحمه الله الفلسفة والمنطق وعلم النفس، ورجح أسلوب الكتاب والسُّنَّة، ورد على الفِرق ، والملل والنحل الزائغة عن مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ، وقاوم عقائدها وتقاليدها المنحرفة ، فكانت حياته بذلك جهاداً في سبيل الله ينتقل من ساحة إلى أخرى ، فهو تارة خرج بنفسه لقتال التتار وشحذ همم الملوك والأمراء والعامة لمواجهتهم ، وتارة أخرى يتصدى للعقائد الخربة التي أضعفت النفوس ، واستمطرت البلاء على البلاد والعباد ، وتارة أخرى يخرج هو وأصحابه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم هو لا يكف عن جهاده حتى وهو في حبسه وسجنه فما انقطع عن الكتابة والتأليف نصحًا للأمة وبيانًا لأصول الإيمان ، وتأكيداً

لمعاني الأخوة ، ودفعًا للخلق لكل ما يقر بهم من رضوان الخالق جل وعلا .

وقد تميز رحمه بالذاكرة الموهوبة والذكاء النادر حتى قال عنه الحافظ الذهبي :

« ما رأيت أشد استحضاراً للمتون وعزوها منه ، وكانت السُّنَّة بين عينيه وعلى طرف لسانه » .

وقال أيضًا : « يصدق عليه أن يقال : كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث » ، وقال : « كان يتوقد ذكاءً » ، و « كان آية على الذكاء وسرعة الإدراك » ، وقال فيه بعض معاصريه : « لم يولد مثله منذ قرون » ، وقد تبَّحر شيخ الإسلام في العلوم والمعارف ، وما دخل في علم إلا وفاق أهله فيه ، يعلم ذلك من قرأ وطالع ردوده على النصارى والفلاسفة وأهل الفرق ، حتى قال عنه العلامة ابن دقيق العيد : « لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً العلوم كلها بين عينيه يأخذ ما يريد ويدع ما يريد »، وقال عنه خصمه جمال الدين الزملكاني : « كان إذا سُئِل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن ، حكم أن أحداً لا يعرف مثله » ، وقال : « لم يرى من خمسمائة سنة أحفظ منه » .

وقال الذهبي : « ومعرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب » .

وقال أيضًا : لو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله ، ولا رأى هو مثل نفسه في العلم » .

وكانت شجاعته ـ رحمه الله ـ أمام الموت موضع دهشة جميع معاصريه حتى وصفه الحافظ سراج الدين بقوله : « وكان إذا ركب الخيل يجول في العدو كأعظم الشجعان ويقوم كأثبت الفرسان وينكي العدو من كثرة الفتك بهم ويخوض بهم خوض رجل لا يخاف الموت ، وشجاعته ـ رحمه الله ـ في مجال العلم والتحقيق والصدع بالحق لا تقل أهمية وقيمة ، فقد عارض البدع والمنكرات السائدة في عصره ،

وجاهد بالعلم واللسان مقابل وحدة الوجود ونظرية الحلول والاتحاد ، وهتك الأستار عن تلبيسات المتصوفين الدخلاء والمبتدعين المفترين ، ورفع لواء الثورة على المنطق والفلسفة اليونانية ، ولقد كان - رحمه الله - مجتهداً اجتهداً مطلقًا لا تأسره عادة أو عُرف أو مسألة مشتهرة منتشرة ، بل كان يُبلغ ما يراه صوابًا حتى أنه لما ذكر أبو حيان النحوي بعض مسائل النحو برواية سيبويه ، أجابه شيخ الإسلام : بأنه لم يكن نبيًّا نزل عليه النحو، بل إنه أخطأ في ثمانين موضعًا من الكتاب ، وكان علماء النحو يعتقدون في سيبويه إمامًا للنحو واجب الاتباع .

وقد تحدث الحافظ الذهبي عن شجاعته واستقامته العلمية والدينية فقال :

« أطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون ، وهابوا وجسر هو عليها حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قيامًا لا مزيد عليه ، وبدَّعوه وناظروه وكاتبوه ، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي ، بل يقول الحق الذي أداه إليه اجتهاده وحدة ذهنه وسعة دائرته في السُنن والأقوال وما اشتهر عنه من الورع وكمال الفكر وسعة الإدراك والخوف من الله العظيم ، والتعظيم لحرمات الله ، فيجري بينه وبينهم حملات حربية ووقعات شامية ومصرية ، وكم من نوبة رموه عن قوس واحد فينجيه الله » .

وقال عنه أيضًا : « وله الأن عدة سنين لا يفتي بمذهب معين بل بما قام الدليل عليه ، ولقد نصر السُنَّة المحضة والطريقة السلفية ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها » .

وقال عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني صاحب « فتح الباري » :

« إنه شيخ مشايخ الإسلام في عصره بلا ريب ، والمسائل التي أنكرت عليه ما كان يقولها بالتشهي ولا يصر على القول بها إلا بعد قيام الدليل عليه غالبًا . . . إلى أن قال : حتى كان أشد المتعصبين عليه والعاملين في إيصال الشر إليه وهو الشيخ جمال الدين الزملكاني شهد له بذلك » .

وكان ـ رحمه الله ـ قد قطع جُلَّ وقته وزمانه في العبادة ، حتى أنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله ومما يزاوله ، ولا معاملة ولا تجارة ولا مشاركة ولا مزارعة ولا عمارة ، ولا كان ناظرًا أو مباشر لمال وقف، ولم يقبل جراية ولا صلة لنفسه من سلطان ولا أمير ولا تاجر ، ولا كان مدخرًا ديناراً ولا درهمًا ولا متاعًا ولا طعامًا ، وإنما كانت بضاعته مدة حياته وميراثه بعد وفاته ـ رحمه الله ـ العلم اقتدى بسيد المرسلين فإنه قال : « إن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهمًا ، ولكن ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر »(١) ، ولا يزال تارة في إفتاء الناس ، وتارة في قضاء حوائجهم ، يصلي مع الجماعة ، ويعطي الدرس ويقبل على العلوم ، وهو في خلال ذلك كله يقضي الليل والنهار يذكر الله تعالى ويوحده ويستغفره ، ولا أدل على إخلاصه وورعه من أنه عفا عن أعدائه ، وأعلن بصراحه : « أحللت كل مسلم عن إيذائه لي » ، فلم تكن خلافاته لشائبة نفسية وعداوة وإنما كانت على أساس علمي وانتصاراً لدين الله ، وهذا كله جعله ـ رحمه الله ـ مفخرة لأهل العلم ، وجعل تأثيره عميقًا في عصره والعصور التي تلته ، مما يؤهله لأن يكون رائداً من رواد التجديد والإصلاح ، وذا شخصية قوية لها بصماتها في تاريخ الأُمَّة .

ومن عجيب ما يتميز به رحمه الله قربه من العامة والخاصة وبساطة أسلوبه ، وخلو كتبه من الجفاف والتعقيد ، وارتباط أسلوبه بالحياة ، حتى وكأنه يعيش في وسطنا ، وفتاواه لمعالجة واقعنا ، قال عنه الحافظ أبو حفص: « يجري كما يجري التتار، ويفيض كما يفيض البحر ، ويصير منذ يتكلم إلى أن يفرغ كالغائب عن الحاضرين مغمضًا عينيه ، ويقع عليه إذ ذاك من المهابة ما يرعد القلوب ، ويحير الأبصار والعقول » .

وقال عنه الأقشهري : « وقلمه ولسانه متقاربان » ، فمؤلفاته وكتبه ليست منقطعة عن الناس بل هي تشير إلى عواطفه وحماسه وتنبض حياة وحيوية ، تدلك

---

(١) حديث حسن ، أخرجه أبو داود في كتاب العلم ، باب « الحث على طلب العلم» (٣٦٤١) ، والترمذي في كتاب «العلم » (٢٦٨٢) ، وابن ماجة (٢٢٣) ، والدارمي (٣٤٢) ، وأحمد (٥/١٩٦) .

دلالة واضحة على سعة اطلاع شيخ الإسلام ، ومعرفته بمقاصد الشريعة ، وأنه أخذ بأطراف الدين وأصوله ، قال عنه تلميذه أبو حفص البزار « كان ابن تيمية إذا شرع في الدرس يفتح الله عليه أسرار العلوم ، وغوامض ولطائف ودقائق فنون ونقول ، واستدلالات بآيات وأحاديث واستشهاداً بأشعار العرب » ، وقال عنه أحد مناظريه الشيخ صفي الدين الهندي : « ما أراك يابن تيمية إلا كالعصفور حيث أردت أن أقبضه من مكان فر إلى مكان آخر » .

ونحن عندما نذكر وننقل هذه المعاني لا ننقل ذلك غلواً فيه - رحمه الله - ولا ندعي له العصمة بل هو كما قال ابن القيم في شيخه : « شيخ الإسلام حبيب إلى أنفسنا والحق أحب إلينا منه » ، وما أردنا إلا إنصافه وإبراز قيمته ، وتوضيح دعوته التجديدية الإصلاحية في منهجه ، في وقت شاعت فيه الغربة واشتد فيه الإنحراف وكثر فيه الادعاء .

إننا نرفض انتقاصه والحط من شأنه وقدره ، فلحوم العلماء مسمومة وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة ، وإذا لم يكن العلماء بأولياء لله فليس لله ولي كما قال الإمام الشافعي .

ونرفض النزعات العقلانية التجديدية التي جعلت الدين خلف أظهرها ، فلا تعارض بين نص صحيح وعقل صريح ، وإذا حدث فإما أن يكون النص غير صحيح أو العقل غير صريح ، ولابد من تقديم النقل على العقل ورفض التأويل الكلامي ، وعلى العقلانيين هنا وهناك أن يرجعوا لكتاب شيخ الإسلام « درء تعارض العقل والنقل » فالعقل متولي ولي الرسول ثم عزل نفسه ، والعقل دابة توصلك إلى قصر السلطان لكن لا تدخل بها عليه .

كما نرفض أيضًا هذه الشخصيات الشوهاء ، التي تربت على الرقص والغناء ومتابعة الموضات ، أو تلك التي تربت على أفكار الصوفية والمعتزلة وما شابه ذلك ، فلا هذه ولا تلك تصلح لإقامة خلافة على منهاج النبوة ، ولا تستطيع إقامة حضارة

على أساس منهاج العبودية ، ولا تقوى على مواجهة يهود وأشباه يهود .

إننا بحاجة إلى شخصية تتوافر فيها شمولية النظرة تتسم بمعاني الأصالة لا التقليد وتطالب بالتقدم لا الرجوع إلى الوراء ، والتقدم الذي ننشده ليس معناه هجران الدين ولا التخلي عن الأخلاق الإيمانية ، وإنما هو قيد الدنيا بدين الله فهذا هو التقدم والتطور والتحضر الحقيقي ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : ٥] ، فلا معارضة بين صناعة الطائرة وبناء المدرسة والمستشفى ، وبين إطلاق اللحية وتقصير ثوب الرجل وإظهاره لشعائر دينه ، فالعبادات الأصل فيها التوقيف دون زيادة أو نقصان ، أما المعاملات فالأصل فيها الإباحة مع مراعاة ضوابطها الكلية ، إننا نرفض الفصل بين الدين والدولة ، وبين بعض العبادات والبعض الآخر ، وبين الأرض السماء ، كما نرفض الفصل بين العلم والعمل ، وبعض الساعات والبعض الآخر ، وبعض الرجال والبعض الآخر ، فالحسبة واحدة ولابد من الاستقامة فيها على شرع الله .

لقد كانت بداية شيخ الإسلام رحمة وتوفيق وفضل فقد ذكر ابن عبد الهادي في كتابه « العقود الدرية » :

« أنه اتفق أن بعض مشايخ العلماء بحلب قدم إلى دمشق وقال : سمعت في البلاد بصبي يقال له أحمد بن تيمية، وأنه سريع الحفظ، وقد جئت قاصداً لعلِّي أراه، فقال له خياط : هذه طريق كُتَّابه وهو إلى الآن ما جاء فاقعد عندنا الساعة يجيء يعبر علينا ذاهبًا إلى الكُتَّاب ، فجلس الشيخ الحلبي قليلاً ، فمر صبيان ، فقال الخياط للحلبي : هذاك الصبي الذي معه اللوح الكبير هو أحمد بن تيمية ، فناداه الشيخ فجاءه إليه ، فتناول الشيخ اللوح ، فنظر فيه ثم قال : يا ولدي امسح هذا حتى أُملي عليك شيئًا تكتبه ، ففعل فأملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر أو ثلاثة عشر حديثًا ، قال له : اقرأ هذا فلم يزد على أن تأمله مرة بعد كتابته إياه ، ثم دفعه إليه ، وقال : أسمعه عليَّ فقرأه عرضًا كأحسن ما أنت سامع ، فقال له : يا ولدي امسح هذا ، ففعل ، فأملى عليه عدة أسانيد انتخبها ، ثم قال : اقرأ هذا ، فنظر إليه كما

فعل أو مرة فقام الشيخ وهو يقول : إن عاش هذا الصبي ليكونن له شأن عظيم فإن هذا لم يُرَ مثله .

لقد تهيأت لشيخ الإسلام ظروف النشأة الحسنة ، والإنسان ابن بيئته كما يقولون ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ثم كانت نهايته محمودة وجنازته مشهودة ، وقد مات في السجن مظلومًا وحياته بين البداية والنهاية ، علم وعمل وجهاد وتجديد وإصلاح ، فرحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء .

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، وأشهد أن لا إله إلا أنت ،أستغفرك وأتوب إليك ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كتبه

سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

فهرس

رقم الصفحة

■ المقدمة ٥

■ نشأة شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ ١٣

■ ابن تيمية السلفي ٣٣

■ بعض سمات وملامح المنجية الإصلاحية عند ابن تيمية ٣٦

[١] عدم الثقة المطلقة بالعقل ٣٦

[٢] عدم اتباع الرجال على أسمائهم وشهرتهم ومقامهم ٣٨

[٣] أن الشريعة أصلها القرآن وقد فسره محمد ﷺ بالسُّنَّة ٣٨

[٤] عدم التعصب في تفكيره والبعد عن الغُلو والجمود ٣٩

قواعد المنهج السلفي: ٤٠

[١] تقدم الشرع « النقل » على العقل ٤٠

[٢] رفض التأويل الكلامي ٤١

[٣] الاستدلال بالآيات القرآنية ٤٢

■ تركيز شيخ الإسلام على دعوة التوحيد والابتلاء بسبب ذلك ٤٤

■ موقف شيخ الإسلام من المِلل ورده على من بدَّل دين المسيح ٤٧

■ نقض شيخ الإسلام للمنطق والفلسفة ٥٠

■ معنى الفلسفة وأقسام الفلاسفة ٥٠

■ إنصاف شيخ الإسلام في نقد خصومه ٥١

■ نقد شيخ الإسلام للصوفية ٥٦
■ رأي شيخ الإسلام ابن تيمية في الولاية والأولياء ٦٣
■ رأي ابن تيمية في التوسل ٦٤
■ قول ابن تيمية في شدا لرحال لزيارة القبور ٦٦
■ رد شيخ الإسلام على الشيعة والرافضة ٦٩
■ موقف شيخ الإسلام من قضية التأويل ٧٢
■ الموقف من العلماء الذين قالوا ببعض البدع أو بالأقوال الباطلة ٧٥
■ الصراع المنهجي العقائدي « الأيدلوچي » ٧٨
أصول ابن تيمية الفقهية ٨١
أولاً: مكانة النص في الاستدلال عند ابن تيمية ٨١
ثانياً: علاقة النص بالإجماع ٨١
ثالثاً: العلاقة بين النص والقياس ٨٢
■ رأي شيخ الإسلام في الاستصحاب ٨٤
■ موقف شيخ الإسلام من المصالح المرسلة ٨٤
■ حثه للتخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل ٨٧
■ رأي شيخ الإسلام في تكفير المعين ٨٨
■ التفسير عند شيخ الإسلام ابن تيمية ٩٠
■ أصوله في التفسير ٩١
■ السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ٩٣
■ رأي شيخ الإسلام في اتخاذ الإمارة ٩٥
■ الديمقراطية والدولة المدنية وأخذ الآراء لتطبيق الشريعة سفاهات وتفاهات ٩٩

- بعض مظاهر تواصل السلفيين المعاصرين مع دعوة شيخ الإسلام ١٠٧

أولاً : الحرص الحقيقي على وحدة الصف وجمع الكلمة ١٠٨

ثانيًا : منهجهم في التعامل مع النصوص واستنباط الأحكام ١١٠

ثالثًا : اهتمامهم بالعقيدة وقولهم التوحيد أولاً ، وكلمة التوحيد قبل توحيد الكلمة ١١٢

رابعًا : التصفية والتربية عند السلفيين المعاصرين ١١٤

خامسًا : الحث على الاتباع وذمٍّ الابتداع ١١٦

سادسًا : حيطة سلفية معاصرة تتعلق بالأسماء والصفات ١١٨

سابعًا : دعوتهم وجهادهم ١٢٠

- فطنته وحيطته وهمَّته ـ رحمه الله ـ ١٢٤
- الفرق الكبير بين تعظيم ابن تيمية للصحابة رضي الله عنهم ونظرة الشيعة لهم ١٢٧
- عقيدة المعتزلة وفرقهم ١٣٠
- التحسين والتقبيح عند شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ ١٣٤
- عقيدة الأشعري ١٣٦
- منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الصفات ١٤١
- بعض رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية التي بعث بها من سجنه ١٤٤

• رسالة اعتذار إلى والدته ١٤٤

• رسالة الشيخ إلى إخوانه في دمشق ١٤٦

• رسالة من أخيه عبد الله يشرح فيها حال شيخ الإسلام ١٥١

• رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية من سجنه بالإسكندرية إلى أصحابه يحثهم فيها على التبتل والخشوع إلى الله تعالى ١٥٣

- رسالة إلى أهله في القاهرة ١٥٧
- رسالة من سجن القلعة بدمشق ١٥٨
- حديث شيخ الإسلام عن الحسد كمرض نفسي ١٦٠
- رسالة إلى السلطان ١٦٧
- رسالة في أهمية وشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٦٩
  - مسائل الإيمان والكفر ١٧٢
  - فتاوى شيخ الإسلام بدمشق وبعض اختياراته التي خالف فيها المذاهب الأربعة أو بعضها ١٧٦
  - بعض أسباب الخلاف بين ابن تيمية وغيره من الفقهاء في التعامل مع النصوص ١٧٨

أولاً: حجية القياس عنده وضابط بذلك ١٨٢

ثانيًا: حجية فتاوى الصحابة وضابط ذلك ١٨٤

ثالثًا: سد الذرائع وحجيته عند ابن تيمية ١٨٥

- الاختيارات الفقهية لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٨٨

القسم الأول: الاختيارات المخالفة لما عليه الجمهور بالمعنى الواسع للجمهور ١٨٨

القسم الثاني: الاختيارات المخالفة لما عليه المذاهب الأربعة ١٩٠

القسم الثالث: الاختيارات التي وافق فيها شيخ الإسلام ابن تيمية أحد المذاهب الأربعة وخالف الثلاثة الأخرى ١٩٢

القسم الرابع: الاختيارات التي وافق فيها ابن تيمية بعض الفقهاء وخالف البعض الآخر وأحيانًا كان يوافق الجمهور ١٩٤

القسم الخامس : الاختيارات التي كان مذهب ابن تيمية فيها وسطًا بين مذهبي العلماء ١٩٥
- صفوة القول فيما يتعلق بأصول ابن تيمية واختياراته ١٩٦
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وضابط ذلك عند ابن تيمية ٢٠١
- معاملة الشيخ في سجنه ٢٠٢
- وفاة شيخ الإسلام - رحمه الله - بالقلعة وما كتب بها قبل موته ٢٠٣
- شهادة أئمة الإسلام لابن تيمية ٢٠٤
- ثناء العلماء على شيخ الإسلام ٢٠٧
- وفاة شيخ الإسلام ٢١٧
- تبرئة شيخ الإسلام مما نُسب إليه وثناء المحققين المتأخرين عليه ٢٢٠
- أقسام المنتقدين لابن تيمية ٢٢٢
- مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٢٣
- تراجم ودراسات حول شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٢٦
- الخاتمة ٢٢٨
- الفهرس ٢٣٥

تم بحمد الله